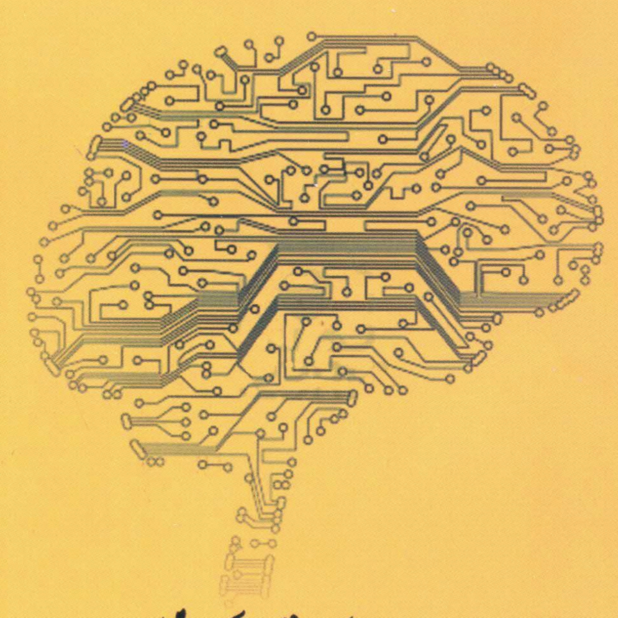
الغزو الفكري

التحدي والمواجهة



أ.د/ إسماعيل علي محمد

أستاذ ورئيس قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

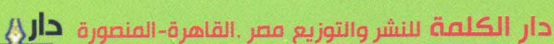
بكلية أصول الدين والدعوة - جامعة الأزهر



د. إسماعيل علي محمد

* من مواليد عام ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م في قرية "كفر حماد" مركز "كفر صقر". محافظة الشرقية. مصر.
* حفظ القرآن الكريم - صغيرًا - في كُتّاب القرية, ثم التحق بالأزهر الشريف, إلى أن تخرّج في كلية أصول الدين والدعوة - جامعة الأزهر - عام ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
* نال درجة الدكتوراه من كلية أصول الدين بالقاهرة جامعة الأزهر عام ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.
* تدرّج في العمل الأكاديمي الجامعي إلى أن حصل على درجة "أستاذ" عام ٢٠٠٥م, ثم رئيسا لقسم الدعوة والثقافة الإسلامية, في كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة عام ٢٠٠٨م.
* أستاذ في جامعة الأزهر, وفي معاهد إعداد الدعاة بوزارة الأوقاف, والجمعية الشرعية في مصر, كما عمل بالتدريس في كلية الشريعة - جامعة الملك خالد بالسعودية.
* عضو محكّم في اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة والأساتذة المساعدين بجامعة الأزهر
* زار بعض الدول مثل أمريكا, ولبنان, والإمارات العربية المتحدة, وشارك في أنشطة دعوية وعلمية فيها, كما أنّ له إسهامات عن طريق الكتابة في الصحف والمجلات, والمواقع الإلكترونية, والفضائيات.
* صدر له عدد من البحوث والمؤلفات، منها:

١- الغزو الفكري .. التحدي والمواجهة.
٢- مدخل إلى دراسة النظم الإسلامية.
٣- الغزو الفكري في وسائل ثقافة الطفل المسلم .. مظاهره وآثاره.
٤- الخطابة في موكب الدعوة الإسلامية .. (بحوث في إعداد الخطيب الداعية).
٥- الاستشراق بين الحقيقة والتضليل .. (مدخل علمي لدراسة الاستشراق).
٦- مفتريات المستشرقين وعملائهم على الإسلام. [رد على كتاب (محمد واليهود نظرة جديدة)].
٧- أساطير عبد الصبور شاهين حول أبيه آدم. [رد على كتاب (أبي آدم قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة) للدكتور عبد الصبور شاهين).
٨- القدوة وأثرها في الدعوة إلى الله تعالى.
٩- معالم الحياة الراشدة في بلاغ حجة الوداع.
١٠- العولمة الثقافية وموقف الإسلام منها.
١١- الجذور الفكرية لانحراف الشخصية اليهودية.
١٢- الأخوّة الإسلامية فريضة شرعية وضرورة عصرية.
١٣- موقف جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي .. دراسة دعوية تحليلية.
١٤- صور من حقوق الطفل في الإسلام.
١٥- فن كتابة الثقافة الإسلامية للطفل.





القاهرة ت: ٠٠٢٠١٠٠٩٧٠٧٤٩٥
المنصورة ت: ٠٠٢٠١٠٦١٣٠٢٥٥٢
facebook.com/DarAlkalema

الغزو الفكري
التحدي والمواجهة

الطبعة الثانية ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م

بطاقة الفهرسة

محمد، إسماعيل علي

الغزو الفكري التحدي والمواجهة، الأستاذ الدكتور/ إسماعيل علي محمد. ط ٢. المنصورة: دار الكلمة للنشر والتوزيع، ٢٠١٣م

٣٩٢ص، ٢٤

رقم الإيداع: ١٧٨٠٨/ ٢٠١٢م

الترقيم الدولي: ٥ - ٤٢٧ - ٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

دار الكلمة للنشر والتوزيع

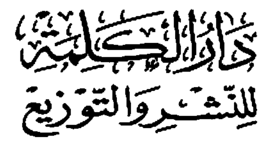
دار الكلمة للنشر والتوزيع مصر - القاهرة - المنصورة

القاهرة. محمول: ٠١٠٩٧٠٧٤٩٥ - المنصورة. ص.ب.: ١٦٧

E-mail:mmaggour@hotmail.com
E-mail:daralkalema_pdp@hotmail.com
www.facebook.com/DarAlkalema

الغـــزو الفـكـــري
التحـــدي والمـواجـهـة

دكتور / إسماعيل علي محمد
أستاذ ورئيس قسم الدعوة والثقافة الإسلامية
بكلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة ـ جامعة الأزهر





مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين ، أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد الأمين ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد : فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون في الدنيا حق وباطل ، وأن الصراع بينهما لا يتوقف ، والعداوة قائمة ومستمرة بين أتباعهما ، وكان هذا منذ أُهبط آدم وزوجه من الجنة ، ووُجِّه ليباشر القيام بمهام الخلافة في الأرض ، وهذا الصراع كائن إلى قيام الساعة ؛ لأن الأرض لن تخلوَ من حق وباطل ، وخير وشر معًا ، ولن تخلوَ كذلك من أنصارٍ للحق والخير ، كما لن تخلوَ من أعوان للباطل والشر .

وثمة أمر آخر وحقيقة واقعة ؛ هي أن دين الإسلام هو الحق الذي لا مراء فيه ، وأن ما عداه من أديان هو الباطل الذي لا شك فيه ، فكان من الطبيعي أن يتوحد خصوم الإسلام ـ وهم أهل باطل جمعهم العداء للحق ـ من أجل القضاء عليه ، والصد عنه ، والكيد لأتباعه .

قال تعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢] .

وقال سبحانه : ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا

وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:٢١٧] .

وكان من أعتى الأسلحة المستخدمة في هذا الصراع ؛ سلاحُ الغزو الفكريّ ، أو حرب الكلمة ، وكلاهما مرادف للغزو الثقافيّ ، وهو سلاح قديم ، مُورِس منذ أقدم عصور التاريخ ، واستُخدِم في الصراع بين الأمم والتنافس بين الشعوب ، وكان جنبًا إلى جنب مع الأسلحة العسكرية .

وكشأن أيّ سلاح يخضع للتطوير والتعديل والتحسين ، لمحاولة رفع كفاءته ، ومستوى أدائه لمهمته ؛ كذلك كان الغزو الفكريُّ ـ ولا يزال ـ سلاحًا يخضع للتطوير والتعديل ، وإدخالِ التحسينات اللازمة عليه ، من قِبَل خصومِ الإسلام ، ليسهم في القيام بالدور المطلوب ، وتحقيق أهدافهم ضد الإسلام وأهله ، وليحقق لهم أكبر الأرباح بأقل التكاليف ، وأحيانًا بدون تكاليف .

ثم إن الغزو الفكري في ظل حضارة أوربا المادية الحديثة ؛ قد انتقل إلى طور جديد خبيث ، إذِ استُخدِمت فيه كافةُ ما وصل إليه العلم الحديث من تقنيات ، وما أنتجته هذه الحضارة المادية اللادينيّة من وسائل لخدمته ، وسُخِّرت أجهزةٌ رهيبة عاتية من أجله ، حتى غدا هذا السلاح الخطير الآن فنًّا دقيقًا مستقلًّا برأسه ، يشكِّل تحدّيًا خطيرًا لعالم الإسلام ، ركزت عليه وبرعت فيه أوربا ، وأغراها بالمضيِّ قُدُمًا ما حققتْه من غَلَب على العالم الإسلامي في هذه الحِقْبة ، وهي تريد أن تكتب علينا هزيمة الأبد .

إننا لا نكون مبالغين إذا قلنا : إن أبرز سمات هذا العصر هو الحرب الفكرية ، خاصة الموجَّهة إلينا نحن المسلمين .

ومع هذا نجد من يرفع عقيرته ، ويجادل منكرًا أن يكون هناك شيء اسمه الغزو الفكريّ ، أو أنه يشكِّل تحديًا يهدد وجودنا وحضارتنا .

ويبدو أن مثل هذا الإنكار لا يصدر إلا عن أحد ثلاثة :

أـ إما عن جهول حجبته أغطية الجهل عن معرفة هذا الواقع .

ب ـ وإما عن ضحية من ضحايا الغزو الفكري .

ج ـ وإما عن ماكر هو نفسه وسيلة من وسائل التمكين للغزو الفكري .

من أجل هذا وغيره ؛ شرعت في إعداد هذه الدراسة الكاشفة عن خطورة الغزو الفكري ، مبينًا حقيقته ومصادره وأهدافه ، ثم وسائله وبعضًا من مظاهره ، وصوره في حياتنا ، وبعد ذلك كان الحديث عن مواجهة فعّالة لهذا الغزو الفكري ، حتى يندحر ، وتُستأصل من حياتنا جذوره ، وتزول كافة أشكاله ومظاهره ، ويبرأ المسلمون من بلائه .

ولا أدعي الكمال في عملي هذا ، فهو جُهد بشرٍ يخطئ ويصيب ، وإذا كان من توفيق فمن فضل الله عليّ ، وإن كان من قصور ؛ فمن نفسي ، وأرجو من الله العفو والسداد ، ومن القارئ الكريم الدعاءَ لي بالإخلاص والصواب ، وإسداءَ النصح ما أمكن .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، والحمد لله رب العالمين .

وكتبه /أبو عمر
د/ إسماعيل علي محمد علي
المحرم ١٤١٩هـ ، مايو ١٩٩٨م
في : كفر حماد ـ كفر صقر ـ الشرقية
مصر

الباب الأول

حقيقة الغزو الفكري
ومصادره وأهدافه

الفصل الأول :

مدلول الغزو الفكري وتاريخه

الفصل الثاني :

مصادر الغزو الفكري وأهدافه

الفصل الأول

مدلول الغزو الفكري وتاريخه

المبحث الأول :

مدلول الغزو الفكري

المبحث الثاني :

تاريخ الغزو الفكري

المبحث الأول

مدلول الغزو الفكري

مصطلح الغزو الفكري يتكون من كلمتين : هما : الغزو ، والفكر ، ويحسن أن أشير إلى معنى كل منهما أولًا ، ثم أنتقل إلى بيان مدلول أو مفهوم هذا المصطلح ، وهذا على النحو التالي :

جاء في كتاب اللغة : غَزاه غزوًا : أراده وطلبه ، وقصده ، كاغتزاه العدوُّ : سار إلى قتالهم وانتهابهم ، غزوًا ، وغَزَوانًا ، وغَزْوِي كذا : قصدي [١] ، والغَزْو : الخروج إلى محاربة العدو [٢] .

وفَكَر في الأمر فكرًا : أعمل العقل فيه ورتب بعض ما يعلم ؛ ليصل به إلى مجهول ، وأَفْكر في الأمر : فَكَر فيه فهو مُفِكِّر ، وفَكَّر في الأمر : مبالغة في فَكَرَ ؛ وهو أشيع في الاستعمال من فكَر ، وفَكَّر في المشكلة : أعمل عقله فيها ؛ ليتوصل إلى حلها ، فهو مفكِّر .

والتفكير : إعمال العقل في المعلوم للوصل إلى معرفة مجهول ، والفكرة : الفكر ، والصورة الذهنية لأمر ما [٣] .

---

(١) القاموس المحيط ، تأليف العلامة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، (ص١٦٩٨) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية (١٤٠٧ـــ ١٩٨٧م) ، وغيره من كتب اللغة ، مادة «غزو» .

(٢) المفردات في غريب القرآن ، تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ) ، تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني ، (ص٣٦٠) ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .

(٣) المعجم الوسيط (٢/ ٧٢٤) ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة .

فالغزو الفكري : تعبير مجازي ، يقصد به محاربة الخصم ، ومحاولة القضاء عليه ، بغير الطرق العسكرية .

وهو : « واحد من شُعَب الجهد البشري المبذول ضد عدو ما ، لكسب معارك الحياة منه ، ولتذليل قياده ، وتحويل مساره ، وضمان استمرار هذا التحويل حتى يصبح ذاتيًّا إذا أمكن ، وهذا هو أقسى مراحل الغزو الفكري بالنسبة للمغلوب ، وإن كان في نفس الوقت هو أقصى درجات نجاح الغزاة !

وسلاح هذا الغزو هو : الفكرة ، والكلمة ، والرأي ، والحيلة ، والشبهات ، وخلابة المنطق ، وبراعة العرض ، وشدة الجدل ، ولدادة الخصومة ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، وغير ذلك مما يقوم مقام السيف والصاروخ في أيدي الجنود ، والفارق بينهما هو نفس الفارق بين وسائل وأساليب الغزو الفكري قديمًا وحديثًا »[1] .

ويمكن تعريف الغزو الفكري المعادي للإسلام بأنه : قيام أعداء الإسلام وخصومه بمحاربته ، ومحاولة القضاء عليه ، وإيقاف مدّه ، وإخراج المسلمين منه ، أو صرفهم عن التمسك به ، لإحكام السيطرة عليهم ، واستغلالهم وشلّ بواعث القوة فيهم ، بالطرق غير العسكرية .

***

---

(١) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، د/ عبد الستار فتح الله سعيد ، منشور ضمن البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي ، الذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض سنة (١٣٩٦هـ) (ص١٧٩، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م) .

الغزو الثقافي[(١)] :

و « الغزو الثقافيّ » من المصطلحات ذات الصلة بـ « الغزو الفكريّ » ويُذكَر حيثما ذُكِر ، وكلاهما يدُلّ على ما يدُلّ عليه الآخر .

فالغزو الثقافيُّ ـ أيضا ـ طَريق مِن طُرُقِ محاربةِ الخصمِ ، ومحاولة القضاء عليه بغير الطرق العسكرية .

وهو يعني محاولةَ أعداءِ الأمةِ الإسلاميةِ السيطرةَ والتغلّبَ عليها من خلال المعارف أو الأفكار ، والعقائد ، والنظم ، والمبادئ ، والأخلاق ، والتراث ، واللغة ، والفنون ، ونحو ذلك .

تحذير الإسلام من الوقوع في الأفكار غير الإسلامية :

ولقد حذر الإسلام أتباعه من تسرب الأفكار الغازية المعادية إلى عقولهم ، ونهاهم عن الوقوع فيها ، أو التسرع في قبولها ، قبل تمحصيها وعرضها على الإسلام ، ووضعها في ميزانه ، وبين أنهم إن أصغوا إليها ، وانقادوا لها ؛ كانت العواقب وخيمة ، والنتائج مريرة ؛ إذ قد تؤدي ـ مع الانقياد لها ـ إلى خسارة الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين .

---

(١) الثقافة في اللغة : مصدر « ثَقُفَ » ، وهذه المادة تدور في كتب اللغة حول معاني الحِذْق وتقويم المعوجّ من الأشياء ، والتسوية ، والتأديب والتهذيب وهكذا . وأيضا : العلوم والمعارف والفنون التي يراد الحذق فيها .

ولقد صار مفهوم الثقافة ذا دلالات حديثة واسعة ليس لها وجود في المعاجم العربية القديمة ، حيث صار يعني : ذلك النسيج الكلي المكوَّن من المعارف أو الأفكار ، والعقائد ، والنظم ، والمبادئ ، والأخلاق ، والتراث ، واللغة ، والفنون ، الخاصة بأمة ما ، والمميزة لها عن غيرها من الأمم . (يراجع في تفصيل هذا المعنى : العولمة الثقافية وموقف الإسلام منها ، للمؤلّف ، ص ١٠ ـ ١٢ ، ط الثانية . دار تنوير للنشر ، القاهرة ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م .

فعن جابر ﷺ أن عمر بن الخطاب ﷺ أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبي ﷺ ، فغضب ، فقال : « **أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب ؟ والذي نفسي بيده ، لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به ، أو بباطل فتصدقوا به ، والذي نفسي بيده ، لو أن موسى ﷺ كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني** »(١) .

وفي رواية : « **والذي نفسي بيده ، لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني ضللتم ، إنكم حظي من الأمم ، وأنا حظكم من النبيين** »(٢) .

وقد جاء في الحديث : أن ناسًا من المسلمين أتوا نبي الله ﷺ بكتب قد كتبوا فيها بعض ما يقول اليهود ، فلما أن نظر فيها ألقاها ، ثم قال : « **كفى بها حماقة قوم ، أو ضلالة قوم ، أن يرغبوا عما جاء به نبيهم ، إلى ما جاء به غير نبيهم ، إلى قوم غيرهم** » ، فنزلت : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت:٥١](٣) .

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ، الفتح الرباني ، ك العلم ، ب في النهي عن التحديث عن أهل الكتاب ، (جـ ١ ص ١٧٥) ، وقال الشيخ الساعاتي : الحديث قال في التنقيح : رجال أحمد رجال الحسن ، وعند أحمد وابن ماجه عن ابن عباس ، وإسناده حسن ، وعند ابن حبان عن جابر أيضًا بإسناد صحيح ، والتهوك كالتهور ، وهو الوقوع في الأمر بغير روية ، والمتهوك : الذي يقع في كل أمر ، وقيل : هو التحير ، النهاية في غريب الحديث والأثر للإمام مجد الدين المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير ، (جـ ٥ ص٨٢) ، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ، محمود الطناحي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت (١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م) .

(٢) رواه الإمام أحمد ، من رواية عبد الله بن ثابت ، السابق ، (جـ١) (ص١٧٥، ١٧٦) ، وقال الشيخ الساعاتي : وقال صاحب التنقيح : رواه أيضًا ابن حبان بإسناد صحيح ، وأحمد بإسناد حسن .

(٣) رواه أبو محمد بن جرير الطبري في تفسيره « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » ، (جـ٢١) (ص٧) ، عن يحيى بن جعدة ، دار الفكر ، بيروت (١٤٠٥، ١٩٨٤م) ،=

وإن أعداء الإسلام لا يُرجى منهم الخير أبدًا ، ولا ينتظر من وراء أفكارهم إلا الهدم ، لما تنطوي عليه قلوبهم من أحقاد وعداوات لا تُطفئها الأيام .

قال ابن إسحاق :

ومر شاس بن قيس (١) ، وكان شيخًا قد عسا (٢) ، عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ، على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملأ بني قيلة (٣) بهذه البلاد ، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتى شابًا من يهود كان معهم ، فقال : اعمد إليهم ، فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بعاث (٤) وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار .

ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك ، وتنازعوا حتى تواثب رجلان من الحيين

= وأورده الألوسي في تفسيره (جـ٢١) (ص٦) ، وعزاه إلى الفريابي ، والدارمي ، وأبي داود في مراسيله وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وقال : وأخرج الإسماعيلي في مجمعه ، وابن مردويه عن يحيى هذا ما هو قريب مما يذكر مرويًا عن أبي هريرة ﷺ . روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي المتوفى سنة (١٢٠٠هـ) ، دار إحياء التراث العربي ببروت .

(١) شاس بن قيس : واحد من يهود بني قينقاع ، الذين ملأ الحقد قلوبهم .

(٢) عسا : أسن وولى .

(٣) قيلة بنت كاهل بن عُذرة بن سعد ، أم الأوس والخزرج ، السيرة النبوية (١/ ٢١٨) .

(٤) بُعاث : موضع على ليلتين من المدينة ، معجم قبائل العرب ، عمر رضا كحالة (١/ ٣٤٢) ، وكان يومًا اقتتلت فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه يومئذٍ للأوس على الخزرج ، السيرة النبوية (١/ ٥٥٥، ٥٥٦) .

على الرُّكب : أوس بن قيظي أحد بني حارث من الأوس ، وجبار بن صخر ، أحد بني سلمة من الخزرج ، فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها الآن جَذَعة [١] ، فغضب الفريقان جميعًا ، وقالوا : قد فعلنا ، موعدكم الظاهرة ـ والظاهرة : الحَرّة [٢] ـ السلاح السلاح فخرجوا إليها ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم ، فقال : « **يا معشر المسلمين ، الله الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام ، وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم من الكفر ، وألف به بين قلوبكم** » ، فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان [٣] ، وكيد من عدوهم ، فبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا ، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ ، سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس ، فأنزل الله تعالى في شاس بن قيس وما صنع : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

[آل عمران:٩٨، ٩٩]

وأنزل في أوس بن قيظي وجبار بن صخر ومن كان معهما من قومهما ، الذين صنعوا ما صنعوا عما أدخل شاس بن قيس من أمر الجاهلية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ

---

(١) يقال : أعدتُ الأمر جذعًا : جديدًا كما بدأ ، المعجم الوسيط (١ / ١١٧) .
(٢) الحرة : أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار ، مختار الصحاح ، الإمام محمد ابن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، (ص٥٥) ، مكتبة لبنان ، بيروت (١٩٨٨م) .
(٣) نزغ الشيطان بينهم : أفسد وأغرى ، السابق (ص٢٧٣) .

تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ ...
إلى قوله تعالى : ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠٥][1] .

وهكذا نرى أن الإسلام يُحذر من شيوع الأفكار والثقافات غير الإسلامية ، المجافية لمعايير الإسلام وروحه ، ومن الالتفات إليها والانصياع لها ، حتى لا تذوب شخصية الأمة ، أو تصير إمعة ، فتؤول حالها إلى مآل مؤسف ، وربما إلى سقوط لا ارتفاع بعده ، أو وقوع لا نهوض عقبه .

ألا ليت المسلمين يعضون على كتاب ربهم ، وسنة نبيهم ﷺ ، ويعتصمون بها ، ولا يتهوكون في فنون الثقافات الغربية ، ومجاهل الفكر المادي الأوربي .

التفريق بين نوعين من الفكر :

هذا ؛ ومع الحديث عن التحذير من تسرب الثقافات الغربية ، يجب التنبه إلى الفارق الخطير بين نوعين من الفكر مختلفين ، ويختلف الموقف منهما ، والنظرة إليهما .

إذ إن « هناك في الفكر إذا نظرنا إليه على المستوى الإنساني والعالمي ، سواء أكان إبداعًا للإنسان المعاصر أم ميراثًا وتراثًا لأسلافنا ، في الحضارات المختلفة ، هناك في هذا الفكر ما هو «مشترك إنساني عام» لا يختص بحضارة بذاتها ، أو قومية بعينها ، أو أهل ديانة دون غيرها ، فهو كالماء والهواء تحتاجه كل نفس ،

---

(١) السيرة النبوية (١/ ٥٥٥-٥٥٧) ، ورواه الواحدي في أسباب النزول (ص٦٦، ٦٧) من غير طريق ، أسباب النزول تأليف أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (٤٦٨هـ) ، دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى (١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢م) ، والقصة مشهورة استشهد بها وأوردها عامة المفسرين .

وينهض بمهمة الإحياء لدى الناس أجمعين .

ومن هذا الفكر ما يتميز بالخصوصية والاختصاص بإطار حضاري بعينه ، وشخصية قومية بذاتها ، ويقوم الاتساق بينه وبين تكوين عقدي دون سواه ، فيصبح وجوده وفعله طبيعيًا في إطار بعينه ، حتى إذا تعدى هذا الإطار غدا نشازًا وضارًا ، يصطدم بالخصوصيات الطبيعية صدام الجيوش الغازية بالكبرياء الوطني النافر والمتضرر من عوامل الغزو والقهر والاحتواء» [1] .

فهناك إذًا فكر عام بين الأمم يتأثر فيه اللاحق بالسابق ، وتنقله الأمم عن بعضها ، مستفيدة منه ومضيفة إليه ، ومطورة له ، ومن هذا النوع العلوم التي مجالها الكون والطبيعة ، ونحوها ، كالرياضيات ، والكيمياء ، والطب ، والهندسة ، والزراعة ، وفنون الحرب ونحوها ، مما يعتمد أساسًا على التجارب العلمية والمعملية ، ويسودها الحياد العلمي .

وهذا النوع من الفكر لا يرفضه الإسلام ، ولا يمنع الأخذ به والاستفادة منه ، متى جاء بعد تجارب صادقة ، ونظر صحيح ، وأدلة على صحته .

ولم ينْكُف [2] المسلمون عن الاستفادة من علوم غيرهم مما يتصل بهذا النوع انطلاقًا من أن الإسلام لا يمانع منها ، فهو يدعو إلى العلم النافع ، ويجعل من الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها ، واقتداء بنبيهم ﷺ ، حين أخذ بما أشار به عليه سلمان الفارسي ﷺ من حفر الخندق ، وكانت فكرة فارسية ، فقد قال سلمان : يا رسول الله ، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا

---

(١) الغزو الفكري وهم أم حقيقة ، د/ محمد عمارة ، (ص٧) ، دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة الأولى (١٤٠٩هـ ١٩٨٩م) .

(٢) النُّكف : العدول ، مختار الصحاح (ص٢٨٣) .

خندقنا علينا ـ وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك [١] .

وأما الشق الآخر من «الفكر» الذي يدخل في صميم «الخصوصية الحضارية» التي تتمايز بتمايز الحضارات ، فهو ذلك الذي تكون «النفس الإنسانية» موضوعًا لعلومه وفنونه وآدابه ، فهذه «النفس الإنسانية» التي تتميز مكوناتها وطبائعها ومفاتيح عوالمها ، بتميز المذاهب والبيئات والفلسفات والمعتقدات ، أي : بتمايز الحضارات ، ولابد وأن تتمايز علومها ـ سياسة واجتماعًا وفلسفة واقتصادًا سياسيًّا ـ تبعًا لتمايز «مادة» هذه العلوم ، فكما تميزت علوم «المادة» الثابتة بالعالمية ، فغدت حقائقها وقوانينها «مشتركًا إنسانيًّا عامًّا» وتتميز علوم «النفس الإنسانية» بالخصوصية الحضارية ، التي تجعلها وثيقة الصلة بطبائع الأمم ومعتقدات الشعوب ، ومثلها وطرائقها في الحياة [٢] .

فتلك الثقافات الفكرية النظرية الخاصة بغير الأمة الإسلامية ، والنابعة من معتقدات أو مذاهب مغايرة للإسلام ، وكل ما يتفرع عنها مصبوغًا بصبغتها ، أو عليه شيء من مسحتها ؛ هو مما لا يجوز أن يزاحم ثقافتنا الإسلامية ، ولا يكون له بيننا مقام ، ولا في حياتنا مكانة أو مكان ، والواقع أن أوربا اليوم قد فاقت العالم الإسلامي وسبقته بمراحل شاسعة في علوم الحضارة المادية ، وسجلت تقدمًا هائلًا في ميادينها المختلفة ، كالكيمياء ، والهندسة ، والفلك ، وفنون الصناعات المدنية والعسكرية ، ونحو هذا .

ولا شك في أن المسلمين بحاجة إلى الاستفادة من ذلك التقدم والتمكن من

---

(١) الرحيق المختوم ، بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم ، تأليف الشيخ صفي الرحمن المباركفوري (ص٣٤٠) ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة .

(٢) الغزو الفكري وهم أم حقيقة (ص٢٠) .

ناصية العلوم ؛ كي ينهضوا ويجاروا الأمم ، ويلحقوا بها ، كمقدمة للتفوق .

والواجب علينا ـ نحن المسلمين ـ عند أخذنا عن حضارة الأوربيين أن نفرق بين العلوم النظرية الأدبية ، وبين العلوم التطبيقية ، فنأخذ من الأخرى دون الأولى ، وألا تكون حاجتنا إلى علوم الحضارة الأوربية سببًا ، أو وسيلة لفرض تلك المعارف «النظرية» التي تعبر عن خصائص أوربا وظروفها .

ولقد حاول دعاة التغريب التمويه بالقول بأن الحضارة الغربية وفكرها «كل لا يتجزأ» ، وأن على المسلمين والعرب إذا أخذوا الحضارة المادية أن يأخذوا فكرها ، وكذبوا ؛ فإنهم لم يعطوا المسلمين والعرب من علوم الحضارة شيئًا ، وإنما أعطوهم فتات الموائد والاستهلاكات ، وحجبوا عنهم أسرار التكنولوجيا والعلوم ، وكذبهم التاريخ في أسلوب التعامل ، فإن الغربيين حين انتزعوا أسرار العلوم من المسلمين في الأندلس ، لم يأخذوا عقيدتهم ولا أسلوب عيشهم ، وإنما أخذوا تلك العلوم وصاغوها في لغاتهم ومناهجهم ، فلماذا لا يفعل المسلمون ذلك ، ولماذا حين يجيء الدور عليهم يقال لهم : إن الحضارة وفكرها كل لا يتجزأ ؟!

نحن نؤمن بأن العلوم الغربية ما هي إلا «مادة خام» من حقنا أن نأخذها وأننا أصحاب الفضل في بنائها الأول ، ومن حقنا أن نصوغها في لغتنا العربية وفي فكرنا الإسلامي ، حتى يكون العلم ربانيًا ، وتكون الحضارة الإسلامية الحديثة «ربانية» قائمة على العدل والحق والإخاء الإنساني ، ولن نسير سيرة الأوربيين أو نسلك طريقهم ؛ لأن لنا مسيرة متميزة وطريقًا أصيلًا ، ولن نأخذ «الحضارة خيرها وشرها وحلوها ومرها» كما دعانا إلى ذلك عميد الأدب

العربي [1] ولن نصهر في بوتقة الأمية ، ولـن ننخرط في الحضارة الغربية ، كما سقطت بعض الدول الإسلامية مثل تركيا ، ثـم عرفـت أنها جاوزت الحق ، وأخذت تعود إلى الأسلوب الصحيح [2] .

*****

(١) يقصد : «طه حسين» ، وهو واحد من أبرز دعاة التغريب في عصرنا الحاضر .

(٢) من التبعية إلى الأصالة في مجال التعليم واللغة والقانون ، أنور الجندي ، (ص٢٠) ، دار الاعتصام ، القاهرة .

الميزان الذي يُوزن به الفكر ويُحكَم عليه من خلاله

هذا ؛ وثمة أمر على درجة كبيرة من الأهمية ، أشير إليه في ختام هذا المبحث ، وهو ضرورة وضع معايير أو ضوابط ، أو إيجاد ميزان للحكم على هذا الفكر أو ذاك بأنه من قبيل الغزو الفكري المعادي الذي يجب الحذر منه ، والاحتراز عنه ، وحماية الأمة منه .

وقد لاحظت أن بعض الناس ينظرون إلى فكر معين ، على أنه منسجم معنا نحن المسلمين ، غير متعارض مع ديننا ، في حين أنه ـ في ميزان الشرع ـ السم الزعاف ، والموت الزؤام ، وأنه فكر خبيث ، يجب التحرز منه ، كما يتحرز من النجاسات المغلظة .

ومن الناس من يخضعون الفكرة لوجهة نظرهم ، وحكم عقولهم فقط ، فما تمخضت عنه من حكم فهو ذا ، ومعلوم أن وجهات النظر قد تتباين ، والعقول تختلف ، وقد قيل : «إن العقل ابن بيئته» .

وأصبح العلماء يُرمون بأقذع التهم ، عندما يتناولون فكرًا معينًا بما يستحق من التجريح والتعرية ، حتى اختلطت الأوراق ، وصار كل صاحب فكر رخيص ، يعرض بضاعته الزائفة على الناس ، تحت شعارات ودعاوى خبيثة ، مثل حرية الفكر ونحوها .

وطلاب العلم بحاجة إلى معرفة تلك المعايير ، حتى يستطيعوا أن يردوا كل فكر إلى أصله ، ويكشفوا أي دعوى زائفة على حقيقتها .

وهذا الميزان يجب أن يكون محل اتفاق من الجميع ، بحيث لا يسع أحدًا من

المسلمين إلا التسليم به ، والرضا بحكمه .

والذي يظهر لي - ولا أظن أحدًا يختلف عليه - أن أي فكر ينبغي أن يوزن في ميزان الكتاب والسنة ، ويُعرض عليهما في ضوء فهم وتفسير الصحابة والسلف الصالح ، ثم في ضوء ما قرره العلماء الأثبات من سلف الأمة وخلفها من اجتهادات واستنباطات ، وما وضعوه من معايير وضوابط مستمدة من الشريعة الإسلامية ، وفي ضوء ما هو مقرر من حقائق وثوابت متعارف عليها ، فما وافق هذا الميزان فبها ، وما خالفه ، أي : خرج عن الكتاب والسنة ، كان من قبيل الفكر الأجنبي الدخيل ، الذي لا يجوز أن يعرض على الأمة .

قال تعالى : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩] ، وقال سبحانه : ﴿فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩] .

وعن العرباض بن سارية قال : وعظنا رسول الله ﷺ يومًا بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ، ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقال رجل : إن هذه موعظة مودّع ، فماذا تعهد إلينا يا رسول الله ؟ فقال : « **أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة ، وإن عبد حبشي ؛ فإنه من يعش منكم بعدى يرى اختلافًا كثيرًا ، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة ، فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ** »[1] .

---

(١) رواه الترمذي في السنن ، ك العلم ، ب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع ، (جـ٥) (ص٤٤) ، رقم (٢٦٧٦) ، قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وأخرجه أبو داود في ك السنة ب / في لزوم السنة (جـ٤) (ص٢٠٠، ٢٠١) رقم (٤٦٠٧) ، وابن ماجة في المقدمة باتباع سنة الخلفاء الراشدين (جـ ١) (ص١٥، ١٦)=

وفي حجة الوداع ، يقول الرسول ﷺ : « وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا ، أمرًا بينا ، كتاب الله وسنة نبيه »[1] .

*****

= رقم (٤٢، ٤٣) ، وأحمد ، الفتح الرباني ك الاعتصام بالكتاب والسنة ، ب/ في الاعتصام بسنته ﷺ (جـ١) (ص١٨٨، ١٨٩) ، والحاكم في المستدرك (جـ١) (ص٩٥، ٩٦) ، وقال : هذا حديث صحيح ليس له علة ، ووافقه الذهبي ، والدارمي في المقدمة ، ب/ اتباع السنة (١/ ٥٧) رقم (٩٥) .

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة (٢/ ٦٠٤) ، وأخرجه الحاكم بلفظ آخر من رواية أبي هريرة ، المستدرك (جـ١) (ص٩٣) ، ومالك في الموطأ ، ك القدرة ، ب/ النهي عن القول بالقدر (جـ٢) (ص٨٩٩) .

المبحث الثاني

تاريخ الغزو الفكري

إن المتأمل في تاريخ الغزو الفكري يجد أنه سلاح قديم، مورس منذ أقدم عصور التاريخ، واستخدم في الصراع بين الأمم والتنافس بين الشعوب، وكان جنبًا إلى جنب مع الأسلحة العسكرية، وكشأن أي سلاح يخضع للتطوير، والتعديل والتحسين لمحاولة رفع كفاءته، ومستوى أدائه لدوره، كذلك كان الغزو الفكري ولا يزال سلاحًا يخضع للتطوير والتعديل، وإدخال التحسينات اللازمة عليه؛ ليسهم بالدور المطلوب في كسب النصر، وإحراز الغلبة على الخصم.

وجدير بالذكر أن الحديث هنا إنما هو عن الغزو الفكري المعادي للإسلام على وجه الخصوص.

والإسلام هو دين الله الذي ارتضاه للخلق أجمعين، ولا يرضى لأحد أو يقبل منه سواه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥].

ومنذ أن بعث الله رسله بالإسلام لم يتوان الخصوم عن استخدام هذا السلاح وإشهاره في وجه الإسلام ودعاته وأتباعه، واستمر هذا الحال إلى مجيء الرسول الخاتم سيدنا محمد ﷺ، ولا يزال بعده حتى يوم الناس هذا.

ولَكَمْ قاد الخصوم من حملات التشكيك والتشويه ضد الأنبياء والرسل

عليهم الصلاة والسلام ، وأتباعهم بإحسان ، ولكم خاضوا حرب الكلمة ضدهم .

فهذا نوح ﷺ قال له الملأ من قومه : ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ .

[الأعراف:٦٠]

وبمثله حُورب هود ﷺ : ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [1] [الأعراف:٦٦] ، وكذلك شعيب : ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٠] .

ورسول الله موسى ﷺ وُصفت رسالته ودعوته التي جاء بها ، بأنها دعوة إفساد في الأرض : ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ [الأعراف:١٢٧]، ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦]، ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ [غافر:٣٦، ٣٧] .

وقصص الأنبياء يعد سجلًا حافلًا ، ومرجعًا شاملًا لتفاصيل هذه الحرب الفكرية الضروس .

على أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كانوا يواجهون الخصوم بنفس السلاح أيضًا ، فكانوا يدحضون بالحق الذي معهم باطل خصومهم ، ويفندون الشبهة بالحجة ، ويردون الفرية بالدليل والبرهان ، والحق أبلج ،

---

(١) الملأ : جماعة يجتمعون على رأي فيملؤن العيون رواء ومنظرًا ، والنفوس بهاء وجلالًا ، المفردات للراغب الأصفهاني (ص٤٧٣) .

والباطل لجلج ، وفي النهاية لا يصح إلا الصحيح ، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء:١٨] .

ولما أرسل الله رسوله محمدًا ﷺ بالرسالة الخاتمة ، ووُجِه بما وُجه به إخوانه المرسلون ، وبدأت سلسلة جديدة من الغزو الفكري المعادي للإسلام ، ونشبت حرب فكرية ، تولى كبرها الكفار من قريش وغيرهم ، وانضم إليها اليهود والنصارى إما مباشرة ، وإما من بعيد ، حيث كانوا في كل الأحوال بمثابة «المصنع» الذي يصنع الشبهات ، ويصدر الافتراءات ، والجميع مشترك في ترويج الأكاذيب ، وحملات التشكيك والتشويه .

جاء في السيرة النبوية : ثم إن الوليد بن المغيرة [١] اجتمع إليه نفر من قريش ، وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم ، فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا ، ويرد قولكم بعضه بعضًا ، قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس ، فقل وأقم لنا رأيًا نقول به ، قال : بل أنتم فقولوا أسمع ؛ قالوا : نقول : كاهن ؛ قال : لا ، والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة [٢] الكاهن ولا سجعه ؛ قالوا : فنقول : مجنون ؛ قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ، ولا وسوسته ، قالوا : فنقول : شاعر ؛ قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر ؛ قالوا : فنقول : ساحر ؛ قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السُحَّار وسحرهم ، فما هو

---

(١) كان من صناديد الكفر الذين بقوا على كفرهم حتى هلكوا .
(٢)الزمزمة : صوت الرعد ، مختار الصحاح (ص١١٦) .

بنفثهم ولا عقدهم [١] ، قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق [٢] ، وإن فرعه لجناه ـ قال ابن هشام : ويقال : لغدق [٣] ـ وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا إليهم أمره ، فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة وفي ذلك من قوله : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ... ﴾ إلخ [المدثر:١١] .

قال ابن إسحاق : فجعل أولئك النفر يقولون ذلك في رسول الله ﷺ لمن لقوا من الناس ، وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ ، فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها ... ا.هـ [٤] .

ولقد شنعوا على المسلمين وقاموا بحملة تشويه ضدهم في أعقاب سرية عبد الله بن جحش وأصحابه ، التي كلفهم فيها رسول الله ﷺ بترصد قريش والتعرف على مزيد من أخبارهم ، حيث قتلوا بعض الكفار وأسروا البعض منهم [٥] ، ثم عادوا إلى المدينة ، فانطلقت حملات التشويه تصور المسلمين

---

(١) إشارة إلى ما كان يفعل الساحر بأن يعقد خيطًا ثم ينفث فيه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ [الفلق] .
(٢) العَذَق (بالفتح) : النخلة .
(٣) الغدق : الماء الكثير .
(٤) السيرة النبوية (جـ١) (ص٢٧٠) وما بعدها ، وروى نحوها الواحدي في أسباب النزول (ص٢٥١) ، وكذلك الحاكم في المستدرك (جـ٢) (ص٥٠٦، ٥٠٧) ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .
(٥) وكان ذلك في شهر رجب سنة (٢هـ) الموافق يناير سنة (٦٢٤م) ، الرحيق المختوم (ص١٨٢) .

بصورة من لا يراعون للأشهر الحرم حرمة ، وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال .

فأنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ ، أي : إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به ، وعن المسجد الحرام ، وإخراجكم منه وأنتم أهله ، أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم : ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ ﴾ ، أي : قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه ، فذلك أكبر عند الله من القتل : ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ ﴾ [البقرة:٢١٧] ، أي : ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه ، غير تائبين ولا نازعين (١) .

ولقد ظلت تلك الحملات تترى لا تنى ولا تتوقف ، حتى قبض رسول الله ﷺ .

ثم إن الإسلام قد انتشر وزادت رقعته داخل الجزيرة العربية وخارجها ، وتوسعت حركة الفتوحات الإسلامية بعد رسول الله ﷺ ، وقامت دولة

---

(١) السيرة النبوية (١/ ٦٠١) وما بعدها بتصرف ، ورواه الواحدي في أسباب النزول (ص٣٥-٣٨) ، وأوردها المفسرون عند تفسير الآية المذكورة ، وقال الإمام الحازمي : هذا الحديث وإن كان ابن إسحاق رواه منقطعًا فإن له أصلًا في المسند وهو مشهور في المغازي ، متداول بين أهل السيرة ، ورواه الزهري عن عروة نحوه ، وهو من جيد مراسيل عروة ، غير أن حديث ابن إسحاق أتم . الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار تصنيف الإمام الحافظ أبي بكر محمد بن موسى الهمذاني الحازمي (ص٥٠٠) ، تحقيق د/ عبد المعطي أمين قلعجي ، سلسلة منشورات جامعة الدراسات الإسلامية ، كراتشي باكستان ط الثانية (١٤١٠هـ ، ١٩٨٩م) ، وأوردها الهيثمي في مجمع الزوائد (جـ٦) (ص١٩٨) ، وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات .

الإسلام قوية الأركان ثابتة البنيان ، وأخضعت لسلطان الله كل متسلط جبار ، وزلزلت أركان الروم الصليبيين ، ودحرت الفرس عبدة النار ، ودخل الناس في دين الله أفواجًا .

ولقد بقي كثير من الناس على عداوتهم للإسلام ودولته ، بيد أنهم لم يستطيعوا أن ينالوا منه بالقوة نيلًا ، فمنهم من بقي على كفره ، ومنهم من تظاهر باعتناق الإسلام ، وأبطن الكفر ، ثم أخذوا على عاتقهم تقويض بنيانه ، وإضعاف أركانه ببث الأفكار المعادية التي لا تتفق مع مبادئه جملة وتفصيلًا .

فأكثر قوم من وضع الأحاديث واختلاقها ، ودست الإسرائيليات وسربت كثير من الأفكار والمعتقدات الزائفة الشديدة الخطر على الإسلام والمسلمين ، ولا يتسع المجال للحديث حول هذه الأمور بالتفصيل ، ولكن لا يفوتني الإشارة إلى نموذج منها ، وهو عبد الله بن سبأ اليهودي «ابن السوداء» .

قال البغدادي [(١)] : وقال المحققون من أهل السنة : إن ابن السوداء كان على هوى دين اليهود ، وأراد أن يفسد على المسلمين دينهم بتأويلاته في عليّ وأولاده ؛ لكي يعتقدوا فيه ما اعتقدت النصارى في عيسى عليه السلام ، فانتسب إلى الرافضة السبئية ، حين وجدهم أعرق أهل الأهواء في الكفر ، ودلس ضلالته في تأويلاته [(٢)] .

---

(١) هو صدر الإسلام الأصولي العالم المتفنن عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي - الإسفرائيني - التميمي ، المتوفى عام (٤٢٩هـ ،١٠٣٧م) ، في كتابه الفرق بين الفرق (ص٢٣٥) ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت .

(٢) قال الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد : الذي يؤخذ من كلام المؤلف في هذا الفصل أن ابن السوداء غير عبد الله بن سبأ ، ولكن الذي ذكره جماعة من المؤرخين - منهم المقريزي في الخطط - أن ابن السوداء وابن سبأ شخص واحد ، والأوصاف التي ينعت بها كل علم من هذين هي الأوصاف التي ينبعث بها الآخر ، السابق (ص٢٣٥) هامش .

وقد كان ابن سبأ أو ابن السوداء يهوديًّا من حمير وأسلم ، وكان واضحًا من سيرته أنه لم يكن يبطن الإسلام مثل ما يظهره ، بل إنه كان يبطن ما يتنافى مع الإسلام ، ولعب دورًا كبيرًا في نشر كثير من الضلالات والشبه الفاسدة والتأويلات المنحرفة ، قال للإمام علي كرم الله وجهه : أنت ، أنت ، يعني : أنت الإله ، فنفاه إلى المدائن ، وهو أول من أظهر القول بالنص في إمامة علي ﷺ ، ومنه انشعبت أصناف الغلاة .

ولما زعم أن عليًّا نبي ، ثم غلا فيه حتى زعم أنه إله ، ودعا إلى ذلك قومًا من غلاة الكوفة ، ورفع خبرهم إلى علي : أمر بإحراق قوم منهم في حفرتين ، حتى قال بعض الشعراء في ذلك :

لِتَرْم بي الحوادث حيث شاءت إذا لم تَرْم بي في الحفرتين

ثم إن عليًّا ﷺ خاف من إحراق الباقين منهم شماتة أهل الشام ، وخاف اختلاف أصحابه عليه فنفى ابن سبأ إلى ساباط المدائن .

ولما بلغه مقتل علي كرم الله وجهه ، زعم أنه لم يقتل وأن المقتول إنما هو شيطان تصور للناس في صورته ، وقد كذب من ادعى أنه قتل ، كما كذبت اليهود والنصارى في دعواها قتل عيسى بن مريم عليه السلام ، وقال : لو أتيتمونا بدماغه سبعين مرة ما صدقنا موته ، فهو حي لم يمت ، ففيه الجزء الإلهي ، ولا يجوز أن يستولي عليه ، وهو الذي يجيء في السحاب [1] ، والرعد صوته ،

---

(١) قال ابن حزم : فليت شعري في أي سحابة هو من السحاب ، والسحاب كثير في أقطار الهواء مسخر بين السماء والأرض كما قال الله تعالى ، الفصل في الملل والأهواء والنحل للإمام أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري (جـ٤) (ص١٨٠) ، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت ، ط الثانية (١٣٩٥هـ ، ١٩٧٥م) .

والبرق تبسمه ، وهو الذي سينزل إلى الدنيا بعدما صعد إلى السماء ، فيملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا وينتقم من أعدائه [١] .

ولقد كان المسلمون يشغلون بقضايا فكرية دخيلة ليس لها مصدر إلا هؤلاء الخصوم ، مثل القول بخلق القرآن ، وما أحدثته هذه المقولة من فتنة في الأمة ، والترويج لشعر الخلاعة والمجون ، وانتشار المذاهب الباطنية التي غالبًا ما كانت تتخذ التشيع ستارًا ، إلى غير ذلك من مظاهر الحرب الفكرية .

واستمر هذا الصراع مع الأيام ، وخصوم الإسلام لا يردون أن يضيعوا سبيلًا فيه إيذاء للإسلام وأهله من غير أن يسلكوه ، والإسلام في كل تلك الأحقاب شامخ كالطود العظيم ، إلى أن جاءت الحروب الصليبية ، وتدفقت أوربا على المسلمين بخيلها ورجلها ، ورهبانها وعساكرها ، وهجمت على المسلمين كالجراد الذي لا يقع على المروج [٢] الخضراء إلا ويحيلها خرابًا بلقعا ، لكن المسلمين تصدوا لهم وردوا حملاتهم خائبة حسيرة تجر أذيال الهزيمة ، وتعود القهقري ، وانتهت بأسر ملكهم لويس التاسع [٣] في دار ابن لقمان بالمنصورة .

---

(١) هذه الفقرات بتلخيص وتصرف عن : أ ـ الفرق بين الفرق (السابق) (ص٢٣٣، ٢٣٤) .
ب ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل (السابق) نفس الموضع .
جـ ـ الملل والنحل : تاليف أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر بن أحمد الشهرستاني (ص٤٧٩ ـ ٥٤٨) (جـ١) (ص١٧٤) ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ط الثانية (١٣٩٥هـ ، ١٩٧٥م) .

(٢) المرج : أرض واسعة ذات نبات ومرعى للدواب ، جمع : مروج ، المعجم الوسيط (٢/ ٨٩٥) .

(٣) لويس التاسع أو القديس لويس (١٢١٤ ـ ١٢٧٠) : ملك فرنسا (١٢٢٦ ـ ١٢٧٠) ، ابن لويس الثامن وخليفته ، كانت أمه بلانش القشتالية وصية عليه وهو قاصر ، وأكبر مستشاريه حتى وفاتها ، وقام لويس (١٢٤٨) بحملة صليبية على مصر (الحملة=

ومنذ ذلك الحين ركز الخصوم على الغزو الفكري أكثر من ذي قبل وطور «هذا السلاح» ، ونظمت حملات الغزو الفكري ، وصار الخصوم يعملون على أن يكسبوا بالحملات الفكرية ما لم يكسبوه بالحملات العسكرية ، وأخذت أوربا ترعى وتسير جيوش المبشرين ، والمستشرقين ، وتهتم بهم أكثر مما مضى ، وقذفت بهم في ديار الإسلام لاقتلاع العقيدة الإسلامية من قلوب المسلمين ، وليكونوا طلائع الاستعمار الحديث ، وتمهيدًا للانقضاض على العالم الإسلامي وشن غارة أكبر مرة أخرى عليه .

وفي وثيقة محفوظة بدار الوثائق القومية في باريس يقول لويس التاسع : « إنه لا يمكن الانتصار على المسلمين من خلال حرب ، وإنما يمكن الانتصار عليهم بواسطة السياسة ـ أي : الحيل والشُّبَه والضلالات ـ باتباع ما يلي :

١ ـ إشاعة الفرقة بين قادة المسلمين ، وإذا حدث فيعمل على توسيع شقتها ما أمكن ، حتى يكون هذا الخلاف عاملًا في إضعاف المسلمين .

٢ ـ إفساد أنظمة الحكم في البلاد الإسلامية ، بالرشوة والفساد والنساء ، حتى تنفصل القاعدة عن القمة .

٣ـ الحيلولة دون قيام جيش قوي مؤمن برسالته وحق وطنه ، يضحي في سبيل مبادئه «يعني : الإسلام» .

= الصليبية السابعة) ، تاركًا أمه وأخاه الفرنسي وصيين على العرش ، وبعد أن هزم وأسر في المنصورة (١٢٥٠) افتدى ، لكنه بقي في الأراضي المقدسة حتى (١٢٥٤) ، وقام لويس (١٢٧٠) بحملة صليبية جديدة على تونس ، ولكنه توفي بالطاعون بعد قليل من نزوله في تونس ، خلفه ابنه فيليب الثالث ، رفع إلى مصاف القديسين سنة (١٢٩٧) ، الموسوعة العربية الميسرة (٢/ ١٥٨٥) باختصار .

٤ ـ العمل على قيام دولة غربية في المنطقة العربية ، تمتد ما بين غزة جنوبًا إلى أنطاكيا شمالًا ، ثم تتجه شرقًا ، وتمتد حتى تصل إلى الغرب »[١] .

وقامت أوربا جاهدة في عملها وسعيها الدؤوب للقضاء على الإسلام والمسلمين ، واستطاعت إلى حد كبير أن تحقق مكاسب عن طريق الغزو الفكري ، لدرجة أنها أفلحت في بذر بذور الشقاق بين كثير من المسلمين ، فتفرقوا شيعًا وأحزابًا ، لدرجة أن منهم من خرج على دولة الخلافة وحمل عليها السلاح ، وتعاون مع الكفار ضدها ، في الوقت الذي كانت تضمر فيه الهجوم على أقطار المسلمين عسكريًا ، وبالفعل انقضّت بشراسة على ما أسمتْه (الرجل المريض) وعاثت في الأرض فسادًا ، وأقصت شريعة الله عن الحكم ، وتعاون الخصوم على القضاء على الخلافة حتى تم لهم ذلك ، ثم رحلوا عن أقطار الإسلام بعساكرهم بعد أن اتخذوا من الأسباب ما يكفل تثبيت دعائم الغزو الفكري المعادي للإسلام ، ليظل يؤتي ثماره المرة ، وليحقق لهم أكبر الأرباح بأقل التكاليف ، وأحيانًا بدون تكاليف .

ثم إن الغزو الفكري في ظل حضارة أوربا المادية الحديثة قد انتقل إلى طور جديد خبيث ، إذِ استخدمت فيه كافة ما وصل إليه العلم الحديث ، وما أنتجته هذه الحضارة المادية من وسائل لخدمته، وسخرت أجهزة عاتية رهيبة من أجله.

ولقد عبر عن هذا أحد العلماء فقال : وقد برعت هذه الحضارة الغازية في

---

(١) دور المسلم في الحياة ، د/ توفيق الواعي ، (ص١٠٩) ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة .

أساليب الغزو الفكري وتأصيل المناهج الضالة ، وعرضها عرضًا مغريًا ، واستخدم كل تجاربها العلمية وطرائقها الحضارية في بهرجة ذلك وتدعيمه ، حتى لتعد وسائل الأمم والحضارات السابقة فنونًا ساذجة إذا قيست بما استخدمته ـ ولا تزال تستخدمه ـ الجاهلية المعاصرة من فنون المكر والخداع والتضليل ، والتي تقف وراءها أجهزة مدربة عاتية لتأصيلها ، وفلسفتها والتخطيط لها ، وإعداد برامجها ومناهجها ، ومتابعتها بالتنفيذ والرصد والتعديل والإحصاء والتحليل والمقارنة ، حتى ليصدق عليهم تمامًا ما وصف به الشاعر حافظ إبراهيم الاحتلال الإنجليزي :

لقد كان هذا الظلم فوضى حواشيه حتى بات ظلمًا منظمًا

وهذا الغزو المنظم المدروس يستخدم القصة ، والتمثيلية ، والمسرح ، والسينما ، والإذاعات بأنواعها ، والكتب والمجلات ، والصورة والمقالة ، حتى الطرائف والملح الشائعة لا يتأخر في استعمالها لكسب قضاياه ، وتحقيق أهدافه ، والوصول إلى ما يسمونه هم أنفسهم بعمليات «غسيل المخ» ، وزرع ذاكرة جديدة في رؤوس الأجيال ؛ لتنشأ على ولاء فكري ونفسي للغرب ومثله وحضارته [1] !

وهكذا غدا «الغزو الفكري» الآن فنًا دقيقًا مستقلًا برأسه ، برعت فيه أوربا ، وقد أغراها بالمُضي قدمًا ، ما حققته من غلب على العالم الإسلامي في الجولة الماضية ، وهي تريد أن تكتب علينا هزيمة الأبد !

---

(١) الغزو الفكري ، والتيارات المعادية للإسلام ، د/ عبد الستار فتح الله (ص١٩٢) .

فهل آن لنا أن نصحو من رقدتنا، وأن ننهض من كبوتنا ؟!

******

الفصل الثاني

مصادر الغزو الفكري وأهدافه

المبحث الأول : مصادر الغزو الفكري

أولا : المصدر اليهودي

ثانيا : المصدر النصراني

ثالثا : المصدر الإلحادي

المبحث الثاني : أهداف الغزو الفكري

المبحث الأول

مصادر الغزو الفكري

لقد تعددت المصادر التي تُصوب منها سهام الغزو الفكري المعادي للإسلام وتسير جيوشه العاتية الجبارة، بسمومها الفكرية الفتاكة، التي هي أضر بالأمة الإسلامية من السموم البيضاء والسوداء على السواء، وتعددت الجهات التي عزمت على ألا تألوا جهدًا في مناصبة الإسلام وأهله العداء، بكل السبل، وخاصة من خلال الغزو الفكري أو «حرب الكلمة».

ومع تعدد تلك المصادر التي تأتي منها الأفكار المعادية للإسلام، فإنه يمكن القول بأنها ترجع إلى ثلاثة مصادر رئيسية، في عصرنا الحاضر، وهي:

أ ـ المصدر اليهودي.

ب ـ المصدر النصراني.

ج ـ المصدر الإلحادي.

وهؤلاء المصادر الثلاثة «اليهودي ـ النصراني ـ الإلحادي» ليسوا أقطابًا متنافرين، أو أشلاء متناثرين، ـ وإن بدا ما يوهم تنافرًا أو تدابرًا ـ ولكنهم ـ جميعًا ـ مجموعة من الخيوط المتشابكة؛ إذ الأهداف مشتركة، لا سيما عندما يكون الأمر متعلقًا بمواجهة الإسلام، وصدق الله القائل: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال:٧٣].

ولقد أسهم كل مصدر منها بالكثير والكثير ـ ولا يزال يسهم ـ في شن

الحرب الفكرية ضد الإسلام، وإشعالها، ومدها بالوقود لتظل مستعرة، حتى غدا كل منها رافدًا خطيرًا يجب علينا ـ نحن المسلمون ـ معرفته، والتوقي منه، ودرء مخاطره: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾.

[الأنفال:٣٩]

وسوف أعرض لكل منها بكلمة موجزة في الصفحات التالية، والله المستعان.

*****

أولا : المصدر اليهودي

«ويهود اسم علم كثمود ، ويقال : إنهم نسبوا إلى يهوذ بن يعقوب ، ثم عربت الذال دالًا ، فإذا قلت : اليهود بالألف واللام ؛ احتمل وجهين : النسب والدين ، الذي هو اليهودية ؛ أما النسب فعلى حد قولهم : التيْم في التيميين ؛ وأما الدين ، فعلى حد قولك : النصارى والمجوس ، أعني : أنها صفة لا أنها نسب إلى أب . وفي القرآن لفظ ثالث لا يتصور فيه إلا معنى واحد ، وهو الدين دون النسب ، وهو قوله سبحانه : ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة:١٣٥] . بحذف الياء ، ولم يقل : «كونوا يهودًا» ؛ لأنه أراد التهود ، وهو التدين بدينهم» [١] .

وقال بعضهم : يهود في الأصل من قولهم : هدنا [٢] إليك ، وكان اسم مدح ثم صار بعد نسخ شريعتهم لازمًا لهم ، وإن لم يكن فيه معنى المدح ، كما أن النصارى في الأصل من قوله : ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [الصف:١٤] ، ثم صار لازمًا لهم بعد نسخ شريعتهم [٣] .

«واليهودية هي ديانة العبرانيين المنحدرين من إبراهيم عليه السلام ، والمعروفين بالأسباط من بني إسرائيل الذين أرسل الله إليهم موسى عليه السلام مؤيدًا بالتوراة

---

(١) السيرة النبوية (١/ ٥١٨) هامش .

(٢) هاد : تاب ورجع إلى الحق وبابه قال : فهو «هائد» ، وقوم «هود» . مختار الصحاح (ص٢٩٢) .

(٣) المفردات للراغب الأصفهاني (ص٥٤٦) .

ليكون لهم نبيًّا»[١] .

ولقد قضوا حياتهم متفرقين في البلاد ، فسكنوا في بلاد أوروبا ، وأفريقيا ، وقد أجلوا عن الجزيرة العربية في صدر الإسلام ، ثم تمكنوا من اغتصاب فلسطين وأقاموا عليها دولة في منتصف القرن العشرين الميلادي «القرن الرابع عشر الهجري» .

«ومما لا شك فيه أن اليهود الحاليين ـ والذين يبلغون حوالي خمسة عشر مليونًا ـ لا يمتون بصلة إلى العبرانيين الإسرائيليين المنحدرين من إبراهيم عليه السلام ؛ إذ إنهم حاليًا أخلاط من شعوب الأرض المتهودين الذين تسوقهم دوافع استعمارية . أما الذين يرجعون إلى أصول إسرائيلية فعلا هم اليوم ـ وفي إسرائيل بخاصة ـ يهود من الدرجة الدنيا»[٢] .

ولقد كان اليهود ذوي سلوك سيئ مع أنبيائهم ورسلهم ، قساة غلاظًا ، لا يفتأون يلقون بأنفسهم في مستنقع المادية ، ويتنكبون الصراط المستقيم ، يسيطر عليهم غرور أحمق ، وجهل مطبق .

ولقد عرض القرآن الكريم لكثير من أخلاقهم المرذولة ، التي استحقوا بها اللعن ، والذلة والمسكنة : ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف:٤٩] .

قال تعالى : ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧] .

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة (ص٥٦٥) .
(٢) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة : (ص٥٧٤) .

وقال سبحانه : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [المائدة:٧٨، ٧٩] .

وقال جل شأنه : ﴿ ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾ [آل عمران:١١٢] .

وهؤلاء القوم ينظرون إلى من عداهم من البشر نظرة استعلاء واستكبار ؛ إذ يعتقدون بأنهم «شعب الله المختار» ، وأن الناس جميعًا عبيد لهم وخدم ، «وجعلوا في اللغة العبرية لفظة تدل على أي شعب من الأمم الأخرى غير اليهودية هي «جوي» بينما شعبهم يميز عادة بكلمة «عام» . واقترنت كلمة جوي في عقولهم بالزراية والاحتقار ، فإذا قال اليهودي عن شخص أو شيء : إنه «جوي» فهو يعني بذلك : أنه همجي بربري يجمع القذارة والنجاسة والحقارة .

وإذا فكر واحد من «الجوييم» في اعتناق اليهودية ، فإن الحاخام يبدأ بامتحانه وسؤاله والتشديد عليه ، لعله يفلح في صرفه عن الدخول في شعب الله المختار ، لكن إذا نجح هذا الغريب في الامتحان تم تهويده دون أن ينال حق المساواة حتى مع الزنادقة من بني إسرائيل ، ويميز باسم خاص هو «جير» أي : الجار ، أو المستجير ، أو الداخل تحت الحماية . أي أنه يعتبر من الموالي ، فيحرم عليه وعلى سلالته من بعده إلى يوم القيامة أن يصاهروا أية أسرة يهودية

تحمل لقب «لاوي» ـ حاليًا : ليفي ـ أو «كوهين» ؛ لأن هذه الأسر ، فيما يزعمون تنحدر من سبط اللاويين الذي منه موسى وهارون ، والذي بقيت فيه الكهانة ميراثًا دائمًا ، كذلك يحرم على هذا المتهود أن يتولى الإمامة أو القضاء أو القيادة السياسية أو العسكرية . وله في الصلاة صيغ معدلة بحسب المنزلة السفلى التي وضع فيها. كما أنه إذا مات ولم يكن له أقارب من المتهودين مثله لم يرثه أحد ، وإنما تؤول تركته إلى الخزانة العامة . وإذا كان في تركته عبيد ، فإنهم يحررون بعد موته ، ويجوز لهذا المتهود زواج اللقيطة وبنت الزنى ، بينما يحرم التلمود [1] هذا على اليهودي الأصيل [1] .

---

(١) ينقسم التلمود إلى جزءين هامين :
١ـ المشناة ، وهو الأصل «المتن» ٢ـ جمارا ، شرح مشناة ، ومشناة أول لائحة قانونية وضعها اليهود لأنفسهم بعد التوراة ، جمعها يهوذا هاناسي فيما بين (١٩٠ ، ٢٠٠م) ، أي : بعد قرن تقريبًا من تدمير تيطس الروماني الهيكل . أما جمارًا فاثنان : جمارا أورشليم «فلسطين» وجمارا بابل . وجمارا أورشليم «أو فلسطين» هو سجل للمناقشات التي أجراها حاخامات فلسطين «أو بالأخص علماء مدارس طبرية» لشرح أصول المشناة . ويرجع تاريخ جمعه إلى عام (٤٠٠م) ، وجمارا بابل هو سجل مماثل للمناقشات حول تعاليم المشناة دون علماء بابل اليهود ، وانتهوا من جمعه سنة (٥٠٠م) تقريبًا ، فمشناة مع شرحه جمارا أورشليم يسمى «تلمود أورشليم» ، ومشناة مع شرحه جمارا بابل يسمى «تلمود بابل» ، وكلاهما يطبع على حدة . التلمود تاريخه وتعاليمه، ظفر الإسلام خان (ص١١ ، ١٢) ، دار النفائس بيروت ط السادسة (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م) ، وللتلمود مكانة كبيرة عند اليهود قد تفوق التوراة نفسها ، وهذه الشروح التي فسر بها الحاخامات توراتهم ، والتي يتكون منها التلمود تعكس مدى الحقد الدفين الذي يأكل قلوبهم ، والكراهية الشديدة لغيرهم من الأمم ، وتكشف عن طبيعتهم الشاذة ، وتحريفهم للكلم عن مواضعه : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة:٧٩] . =

ولا يتسع المقام لذكر خصائص هؤلاء الناس ، وما عُرفوا به من مكر وخبث وعداء لكل الأديان ، خاصة الإسلام ، ومحاربة للقيم والمثل السامية ، ورغبة في السيطرة على العالم بشتى الوسائل الدنيئة .

لكن الجدير بالذكر أنهم قد خططوا منذ زمن للقضاء على الدعوة الإسلامية ، ومن قبلها دعوة عيسى عليه السلام ، وحاولوا إفسادها خاصة عن طريق الإفساد الفكري .

ولقد خططوا للقضاء على المسيحية من داخلها وهدم عقائدها وإفساد دعوتها ، بُغْيَة القضاء عليها قضاء مبرمًا ، فدخل اليهوديُّ شاؤول في المسيحية وغير اسمه إلى بولس ، وادعى أن المسيح ظهر له وكلمه في طريقه إلى دمشق ، ومن يومها تحول من كافر مناوئ إلى رسول وداعية ، ومبشر بالمسيحية [٢] ، «فنقلها من ديانة خاصة ببني إسرائل إلى ديانة عالمية ، ونقلها من التوحيد إلى التثليث ، وقال بألوهية المسيح ، واخترع قصة الفداء للتكفير عن خطيئة البشر» [٣] .

= ويراجع على سبيل المثال لمن أراد معرفة المزيد عن تعاليم التلمود كتاب: التلمود : تاريخه وتعاليمه ، وكتاب: جذور البلاء عبد الله التل (ص٦٨ـ ٨٣). المكتب الإسلامي . بيروت ط الثانية (١٣٩٨هـ ١٩٧٨م).

(١) ابحاث في الفكر اليهودي . د / حسن ظاظا (ص١٠٩ ، ١١٠) . دار القلم . دمشق ، دار العلوم بيروت ط الأولى (١٤٠٧هـ ١٩٨٧م) .

(٢) يراجع سفر أعمال الرسل من العهد الجديد ، ففيه تفصيل لحياة بولس (شاؤول) وأعماله .

(٣) المخططات التلمودية الصهيونية اليهودية في غزو الفكر الإسلامي . أنور الجندي (ص١١٨) . دار الاعتصام ط الثانية (١٣٩٧هـ ١٩٧٧م) .

«ويعتقد بعض الباحثين أن عددًا من الكرادلة في الفاتيكان ينحدر من أصل يهودي ، تدفعهم الأغراض اليهودية إلى تحقيق أهداف الصهيونية ، وإليهم يرجع عدد من القرارات الحاسمة في مقدمتها تبرئة اليهود من محاولة قتل المسيح»[١] .

ولما بعث الله رسوله محمدًا ﷺ ، وأخذ يدعو إلى الإسلام كان على رأس من ناصبه العداء اليهود ، فقادوا محاولات التشكيك والتشويه وتزييف الحقائق ، وكانوا يمدون الكفار الوثنيين بالشبهات التي ينثرونها في وجه الدعوة الإسلامية ، واشتعلت بسببهم نار الحرب الفكرية ، وكانوا بمثابة الشيطان في عصابة المجرمين . والتاريخ يطفح بمواقفهم العدائية من دعوة الإسلام منذ وقت ظهورها إلى وقتنا هذا ، ومليء كذلك بصور شتى ومظاهر كثيرة للغزو الفكري اليهودي .

قال ابن إسحاق : ونصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله ﷺ العداوة ، بغيا وحسدًا وضغنًا ، لما خص الله تعالى به العرب من أخذه رسوله منهم ، وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ، ممن كان عسى[٢] على جاهليته ، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث ، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه ، فظهروا بالإسلام ، واتخذوه جنة من القتل ، ونافقوا في السر وكان هواهم مع يهود ، لتكذيبهم النبي ﷺ وجحودهم الإسلام ، وكانت أحبار يهود هم الذين يسألون النبي ﷺ ويتعنتونه[٣] ، ويأتونه باللبس ؛ ليلبسوا الحق بالباطل ، فكان القرآن ينزل فيهم

---

(١) السابق (ص١١٩) .
(٢) عسى : أي بقى .
(٣) يتعنتونه : يشقون عليه .

فيما يسألون عنه ، إلا قليلا من المسائل في الحلال والحرام كان المسلمون يسألون عنها [١] .

ولقد دأبوا على تشكيك المسلمين في دينهم ، وكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ وكان القرآن يدحض مفترياتهم ، ويفند شبهاتهم .

روى ابن إسحاق أن أبا بكر الصديق دخل بيت المدراس [٢] على يهود ، فوجد منهم ناسًا كثيرًا قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له : فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ومعه حبر من أحبارهم يقال له : أشيع ؛ فقال أبو بكر لفنحاص : ويحك يا فنحاص ! اتق الله وأسلم ، فو الله إنك لتعلم أن محمدًا لرسول الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل ، فقال فنحاص لأبي بكر : والله يا أبا بكر ، ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء وما هو عنا بغني ، ولو كان عنا غنيًّا ما استقرضنا أموالنا ، كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان عنا غنيا ما أعطانا الربا . قال : فغضب أبو بكر ، فضرب وجه فنحاص ضربًا شديدًا ، وقال : والذي نفسي بيده ، لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت رأسك أي عدو الله ، قال : فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، انظر ما صنع بي صاحبك ، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إن عدو الله قال قولا عظيمًا ، إنه زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله مما

---

(١) السيرة النبوية (١/ ٥١٣) .

(٢) بيت المدراس : هو البيت الذي يتدارس فيه اليهود كتابهم . السيرة النبوية ١/ ٥٥٨ هامش .

قال ، وضربت وجهه . فجحد ذلك فنحاص ، وقال : ما قلت ذلك ، فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص ردًّا عليه ، وتصديقًا لأبي بكر : ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران:١٨١] .

ونزل في أبي بكر الصديق ﷺ وما بلغه في ذلك من الغضب : ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦] .

ثم قال فيما قال فنحاص والأحبار معه من يهود : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النساء:١٨٧، ١٨٨] ، يعني : فنحاص ، وأشيع وأشباههما من الأحبار ، الذين يفرحون بما يُصيبون من الدنيا على ما زينوا للناس من الضلالة ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، أن يقول الناس : علماء ، وليسوا بأهل علم ، لم يحملوهم على هدى ولا حق ، ويحبون أن يقول الناس : قد فعلوا[(١)] .

ثم إنهم أشاعوا أن عبادة الأصنام خير من الإسلام ، وأفتوا أهل مكة بأنهم خير من الرسول ﷺ وأهدى منه سبيلاً ، فأنزل الله عز وجل في ذلك قوله : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ

(١) السيرة النبوية (١/ ٥٥٨، ٥٥٩) ، وأسباب النزول (ص٧٦، ٧٧) .

لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ [1] [النساء:٥١،٥٢] ، ولقد ظل اليهود خلال أدوار التاريخ المتعاقبة يقذفون بالأفكار المعادية للإسلام ، ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، حتى عصرنا الحاضر ، الذي شهد نشاطًا يهوديًا محمومًا في هذا المجال ، فقاموا على كل صعيد ، وركبوا كل سبيل وجندوا كل شيء من أجل نشر الفكر المعادي لبني الإنسان بعامة ، والإسلام والمسلمين بخاصة .

ولقد استهدف الغزو الفكري اليهودي في عصرنا الحاضر التركيز على قضايا كثيرة أهمها ثلاث :

الأولى : معاداة كل الأديان الأخرى بعامة ، وتقويض ما لها من دعائم ، وهدم ما تدعو إليه من عقائد ، وتدمير ما تنادي به من فضائل وقيم أخلاقية سامية .

الثانية : معاداة الدين الإسلامي وأهله بشكل خاص ، فجعلوا من عقائده وتشريعاته ومبادئه وتاريخه وأهله ورموزه أهدافًا لحملاتهم الشعواء ، وهجماتهم الحمقاء .

الثالثة : الدعوة أو الدعاية الواسعة إلى قيام دولة إسرائيل ، ثم إلى مساندتها بعد أن صارت واقعًا مفروضًا ، وعرض هذا الأمر على أنه منَ كبرى الحقائق واليقينيات التي لا تقبل الشك أو الجدال ، وأن فلسطين وطنهم وحقهم من كل الوجوه ، دينية كانت أو عقلية أو تاريخية ، وأنهم عُذبوا وشردوا ، والعمل على إظهارهم بصورة المظلومين ، ولا بأس بأن يختلقوا الكذب والبهتان الذي

---

(١) انظر : أسباب النزول (ص٨٨ : ٩٠) .

يستدرون به عطف العالم، مثل اختلاق قضية المحرقة التي حدثت لهم على يد النازية الألمانية، أو ما يطلقون عليه «الهولوكوست»[1] «ومن خلال الإعلام

(١) يعرف الدكتور عبد الوهاب المسيري في موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية التي صدرت في القاهرة عام (١٩٧٥م) الهولوكوست بأنها كلمة يونانية تعني: (القربان الكامل) وهي تستخدم في العصر الحديث للإشارة لإبادة اليهود على يد النازيين، علمًا أنه لا يوجد مرجع صهيوني واحد يفسر اختيار هذا المصطلح وإطلاقه على الجريمة النازية. الصهيونية والسينما. جان ألكسان (ص٦٠) هامش. دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر. دمشق. ط الأولى (١٩٨٩م). هذا؛ ولقد ذكر غير واحد من مؤرخي أوربا أن فرية إبادة اليهود على أيدي النازيين ليس لها سند من الصحة، إنما هي محض افتراء، وكان في مقدمة المؤرخين الذي تصدوا للإرهاب الفكري الصهيوني مؤرخ فرنسي اسمه (روبير فوريسون)، نجح اللوبي الصهيوني في فصله من عمله بهيئة التدريس في جامعة ليون. إن ما يثير الريبة في قصة الإبادة النازية المزعومة لليهود تناقض الروايات الصهيونية حول عدد الضحايا، فلقد زعمت الصهيونية العالمية بدءًا، أن ١٢ مليونًا من اليهود الأوروبيين قضوا نحبهم على يد الجيش النازي في معسكرات الاعتقال، ولما اكتشف أن أكبر التقديرات لعدد اليهود في أوربة عام ١٩٣٩م قبل الاجتياح النازي لأوربة لا يتعدى ثمانية ملايين ونصف المليون يهودي، أخذت تقلص من مجموع عدد الضحايا إلى ستة ملايين. وفي عام ١٩٧٩م أعلنت مؤسسة تسمى «جمعية دراسة التاريخ» في لوس أنجلوس في كاليفورنيا عن تقديمها مبلغ ٥٠ ألف دولار لأي شخص يستطيع أن يثبت بالدليل القاطع أن اليهود قد قتلوا حقا أيام النازية بوضعهم في غرفة الغاز القاتل كما يدعي الصهاينة. ويقول مؤسس هذه الجمعية:
(صحيح إن قِسما من اليهود الأوروبيين قد حُبسوا في معسكرات الاعتقال النازية، ولكن عدد الموتى منهم لا يزيد بحال عن ٥٠٠,٠٠٠ إلى ٨٠٠,٠٠٠ نسمة، ومعظم من مات من هؤلاء إنما مات بسبب العمل المجهد والتغذية الناقصة، أو بسبب التيفود والأمراض الأخرى، وليس بسبب الحرق في المحارق أو القتل في أفران الغاز، ولأن حرق بعض الموتى منهم، فقد حصل ذلك بعد وفاتهم، كما يجري الآن حرق الأموات في بعض الدول، أما الغاز الذي يحكى عنه الكثير، فقد كان يستعمل لتنظيف الملابس وقتل الطفليات والجراثيم والتطهير وما شابه، ولو أن الهولوكوست كان حقيقة واقعة لتقدم الكثيرون لهذا العرض المغري، ولكن أحدًا لم يتقدم. وجدير بالذكر =

الإسرائيلي والصهيوني الدائب وبالكلمة والصورة والعمل الفني والعلمي ... إلخ ؛ تنمحي صورة اليهودي البخيل الماكر ، لتحل محلها صورة الإسرائيلي الذي يزرع الصحراء ، ويستصلح الأرض ؛ ليبني عليها حضارة وسط مجتمع متخلف متأخر» [١] .

إن عقدة اليهود النفسية المتمثلة في اعتقادهم بأنهم وحدهم «شعب الله المختار» تجعلهم لا يريدون أن يرفع أحد رأسه ندًّا لهم ، أو يوجد دين غير دينهم فضلًا عن أن يتحداهم ويتحدى دينهم مثبتًا أنهم على ضلال .

ولا يتحداهم ويهدم زيفهم ، ويدحض أباطيلهم مثل الإسلام ؛ لذا فاقت عداوتهم له عداوة المشركين الوثنيين ، وصدق الله إذ يقول : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة:٨٢] .

وكما قلت : فقد جندوا كل شيء لأهدافهم تلك ، فاستغلوا الصحافة ، وسيطروا على السينما ودور النشر ، وتغلغلوا في أكثر المواقع العلمية ، والتوجيهية في أوروبا وغيرها ونشروا النظريات المحطمة للأخلاق والدين كالفرويدية [٢] والداروينية [٣] وغيرهما .

= أن ألمانيا تدفع تعويضات للدولة الإسرائيلية ، ولأقرباء الضحايا بمعدل خمسة آلاف مارك لكل ضحية . المرجع السابق ص٥٦ وما بعدها بتلخيص وتصرف .

(١) الاتصال بالجماهير والدعاية الدولية . د/ أحمد بدر . ص٣١٠ . دار القلم . الكويت . ط الأولى ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م . نقلًا عن أحمد بهاء الدين ، المجلة المصرية للعلوم السياسية العدد (٦٧) يوليو ١٩٧٠م ، ص٣٠٦ .

(٢) الفرويدية : مدرسة في التحليل النفسي أسسها اليهودي سيجموند فرويد ، وهي تفسر السلوك الإنساني تفسيرًا جنسيًا ، وتجعل الجنس هو الدافع وراء كل شيء ، كما أنها تعتبر القيم والعقائد حواجز وعوائق تقف أمام الإشباع الجنسي ، مما يورث الإنسان عقدًا وأمراضًا نفسية . الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص٣٧٥ .

(٣) نسبة إلى دارون صاحب نظرية النشوء والارتقاء التي زعزعت القيم الدينية وتركت آثارًا سلبية على الفكر العالمي .

ولا يستطيع المرء أن ينسى دور اليهود المستشرقين في هذا المجال ، حينما لبسوا أردية العلم وأزياء العلماء ، وتنكروا في صورهم ، ثم نشروا الشبهات والأباطيل في كل مكان ، ولم يغب عنهم لحظة من الزمن ما قاموا لأجله .

«وهناك ملاحظة لبعض الباحثين تتعلق بالمستشرقين اليهود خاصة ، فالظاهر أن هؤلاء أقبلوا على الاستشراق لأسباب دينية ، وهي محاولة إضعاف الإسلام والتشكيك في قيمه ، بإثبات فضل اليهودية على الإسلام بادعاء أن اليهودية في نظرهم ، هي مصدر الإسلام الأول ، ولأسباب سياسة تتصل بخدمة الصهيونية فكرة أولاً ثم دولة ثانيًا ، هذه وجهة نظر ربما لا تجد مرجعًا مكتوبًا يؤيدها ، غير أن الظروف العامة ، والظواهر المترادفة في كتابات هؤلاء المستشرقين تعزز وجهة النظر هذه ، وتخلع عليها بعض خصائص الاستنتاج العلمي»[1] .

ومما يؤسف له أن الغزو الفكري اليهودي قد انطلى على كثير من المسلمين ، سواء أكانوا من المبتعثين إلى خارج ديارهم ، أم كانوا قابعين في بلادهم ، فقد استطاع اليهود ـ كما مر ـ أن يوصلوا أفكارهم التي يريدون عرضها إلى كل الدنيا ، بما في ذلك بلاد المسلمين ، حيث يملكون الصحف بالعشرات[2] ولهم

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي . د/ محمد البهي . ص٥٣٤ . دار الفكر . بيروت ط السادسة ١٩٧٣م .

(٢) لمعرفة المزيد عن النشاط الإعلامي اليهودي يراجع : الإعلام اليهودي المعاصر وأثره في الأمة الإسلامية د/ يوسف محيي الدين أبو هلالة . مكتبة الرسالة الحديثة . عمان . الأردن ط . الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م ، وكتاب الاتصال بالجماهير والدعاية الدولية . د / أحمد بدر . ص ٣٠٤ ـ ٣١٠ .

إذاعات موجهة ، وعملاء من بني جلدتنا يتكلمون بألسنتنا .

بل إن مما يندى له الجبين وينفطر لـه الفؤاد ألما وحسرة أن اليهود أصبحوا يأتون بفكرهم سافرًا دون ما قناع ، ويعرضونه في بلادنا على الناس جميعًا ، ويفسح له المجال ، وتزال من أمامهم العراقيل ، وهذا مثال لذلك :

في سنة ١٤٠١هـ ، يوم أقيم معرض الكتاب في مصر ، اشتركت فيه إسرائيل ، ففرصة مثل هذه لا بد أن تُستخدم لعرض ما يريد اليهود عرضه لينطلق الغزو الثقافي مجلوًّا دون قناع .

(ولقد عرض «**شايلوك انتر ناشيونال**» الكتب التي تمجد الإسرائيليين وتعتبرهم شعب الله المختار ، وتشيد بدورهم في الذبح والقتل والتشريد ، واعتبار هذا كله تحريرًا لمملكة داود من المسلمين الغزاة ، وقد وضع «**شايلوك**» أسعارًا تتفوق على غيرها من أسعار الناشرين ، وكان عارضًا للكتب التي تتجنى على الحقيقة ، وتزوق الكتب ، وتروج الباطل ، خاصة كتب التاريخ التي كتبها الدجالون ، من المعاصرين اليهود ، عن الدولة العثمانية ، والمدن الفلسطينية ، ومصر ، ومما يؤسف له ، أن تقوم هيئة الاستعلامات في مصر المسلمة !! بنشر «**مذكرات رابين**» [١] وتوزيعها على المواطنين ، بكل ما فيها من استعلاء يهودي مزيف ، وكذب واضح ، فقد وصف «رابين» الجندي اليهودي بأنه لا يقهر ، بينما وصف الجندي المصري بأنه لا يجيد سوى الجري والهروب [٢] .

---

(١) رابين واحد من أبرز السفاحين اليهود المعاصرين ، وقد رأس وزارة العدو اليهودي حتى قتل عام ١٩٩٥م بيد شاب يهودي .

(٢) الإعلام اليهودي المعاصر ص٤٤ ، ٤٥ نقلاً عن مقال : «الجناح المكسور في المعرض المهجور» . مجلة الاعتصام المصرية .. السنة ٤٤ ، العدد٣ـ٤ ص٢٢ـ٢٣ ، ربيع الثاني ١٤٠١ هـ .

وفي فلسطين المحتلة يعمد اليهود إلى تحريف وتشويه مناهج التعليم التي تدرس لأبناء المسلمين ، بما يخدم أهدافهم ومخططاتهم ، وكان التحريف منصبًّا على عدة أمور أهمها تدمير العقيدة الإسلامية في نفوس الطلاب ، ومن صور ذلك : التشكيك في صحة القرآن الكريم ، وفي صحة الحديث ، وتشويه المبادئ والعقائد الإسلامية ، كالزكاة والجهاد والحج، وقدسية المسجد الأقصى المبارك ، وتصوير الإسلام وكأنه العامل الرئيسي في تخلف المسلمين وتأخرهم [١] .

هذا هو المصدر الأول للغزو الفكري للعالم الإسلامي ، ولننتقل للحديث عن المصدر الثاني .

*****

(١) الإعلام اليهودي المعاصر (ص٤٥) ، وانظر : السابق .

ثانيا المصدر النصراني

وثاني المصادر التي تهب منها ريح الغزو الفكري «السموم» وتتطاير من قواعدها الشرور صوب الإسلام والمسلمين ، ولا يقل خطورة عن سابقه ؛ المصدر النصراني .

ونصراني مفرد نصارى ، وقيل : سموا بذلك لقوله : ﴿كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ﴾ [الصف:١٤] .

وقيل : سموا بذلك ، انتسابًا إلى قرية يقال لها : نصران [١] ، فيقال : نصراني وجمعه نصارى ، قال : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾ الآية [البقرة:١١٣] [٢] .

و«النصرانية : هي الديانة المسيحية التي أنزلت على عيسى ﷺ ، مكملة لرسالة موسى ﷺ ، متممة لما جاء في التوراة من تعاليم ، موجهة إلى بني إسرائيل ، داعية إلى التهذيب الوجداني والرقي العاطفي والنفسي لكنها سرعان ما فقدت أصولها ، مما ساعد على امتداد يد التحريف إليها ، حيث ابتعدت كثيرًا عن صورتها السماوية الأولى ؛ لامتزاجها بمعتقدات وفلسفات وثنية» [٣] .

---

(١) قال في مختار الصحاح مادة ن ص ر : (نصران) بوزن نجران قرية بالشام تنسب إليها (النصارى) ويقال : اسمها (ناصرة) . و (النصارى) جمع (نصراني ونصرانة) كالندامى جمع ندمان وندمانة ولم يستعمل نصران إلا بياء النسبة .

(٢) المفردات للراغب ص٤٩٥ .

(٣) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة . ص٤٩٩ .

ولقد طال التحريف الذي أصاب النصرانية العقيدة والشريعة معًا ، ولقد جحدوا نبوة محمد ﷺ ، وناصبوا الإسلام العداوة منذ ظهوره حتى يوم الناس هذا ، ولم يجيبوا داعي الله للدخول في الإسلام[1] .

ولقد تأججت نار العداوة والبغضاء في قلوب النصارى ضد الإسلام وأهله منذ أن جاء القرآن الكريم وحمل على معتقداتهم الباطلة ، وفند شبهاتهم الفاسدة ، وأبان عن وجه الحق فيما يتعلق بنبي الله عيسى عليه السلام ، حيث بين أنه ليس بإله ، ولا بابن إله ، وما هو إلا بشر رسول ، وأبطل القرآن فرية الصلب ، وأكد على عقيدة التوحيد ، وأنها عقيدة كل الأنبياء والمرسلين ، إلى غير ذلك .

فهل ينسى النصارى هذا الهجوم على عقائدهم الذي ظل قرآنًا يُتلى إلى يوم الدين ؟

قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا

(١) انظر : السيرة النبوية : ١/ ٥٧٣ـ٥٨٤ .

وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة:٧٢-٧٧] .

وزاد من اشتعال تلك الأحقاد في قلوب النصارى ما كان من أمر الفتوحات الإسلامية ، حيث امتدت رقعة الدولة الإسلامية ، وانتشر نور الحق في المشارق والمغارب ، ودخل خلق كثير في دين الله أفواجًا ، وغزا الإسلام النصرانية في عقر دارها ، وأقام حضارة إسلامية في الأندلس ظلت زهاء ثمانية قرون من الزمن ، وهزم النصرانية المحرفة عندما غزت الشرق الإسلامي في الحملات الصليبية ؛ إذ ردّها في نهاية المطاف خاسئة وهي حسيرة ، تجر أذيال الهزيمة .

كل هذا وغيره جعل تلك الأحقاد كامنة في نفوس النصارى ، وباقية لم تطفئها الأيام .

ولقد كانت تظهر الكراهية للإسلام دائمًا من خلال محاربة النصارى للإسلام وأهله ، وخاصة عندما يظهرون على المسلمين في جولة ما من جولات الصراع ؛ حيث يعملون على إبادة المسلمين إبادة كاملة ، بل ويتفننون في تلك الإبادة .

إنّهم عند فتح القدس في الحروب الصليبية ذبحوا سبعين ألف مسلم في المسجد الأقصى حتى سبحت الخيل إلى صدورها في الدماء ، واستأصلوا شأفة المسلمين من الأندلس وصقلية وجنوبي فرنسا وسردانية ، مع أنهم كانوا

يحصون في هذه البلدان بالملايين، وعفى الأوروبيون النصارى كل أثر للإسلام في أوروبا ، ولم يرضوا أن يبقى فيها مسلم واحد [(١)] وصدق الله ؛ إذ يقول : ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة:٨] .

ولو فتشنا في التاريخ عن مظاهر تلك العداوة والكراهية لوجدناها تتراءى لنا بارزة دون أي مواربة ، ولكن ليس المجال بمتسع لهذا الحديث .

بيد أن المرء يسمع من يتكلم قائلاً: إن تلك العداوة، وتلك المحاربة انتهت ، وأصبحت أوروبا النصرانية اليوم ذات موقف آخر من الإسلام والمسلمين ، يتسم بالتسامح والسلام ، ويجب عدم إثارة الحديث عن مثل هذه البغضاء والحروب التي طويت صحائفها .

والواقع أننا نحن ـ المسلمين ـ لا نثير أحقادًا ، ولا نشعل نارًا ، ولكننا لا يمكن أن نغفل واقعًا يحياه القوم ، وحقيقة تضرب بجذورها في أعماقهم .

فقد كنا نتمنى أن تكون تلك الصحائف قد طويت ، وأن لو كانت أوروبا تغيرت ، لكن الواقع خلاف ذلك !

وما هذا الكلام الذي نسمعه وأمثاله ؛ إلا صورة من آثار الغزو الفكري المعادي ، وإن سلسلة المحاربة والمعاداة من جانب أوروبا لم تتوقف ، ولعل آخرها وأحدثها ما فعلته أوروبا النصرانية بشعب البوسنة والهرسك من إبادة ومحو لهذا الشعب المسلم ولدينه اليوم، وما عبر به قادتهم من أنهم لا يريدون

---

(١) حاضر العالم الإسلامي تأليف : لوثروب ستودارد الأمريكي نقله إلى العربية الأستاذ عجاج نويهض بتعليقات الأمير شكيب أرسلان . ص٢٠٨ . من هوامش الأمير شكيب بتصرف . دار الفكر . بيروت . ط الرابعة ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٣م .

دولة مسلمة في قلب أوروبا النصرانية ، وما تقوم به من تواطؤ ، بل ومساعدة للمجرمين الصرب والكروات النصارى ، في محاولاتهم محوَ الإسلام وأهله من تلك البلاد .

وقد أكد هذا الموقف الأوروبي النصراني المتسم بالعداوة والبغضاء للإسلام ، حتى بعد أن اجتاحت أوروبا ماديةٌ طاغية ، زاحمت الدين حتى ألجأته إلى أن يقبع بين جدران الكنائس ، لا يتجاوزها ولا يتخطاها ، وعزلته عن كل ميادين الحياة : «ليوبولدفايس» النمساوي الذي اعتنق الإسلام ، وتسمى «**محمد أسد**» أورد مقتطفات من كلامه الذي يعد شهادة قيمة فيما نحن بصدده :

يتحدث عن الموقف الأوروبي من الإسلام فيقول :

«لا تجد موقف الأوروبي موقفَ كُره في غير مبالاة فحسب كما هي الحال في موقفه مع سائر الأديان والثقافات ، بل هو كره عميق الجذور يقوم في الأكثر على صدود من التعصب الشديد ، وهذا الكره ليس عقليًّا فحسب ، ولكنه يصطبغ أيضًا بصبغة عاطفية قوية ، قد لا تقبل أوربة تعاليم الفلسفة البوذية [1] والهندوكية [2] ، ولكنها تحتفظ دائمًا فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلي

---

(١) البوذية : هي ديانة ظهرت في الهند بعد الديانة البرهمية في القرن الخامس قبل الميلاد ، كانت في بدايتها متوجهة إلى العناية بالإنسان ، كما أن فيها دعوة إلى التصوف والخشونة ونبذ الترف ، والمناداة بالمحبة والتسامح وفعل الخير ، لكنها لم تلبث بعد موت مؤسسها أن تحولت إلى معتقدات باطلة ذات طابع وثني ، ولقد غالى أتباعها في مؤسسها حتى ألهوه . أسسها (سد هارتا جوتاما) الملقب ببوذا (٥٦٠ ــ ٤٨٠ ق م) وبوذا تعني : (العالم) ويُلقب أيضًا بسكياموني ومعناه : المعتكف . الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص١٠٧ .

(٢) الهندوكية : هي الهندوسية .. وهي ديانة وثنية يعتنقها معظم أهل الهند ، وقد تشكلت عبر مسيرة طويلة من القرن الخامس عشر قبل الميلاد إلى وقتنا الحاضر ، إنها ديانة تضم=

متزن، ومبني على التفكير، إلا أنها حالما تتجه إلى الإسلام يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب»[١].

ثم يقول:

«إن الحروب الصليبية هي التي عينت في المقام الأول والمقام الأهم موقف أوربة من الإسلام لبضعة قرون تتلو، ولقد كانت الحروب الصليبية في ذلك حاسمة؛ لأنها حدثت في أثناء طفولة أوروبا، في العهد الذي كانت فيه الخصائص الثقافية الخاصة قد أخذت تعرض نفسها، وكانت لا تزال في طور تشكلها، والشعوب كالأفراد، إذا اعتبرنا أن المؤثرات العنيفة التي تحدث في أوائل الطفولة تظل مستمرة ظاهرًا أو باطنًا مدى الحياة التالية، وتظل تلك المؤثرات محفورة حفرًا عميقًا، حتى إنه لا يمكن للتجارب العقلية في الدور المتأخر من الحياة والمتسم بالتفكير أكثر من اتسامه بالعاطفة أن تمحوها إلا بصعوبة، ثم يندر أن تزول آثارها تمامًا، وهكذا كان شأن الحروب الصليبية، فإنها أحدثت أثرًا من أعمق الآثار وأبقاها في نفسية الشعب الأوروبي، وأن الحمية الجاهلية العامة التي أثارتها تلك الحروب في زمنها لا يمكن أن تقارن بشيء خبرته أوروبة من قبل ولا اتفق لها من بعد، لقد اجتاحت القارة الأوروبية كلها موجة من النشوة، كانت ـ في مدة ما على الأقل ـ عنفوانًا تخطى

= القيم الروحية والخلقية إلى جانب المبادئ القانونية والتنظيمية، متخذة عدة آلهة بحسب الأعمال المتعلقة بها فلكل منطقة إله، ولكل عمل أو ظاهرة إله، ويلتقي الهندوس على تقديس البقرة .. السابق ص٥٣١ وما بعدها.

(١) الإسلام على مفترق الطرق. تأليف محمد أسد. نقله إلى العربية الدكتور عمر فروخ ص٤٩ـ٨٠ الناشر: مكتبة المنار بالكويت. ط السابعة ١٩٧٤م.

الحدود التي بين البلدان والتي بين الشعوب والتي بين الطبقات ، ولقد اتفق في ذلك الحين ، وللمرة الأولى في التاريخ ، أن أوروبا أدركت في نفسها وحدة ـ ولكنها وحدة في وجه العالم الإسلامي ـ ويمكننا أن نقول من غير أن نوغل في المبالغة : إن أوروبا ولدت من روح الحروب الصليبية . لقد كان ثمة قبل ذلك الزمن أنكلوسكون وجرمان وفرنسيون ونورمان وإيطاليون ودنماركيون [وسلاف] ، ولكن في أثناء الحروب الصليبية ولدت فكرة (المدنية الغربية) وأصبحت هدفًا واحدًا تسعى إليه جميع الشعوب الأوروبية على السواء . وكانت تلك المدنية الغربية عداوة للإسلام وقفت عَرّابًا [(١)] في هذه الولاية الجديدة » [(٢)].

ثم يعرض لتساؤل مهم ويجيب عليه فيقول :

ولقد يتساءل بعضهم فيقول : كيف يتفق أن نفورا قديمًا مثل هذا وقد كان دينيا في أساسه وممكنًا في زمانه بسبب السيطرة الروحية للكنيسة النصرانية يستمر في أوروبا في زمن ليس الشعور الديني فيه إلا قضية من قضايا الماضي ؟

ليست مثل هذه المعضلات موضع استغراب أبدا ، فإنه من المشهور في علم النفس أن الإنسان قد يفقد جميع الاعتقادات الدينية التي تلقنها في أثناء طفولته ، بينما تظل بعض الخرافات الخاصة ـ والتي كانت من قبل تدور حول تلك الاعتقادات المهجورة ـ في قوتها تتحدى كل تعليل عقلي في جميع أدوار ذلك الإنسان ، وهذه حال الأوروبيين مع الإسلام ، فعلى الرغم من أن الشعور

---

(١) عَراب : تعبير كنسي يقصد به وكيل الطفل المعُمَّد . السابق . ص٥٣ هامش .

(٢) السابق : ص٥٢ـ٥٣ .

الديني الذي كان السبب في النفور من الإسلام قد أخلى مكانه في هذه الأثناء لاستشرافٍ على الحياة أكثرَ ماديةً ، فإن النفور القديم نفسه قد بقي عنصرًا من الوعي الباطني في عقول الأوروبيين . وأما درجة هذا النفور من القوة فإنها تختلف بلا شك بين شخص وآخر ، ولكن وجوده لا ريب فيه .

إن روح الحروب الصليبية ـ في شكل مصغر على كل حال ـ ما زال يتسكع فوق أوروبا ، ولا تزال مدنيتها تقف من العالم الإسلامي موقفًا يحمل آثارًا واضحة لذلك الشبح المستميت في القتال [1] .

ولقد نسي النصارى خلافاتهم مع اليهود وظاهروهم في محاربة الإسلام ، ومن له أدنى إلمام بالتاريخ المعاصر يدرك دور أوروبا النصرانية في إقامة دولة إسرائيل ، واغتصاب فلسطين ، ومساندة اليهود في ذلك ، ولا يزالون يساندون هذه الدولة الجرثومة اليهودية التي زرعت في قلب العالم الإسلامي ، ويقفون وراءها في مجابهة المسلمين واغتصاب حقوقهم .

وفي أعقاب انتصار المسلمين على اليهود في حرب العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣هـ «جرى في البرازيل تجمع ديني في كنيسة (الكرنتي) فألقى القسيس وهو رئيس الكنيسة كلمة تؤيد حق اليهود في فلسطين ، وتهجم على رسول الله ﷺ وقال : إنه طرد اليهود من المدينة دون سبب ، وكيف أن المسلمين اليوم يعيدون الكرة ، فيقتلون اليهود في يوم الغفران ، ويتحسر على أولئك الضحايا الأبرياء ويدعو الجميع للتبرع بقوت يوم واحد لهم ، لينتصروا على الكفرة أتباع

(١) السابق ص٥٧، ٥٨ .

محمد ﷺ »[1] .

ولم يدخر النصارى ـ وهذه حالهم من الحقد والبغضاء ـ جهدًا في محاربة الإسلام ، ولم يفتهم بالطبع الاعتناء بالغزو الفكري واعتماده سلاحًا أصيلاً يحاربون به الإسلام وخاصة بعدما فشلت الحروب الصليبية وأيقنوا أنه لا سبيل للقضاء على الإسلام والتغلب على المسلمين طالما أن عقيدتهم حية في نفوسهم ، وتعاليمه باقية بينهم .

واتخذ النصارى وسائل كثيرة للغزو الفكري ـ سيجيء الحديث عنها[2] ـ وقد قاموا من خلالها بدور فعال في تسميم الثقافة الإسلامية وتشويهها ، وإفساد تفكير كثيرين من أبناء المسلمين وزعزعة معتقداتهم ، وإضعاف تمسكهم بالإسلام ، وحملهم على توقير الحضارة المادية الغربية الحديثة والسير في ركابها ـ وإن كانوا قد فشلوا فشلًا لا يُحسدون عليه في تنصير المسلمين أو إخراجهم من الإسلام كلية كما أرادوا .

ومن الوثائق التي لها دلالة في هذا الشأن الكلمة التي ألقاها صمويل زويمر[3] رئيس جمعيات التبشير في مؤتمر القدس عام ١٩٣٥م والتي يقول

---

(١) الإعلام الغربي المعاصر وأثره في الأمة الإسلامية . د/ يوسف محيي الدين أبو هلالة . ص١٩ مكتبة الرسالة الحديثة . عمان . الأردن . ط الأولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م . نقلاً عن مقال أحمد صالح محايري. المجلد الخامس من بحوث المؤتمر العالمي لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة ص٦٣ .

(٢) انظر : الباب الثاني .

(٣) كان أشهر المبشرين في مصر والعالم العربي ، وهو صاحب فكرة مؤتمرات التبشير ، وقد بدأ في البحرين عام ١٩٠١ ـ ١٩٠٠م تقريبًا . وانتقل منها إلى الإحساء ، ثم عاد إلى البحرين ، وكان يلقب نفسه بضيف [illegible] الذي يدعونه ضيف الشيطان ، وقد فتح أول أمره=

فيها :

أيها الإخوان الأبطال والزملاء ، ممن كتب لهم الجهاد في سبيل المسيحية واستعمارها لبلاد الإسلام ، فأحاطتهم عناية الرب بالتوفيق الجليل المقدس .

لقد أديتم الرسالة التي نيطت بكم أحسن الأداء ، ووفقتم لها أسمى التوفيق ، وإن كان يخيل إليَّ أنه مع إتمامكم العمل على أكمل وجه لم يفطن بعضكم إلى الغاية الأساسية منه ، إني أقركم على أن الذين أدخلوا من المسلمين في حظيرة

= حانوتًا في السوق لبيع الكتب المختلفة ، ثم تخصص بالتدريج في بيع الكتب التبشيرية ، وساعدته القنصلية الإنكليزية في بناء مدرسة ومستشفى ، وعني بالكتابة عن الإسلام وأذاع آراء المبشرين وشبهاتهم ، ومن أهم كتبه (الإسلام: ماضيه ، حاضره ، مستقبله) الذي دعا فيه أوروبا إلى إثارة حملة من الدعوة إلى الإقليمية في العالم الإسلامي لتمزيق وحدته الفكرية ، وخلق قضايا قومية ذات جذور تاريخية لتفريق الصف وسيادة النفوذ الاستعماري . (الإسلام في وجه التغريب . مخططات التبشير والاستشراق أنور الجندي. ص٩٩ ، دار الاعتصام القاهرة) .

يقول الأستاذ المجاهد " عبد الله التل " : وأعجب العجب أن يعلم القارئ بأن صموئيل زويمر هذا الذي كان يرأس مؤتمرات التبشير من أدنبرة في أقصى الغرب إلى لكنو في أقصى الشرق ، والذي قاد معارك التبشير طول ستين عامًا انتهت بهلاكه سنة ١٩٥٢ ، وقد كشف عن يهوديته الدفينة الراسخة في أعماق نفسه ، وذلك بأن طلب حاخاما يُلقنه في ساعاته الأخيرة أثناء احتضاره ، وقد أخبرني راهب من أصدقائي أيام معركة القدس ، أن الكنيسة تحتفظ بهذا السر المُذهل ، ولا تبوح به حتى لا تنكشف حيل اليهود الذين يتظاهرون باعتناق النصرانية ، وحتى لا يظهر إخفاق جمعيات التبشير التي تبذل الملايين عبثًا ، وتنخدع بمكر اليهود وخططهم الخبيثة لبث الفتن والبغضاء بين الإسلام والمسيحية . (جذور البلاء . ص ٢٢٨) .

وأوصى قبل موته بأن يدفن في مقابر اليهود . (واقعنا المعاصر ، محمد قطب . ص١٩٦ هامش . الناشر : مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر . جدة السعودية . ط الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م) .

المسيحية لم يكنوا مسلمين حقيقيين ، لقد كانوا كما قلتم أحد ثلاثة ـ إما صغير لم يكن له من أهله من يعرفه ما هو بالإسلام ، وإما رجل مستخف بالأديان لا يبغي غير الحصول على قُوته ـ وقد اشتد به الفقر وعزت عليه لقمة العيش ، وإما آخر يبغي الوصول إلى غاية من الغايات الشخصية ، ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ـ ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية ـ فإن في هذا هداية لهم وتكريمًا [1] ـ وإنما مهمتكم أن تُخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله ، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها ؛ وبذلكم تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية ، وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام وهذا ما أهنئكم عليه ، وتهنئكم دولة المسيحية والمسيحيون جميعًا من أجله كل تهنئة ، لقد قبضنا أيها الإخوان في هذه الحقبة من الدهر ـ من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا ـ على برامج التعليم في الممالك الإسلامية المستقلة ، أو التي تخضع للنفوذ المسيحي أو التي يحكمها المسيحيون حكمًا مباشرًا ، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير المسيحي والكنائس والجمعيات ، وفي المدارس الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوروبية والأمريكية ، وفي مراكز كثيرة ولدي شخصيات لا تجوز الإشارة إليها ، الأمر الذي يرجع الفضل فيه إليكم أولاً ، وإلى ضروب كثيرة

---

(١) لا عبرة بما يقوله زويمر من أن هدف الصليبيين لم يكن هو تنصير المسلمين ، ولا عبرة بتعليله السمج أن التنصير شرف لا يستحقه المسلمون ، فتلك محاولة منه لتغطية الفشل الذي لقيه المبشرون في عملية التنصير ، كما قال الثعلب حين عجز عن الصعود إلى كرمة العنب : إنه عنب حصرم !! السابق ص١٩٧ هامش .

من التعاون بارعة باهرة النتائج ، وهي من أخطر ما عرف البشر في حياته الإنسانية كلها .

إنكم أعددتم بوسائلكم جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد (إخراج المسلم من الإسلام) إنكم أعددتم نشأ لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها ، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تُدخلوه في المسيحية ، وبالتالي جاء النشء الإسلامي ، طبقًا لما أراده له الاستعمار لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل ، فإذا تعلم فللشهوات ، وإذا جمع المال فللشهوات ، وإن تبوأ أسمى المراكز ، ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء ، إن مهمتكم تتم على أكمل الوجوه ، وقد انتهيتم إلى خير النتائج وباركتكم المسيحية ورضي عنكم الاستعمار ، فاستمروا في أداء رسالتكم فقد أصبحتم بفضل جهادكم المبارك موضع بركات الرب»[1] . اهـ .

إن الغزو الفكري النصراني قد تسلل إلى كل صعيد ، وسار في كل اتجاه ـ كسابقه اليهودي ـ وغدا يضرب بجذور عميقة في العالم الإسلامي في وقتنا هذا ، ولا تزال معامله تنتج وتنشر ما تنتجه من الفكر المعادي للإسلام ، عبر وسائل رهيبة جبارة ، تحاصر المسلم أينما حل وأينما ارتحل ، صغيرًا كان أم كبيرًا ، ورجلاً كان أم امرأة ، وأحيانًا يُسفر عن وجهه الكالح ، وأخرى يتخفي وراء أقنعة .

وما من قضية أو دعوة مشبوهة أثيرت أو تثار في وجه الإسلام ، وداخل البلاد الإسلامية أو خارجها ، إلا وكان للمصدر النصراني فيها يد طولي ،

---

(١) جذور البلاء . عبد الله التل ص٢٧٥ـ٢٧٦ .

وسهم وافر في نشرها والترويج لها ، في غابر الزمان أو حاضره .

وهذا الغزو النصراني ترعاه دول ، وتسانده أنظمة ، وتفرضه ـ أحيانًا ـ حكومات وتخدمه أجهزة عاتية ماكرة في الداخل والخارج .

ومع هذا فنحن نعتقد أن هذا الركام من الباطل لا يمكن أن يثبت في وجه الحق ، إذا تحرك المسلمون وأخذوا بالأسباب وتوكلوا على الله في كل حال : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ ﴾ [الرعد:١٢] .

*****

ثالثا المصدر الإلحادي

وإذا كان اليهود والنصارى مصدر حرب للإسلام والمسلمين ، وكل منهما رافدٌ خطيرٌ من روافد الغزو الفكري المعادي لدعوة الإسلام ، وهم أهل كتاب ، وكان الأجدر بهم أن يُسارعوا إلى اتباع الرسول محمد ﷺ والانضواء تحت دعوته ، لا سيما وهم يعرفون رسول الله ﷺ كما يعرفون أبنائهم : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٤٦] . ولكنهم كانوا جاحدين ومعاندين وصادين عن الحق ، ولا يزالون !!

فما بالنا بالملاحدة الكفرة والمشركين ؟ !

لا شك أن محاربتهم لدعوة الحق تجري منهم مجرى الدم في العروق !

وأصل الإلحاد في اللغة : الميل عن الشيء والعدول عنه إلى غيره .

قال الراغب : «لحد : اللحد : حفرة مائلة عن الوسط ، وقد لحَد القبرَ : حفره كذلك ، وألحده وقد لحدْتُ الميتَ وألحدتُه في اللحد ، ويسمى اللحد ملحدًا وذلك اسم موضع من ألحدته» .

ولحد بلسانه إلى كذا : مال ، قال تعالى: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ ﴾ [النحل:١٠٣] . من لحَد، وقُرئ (يُلْحِدُون) من ألحد، وألحد فلان مال عن الحق.

والإلحاد ضربان : إلحاد إلى الشرك بالله ، وإلحاد إلى الشرك بالأسباب ، فالأول ينافي الإيمان ويبطله ، والثاني يوهن عُراه ولا يبطله .

ومن هذا النحو قوله : ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ . [الحج:٢٥]

وقوله : ﴿الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف:١٨٠] . والإلحاد في أسمائه على وجهين :

أحدهما : أن يوصف بما لا يصح وصفه به .

والثاني : أن يتأول أوصافه على ما لا يليق به .

والتحد إلى كذا أي : مال إليه ، قال تعالى : ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف:٢٧] . أي : التجاء أو موضع التجاء ، وألحد السهم الهدف : مال في أحد جانبيه (١) .

فالمصدر الإلحادي نسبة إلى الإلحاد ، وأعني به الكفر بالله ــ تعالى ــ سواء أكان هذا الكفر إنكارًا لوجود الله كلية ، أم إشراكًا مع الله ــ تعالى ــ فكلاهما ميل وعدول عن الإيمان الصحيح بالله ، وتوحيده ـ سبحانه .

ولقد كان هؤلاء الملاحدة الذين ينكرون الله كلية ، والذين يعبدون مع الله غيره ويقولون : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر:٣] . في مقدمة المعارضين لدعوات الأنبياء والمرسلين ، والمناهضين لكل داعٍ إلى الله ومن تبعه بإحسان ، وتاريخ الدعوة إلى الله حافل بمحاربتهم ومجابهتهم لها ، خاصة الحرب بالكلمة ، أو الغزو الفكري ، الذي نحن بصدده الآن .

ولقد كانوا يرددون شبهات وأباطيل توارثوها في كل عصر ، كأنما وصى بها

---

(١) المفردات ص٤٤٨ .

بعضهم بعضًا ، ومن هذا القبيل ما قصه الله علينا في كتابه ؛ إذ قال : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴾ .

[الذاريات:٥٢_٥٣]

وكان التشكيك سلاحًا متفقًا عليه فيما بينهم ، على اختلاف أعصارهم وأمصارهم ، هذا فضلاً عن الصد عن سبيل الله بالقوة ، والضرب بيد من حديد على كل من آمن بالله وباليوم الآخر .

ومنذ بعث الله ـ تعالى ـ رسوله محمدًا ﷺ : ﴿ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ ﴾ [الفتح:٢٨] . والمصدر الإلحادي مستمر في حملاته وتحامله على دعوة الإسلام ، حتى يوم الناس هذا .

ولا عجب ! فهؤلاء على الباطل وطبيعي أن ينحازوا لباطلهم ضد الحق ، ويظلوا في محاربته إلى قيام الساعة .

ولكن العجب أن يغفل المسلمون عن هذه الحقيقة ، ولا ينتبهوا إلى مخططات أولئك وكيدهم الدؤوب : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ ﴾ [البقرة:٢١٧] .

وأراني أقطع مراحل التاريخ ، وأطوي صحائفه ، وأتخطى أحقابه لأصل إلى عصرنا الحاضر ، ولأقف مع المصدر الإلحادي في هذا العصر .

فلقد غزت النظريات والمذاهب الإلحادية المسلمين في عصرنا ، وجدَّ ذووها واجتهدوا في بهرجة باطلهم وتزويق خرافاتهم حتى انطلت على البعض منا ،

وزعزعت إيمانه وذبذبت ولاءه لدينه ، وهزت ثقته في مبادئه وشرائعه .

وكان من صور الإلحاد ومن أخطر المذاهب الإلحادية التي تحارب الله ورسوله ، وتحاده في عصرنا «الشيوعية» .

وهي دعوة صريحة إلى الإلحاد ؛ إذ إنها قامت على أساس أن لا إله وأن الحياة مادة ، وقف أصحابها وأتباعها يعلنون في كل وادٍ ونادٍ ، إنكارهم لوجود الله ، وسخريتهم من الدين ، واستهزاءهم بالمتدينين .

وليس المجال هنا مجال تفصيل الحديث عن هذا المذهب وأسسه ونقضه وبيان زيفه ، ولكن الذي يعنيني في هذه العجالة الإشارة إلى موقف الشيوعية من الدين عامة ، والإسلام خاصة ، ثم دورها في الغزو الفكري الهدام .

وقد يعترض البعض على جعل الشيوعية ـ الآن ـ مصدرًا من مصادر الغزو الفكري المعادي ، له خطره كالمصدرين السابقين ؛ لأنه ـ في نظر هذا البعض ـ قد تلاشى خطر الشيوعية الآن ، بعدما دالت دولتها ، وانهيار ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي ، الذي كان حامي حماها ، وناشرها في كل مكان ، وظهور إفلاسها على الملأ .

والواقع أن هذا أمر لا ينكر ، فإن الشيوعية الآن وُضعت في موقف لا تُحسد عليه .

ومع هذا وغيره فالذي يظهر لي أن الشيوعية ما تزال أضرارها قائمة ، وما تزال مصدر خطر على الإسلام والمسلمين ، خاصة فيما يتعلق بناحية الغزو الفكري وذلك لأمور منها :

أ ـ أنه وإن كان الاتحاد السوفيتي الشيوعي قد انهار ـ نسأل الله أن يكون إلى الأبد ـ فإن هناك دولًا كبرى لا تقل خطورة عنه، ولا تزال تتبنى المذهب الشيوعي، وتدافع عنه، وتروج له، وتعمل على نشره، وتغزو به بلاد المسلمين وعقولهم، كالصين وغيرها.

ب ـ أن هناك العديد من الشيوعيين متنفذون ومُسْتَوْزَرون في بعض البلاد الإسلامية، ومنهم من يتحكم في أجهزة التوجيه والتعليم، كالإعلام والتربية والثقافة، ونحوها، وهم شيوعيون قلبًا وقالبًا، وبالإضافة إلى أضرابهم من الكتاب الشيوعيين الذين ينفثون سمومهم وينشرونها في هذه الصحيفة أو تلك، ويتبجحون بشيوعيتهم، وقد سمعت أحدهم يقف في ندوة جامعة في السنوات الأخيرة، يعلن أنه «يساري» أي: شيوعي.

وهناك أحزاب شيوعية عربية وغير عربية في بلاد العرب والمسلمين ما زالت تعلن عن وجودها كل يوم، ولها برامجها ومخططاتها وأنشطتها في المجتمعات العربية والإسلامية، بل إن هناك في بعض البلاد الإسلامية أنظمة شيوعية تتبنى الشيوعية جهارًا نهارًا وتوطد للفكر الشيوعي وتنشره، وتعمل على صبغ المجتمع به على كل صعيد.

وإن تعجب فعجب حال هؤلاء القوم وأولئك الذين يتمسكون بالشيوعية في بلادنا أكثر من تمسك أصحابها في بلادهم، ويعضون عليها، في حين تخلى عنها ذووها، وكأني بهم يشبهون أتباع شيطان، أسلم شيطانهم وهم في الغيّ والضلال سادرون [١]!

---

(١) السادر: المتحير وهو أيضًا الذي لا يهتم ولا يبالي ما صنع. مختار الصحاح مادة (س د ر).

ج ـ أنه لا يزال الإنتاج الفكري الكثير ، الذي نشر من قبل المصدر الشيوعي ، والذي يصطبغ بفلسفته ونظرته لا يزال موجودًا ومتداولاً ، ويفعل فعله ويترك آثاره في المسلمين مما يشكل امتدادًا أو رافدًا موجودًا لهذا المصدر .

هذا ، وإن موقف الشيوعية المعادي للدين عامة وللإسلام خاصة واضح لا يخفي ، أعلن عنه زعماؤها ، وتبجح به أتباعها في وقاحة وغرور .

«وبالرجوع إلى كتب هذا المبدأ ونشراته وأقوال زعمائه نجد أنه قد ورد في كتاب «سيرة لينين» [1] باللغة الإنجليزية صفحة ١٩١ طبعة ١٩٤٨ في فصل الحركات الحربية للشيوعية ما يلي : (ونحن نقول ـ والكلام إلى لينين ـ مؤكدين أننا لا نعتقد بالله ، وأننا نعلم حق العلم بأن الروحانيين والملاكيين ، كانوا يتكلمون باسم الله ؛ كي يروجوا أغراضهم الخاصة الاستثمارية) وجاء في مجلة «الشباب السوفياتي» في عددها الصادر ١٨ تشرين أول ١٩٧٤ : (نحن لا نستطيع أن نقف من الدين موقفًا محايدًا ، وإنما يتعين علينا أن ننشر الدعوة ضد الدين ، ومن واجب الشباب تحرير عقولهم من خرافة الدين ، فالدين كما علمتنا المبادئ الشيوعية عمل هدام» ، وتقول صحيفة «البرافدا» لسان الحزب الشيوعي في عددها الصادر يوم ٢٦ نيسان ١٩٤٩ : (نحن نؤمن بثلاثة : «كارل ماركس» ، «ولينين»، «ستالين» ولا نؤمن بثلاثة أشياء : الله ، والدين ، والملكية الخاصة) وقال «لينين» سنة ١٩٠٥ : (الدين هو أفيون الشعوب ، فالدين ورجل الدين يخدران أعصاب المظلومين الفقراء ، ويجعلانهم يرضخون للظلم) ، وقال في سنة ١٩٠٢ في الدين : (كلما تحررنا من نفوذ الدين ازددنا

---

(١) تأليف كاتب يُدعى (داوود شب) .

اقترابًا من الواقع الاشتراكي ، ولهذا تحررت عقولنا من خرافة الدين) ، وقال في سنة ١٩١٣ : (ليس صحيحًا أن الله ينظم الكون وإنما الصحيح أن الله فكرة خرافية ، اختلقها الإنسان ، ليبرر عجزه ، ولهذا فإن كل شخص يدافع عن فكرة الله هو شخص جاهل عاجز) . وقال «ستالين» سنة ١٩٢٨ : (يجب أن تقوم التربية في المدارس على أساس إنكار فكرة الله) ثم قال في سنة ١٩٣٧ : (يجب أن يكون مفهومًا أن الدين خرافة ، وأن فكرة الله خرافة وأن الإلحاد مذهبنا) وقال في سنة ١٩٤٤ : (نحن ملحدون ، ونؤمن أن فكرة الله خرافة نحن نؤمن أن الإيمان بالدين يعرقل تقدمنا)[١] .

وكتابات الشيوعيين ومواقفهم العملية تبرز بجلاء حقدهم الدفين وكراهيتهم الشديدة نحو الإسلام والمسلمين :

جاء في جريدة برافدا الرسمية ١٩٥٢/٨/٢٨ :

« إن عيد الأضحى يعتبر من مخلفات قرون بعيدة عنا ، فهو عدوٌّ للعمال يضر بمصالحهم[٢] ، لذا فقد وجب إلغاؤه ، فالشعب السوفياتي أنجز البرنامج العظيم ، للبناء الشيوعي ، ولا يمكن العودة إلى العادات والطقوس الدينية الرجعية ، التي ولدت يوم كان الإنسان ضعيفًا أمام قوة الطبيعة ، التي كان يستسلم إليها اعتقادًا منه بأن هذه الأعمال السحرية تساعد على التودد إلى

(١) فتاوى عن الشيوعية . د/ عبد الحليم محمود . ص٣٤ــ٣٦ . دار المعارف . مصر . ط الثانية .

(٢) هناك نسبة كبيرة بين هذا الهراء وبين ما أعلنه رئيس إحدى الدول العربية ، وهو اشتراكي من أنه لا داعي لفريضة الحج ؛ لأنها تضيع أوقات المسلمين ، وكان هذا منذ سنوات وقد تناقلته وسائل الإعلام في حينها .

الأرواح الشريرة ؛ لكي يضمن نمو زرعه وضرعه »[1] .

وجاء في دائرة المعارف السوفيتية ، لدى التعريف بالقرآن الكريم :

(القرآن ، الكتاب المقدس الأساسي للمسلمين .. مجموعة من المواد الدينية المذهبية والأسطورية القانونية ، وقد وضع القرآن ، وشرع خلال حكم ثالث الخلفاء العرب «عثمان» ثم أدخلت عليه فيما بعد ، حتى بداية القرن الثامن ... وفق ما بلغنا من معلومات ـ بعض التغييرات ، ووفقًا للتراث الإسلامي للتاريخ الديني ، ويعتبر محمد هو مشرع القرآن ، كما يعتبر مؤسس الإسلام ، على أنه وفقًا للتحليل الموضوعي للقرآن ، هناك نظرية تقول : إن جزءًا معينًا منه ينتمي لعصر محمد ، أما الأجزاء الأخرى من هذه المجموعة ، فلا بد أنها تنتمي لعصور متقدمة أو متأخرة عنه ، يمكن أن يتبين هذا من وجود عدد من الأساليب المختلفة في القرآن ، يمكن أن تعزى لتطور اللغة العربية ، ولزمن ظهور السور ومكانها ، وتستخدم الطبقات الاستغلالية القرآن ورجال الدين الإسلامي الرجعيين ، سلاحًا لخداع الجماهير الكادحة وكبحها)[2] .

ولقد عانى المسلمون من بطش الشيوعيين الأمرار ، وصُبّ عليهم من العذاب ما يذيب الجبال ، ويشيب من هوله الولدان .

« إن الشيوعيين يعبدون هذه الدنيا ، ويرونها وجودها الأوحد .. وهم

---

(١) الإعلام الشيوعي المعاصر وأثره في الأمة الإسلامية . د/يوسف محيي الدين أبو هلالة (ص٢٣، ٢٤) مكتبة الرسالة الحديثة . عمان . الأردن ط . الأولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م . نقلاً عن ياسين صادق ، ٧أشهر في الاتحاد السوفيتي ص٢٦ .

(٢) السابق (٢٦، ٢٧) . نقلاً عن دائرة المعارف السوفيتية ، جـ١٢ ص٥٦٤ . نشرتها باللغة العربية وكالة نوفستي للأنباء في موسكو .

يرون أعداءهم وكأنهم عوائق دون ثروات يجب أن يستمتعوا بها ، وخيرات يجب أن يضعوا أيديهم عليها .. ومن ثم ترى الواحد منهم يقاتل وكأنه يسترد حقًّا شخصيًّا سلب منه ، فمن وراء قتاله نهمة للحياة لا تشبع ، وثأر عند الآخرين لا يهدأ ..

فإذا كان الإسلام ينتصب سدًّا أمام هذه المآرب ، وإذا كان المسلمون يشكلون باسم دينهم مجتمعًا أبعد ما يكون عن هذه الأفكار ؛ فهيهات أن يلقوا من الشيوعيين مهادنة أو رحمة .

وذلك ما وقع في أسلوب تقشعر منه الجلود [١] .

ونشرت صحيفة «تن بات باو» في هونج كونج في عددها الصادر في ١١ أكتوبر ١٩٦٦ جاء فيه :

«يا رجال الحرس الأحمر المقاتلين : إنكم تقومون بعمل حسن . واصلوا عملكم وأنتم مكافحون ضد « البرجوازية والإقطاعيين » الذي مصوا دماءنا وأكلوا لحمنا وعظمنا ، والآن جاء دورنا لامتصاص دمهم وأكل لحمهم .

يا رجال الحرس الأحمر : لا يمكن أن ندع عدوًّا من أعدائنا يهرب ، وعلينا من الآن فصاعدًا أن نهاجم أكثر الأعداء تخفيًا ـ المسلمين ـ الذين يقومون بنشاط ضد الحزب وضد الصينيين تحت قناع الدين المزعوم .

---

(١) الإسلام في وجه الزحف الأحمر . محمد الغزالي ص١٢٣ . الناشر . مكتبة وهبة . القاهرة . ط الثامنة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م . ويراجع منه فصل «المسلمون في الاتحاد السوفيتي» (ص٩٩ ـ ١٣٤) حيث تحدث عن صور من اضطهاد المسلمين هناك ويراجع في هذا الموضوع كذلك : الإعلام الشيوعي المعاصر .

ويختبئ أولئك المسلمون في الجوامع وبتوجيه من الاستعماريين .

كما تسيطر عليهم الدول الأجنبية ضد بلادنا وشعبنا العظيم وزعيمنا الجزيل الاحترام الرئيس « ماو »[(١)] .

من الآن فصاعدًا لن يسمح لكم بأن تضعوا قناعكم الديني على وجوهكم، سنطردكم وندمركم ومن اليوم فصاعدًا لن يسمح لكم أن تأكلوا لحم الأبقار ؛ لأن الأبقار تخدم الشعب .. يجب أن تأكلوا لحم الخنازير .

ولا يمكنكم من الآن فصاعدًا أن تضيعوا وقتكم في الصلاة .

يجب ألا تتكلموا اللغة العربية التي هي ضد اللغة الصينية .

ولن يسمح لكم بأن تقرؤوا ما يسمى بالكتاب المقدس «القرآن» .

اسمعوا أيها المسلمون .. دمروا جوامعكم !! حلوا المنظمات الإسلامية ، أحرقوا القرآن .. !

الغوا الحظر الذي وضعتموه على الزواج المشترك[(٢)] ، كفوا عن الصلاة ..

---

(١) هو ماو تسي تونغ ، سياسي صيني ١٨٩٣ــ١٩٧٦ ، اعتنق المذهب الماركسي وبشر به في بلاده ، وألب الأنصار حوله للاستيلاء على الحكم ، وأنشأ جيشًا مخلصًا لمبادئه ، واحتل بعض الأقسام من الصين ، حيث انتخب رئيسًا للجمهورية السوفيتية الصينية عام ١٩٣١ ، وأعلن تأسيس الجمهورية الشعبية الصينية في أول تشرين الأول سنة ١٩٤٩م ، وانتخب رئيسًا لها عام ١٩٥٤ ، مع محافظته على أمانة سر الحزب ، فبدل أنظمة البلاد ، وأقامها على أسس مستوحاة من الشيوعية العالمية ، وظل مسيطرًا على مقدرات الصين إلى وفاته عام ١٩٧٦ . المعجم الأدبي ، تأليف : جبور عبد النور ، ص٤٤١ . دار العلم للملايين . بيروت . الطبعة الثانية ١٩٨٤م .

(٢) هذه العبارة «الزواج المتشرك» هي : التعبير اللطيف الذي وضعته المدنية الحديثة للزنى ، فاتصال المرأة بجملة رجال زواج مشترك ، واتصال الرجل بجملة نساء متزوجات أو =

الغوا الختان ، ادرسوا أفكار « ماو » .

إذا لم تندموا سنطردكم وندمركم .. يجب أن نسحق جحور الجرذان الدينية ، وندمرها معكم .

فلتحيا الثورة الثقافية الكبرى .

فليحيا طويلاً طويلاً الرئيس « ماو »[١] .

ولقد كان للإلحاد الشيوعي ـ ولا يزال ـ دور كبير في الغزو الفكري المعادي للإسلام في عصرنا هذا ، وقد عمل على صعيدين ، أحدهما داخلي ، والآخر خارجي ، فلقد عمل على طمس معالم الدين ، ومحو الهوية الإسلامية لدى المسلمين في كل مكان كان لهم عليه سيطرة ونفوذ ، ولم يتورعوا عن استخدام أخس الوسائل ، وأقذر الأسباب للوصول إلى ما يرمون ، وكانوا جادين في محاربة الإسلام في الداخل ، ويزعمون أنه فكر ضار بالشعب ، يجب إصلاح العناصر التي تحمله ، وإرجاعهم عنه بأي وسيلة .

وقد افتتحت الدراسات المختلفة ، لإعداد مناضلين ملحدين ، وكلفتهم الدولة الملحدة بعد التخرج من هذه الدراسات ، بالواجبات التالية :

أ ـ إعداد كتب تحارب الدين ، تقرر إجباريًّا في المدارس ، وإعداد مسرحيات تهاجم الدين الإسلامي ؛ لتمثيلها في المسرح والسينما .

ب ـ تلقين الأطفال المسلمين تربية إلحادية .

= غير متزوجات كذلك ، والمطلوب من المسلمين أن يرفعوا الحظر الذي فرضوه على هذا الزواج ؛ كي يرضي الحرس الأحمر ! . الإسلام في وجه الزحف الأحمر . ص٣٨ .

(١) السابق ص٢٧، ٢٨ نقلاً عن مجلة الوعي الإسلامي .

ج ـ تنظيم المحاضرات والمناظرات والمعارض الإلحادية ، والتطواف بها في كل أنحاء البلاد ، بهدف إثبات عدم وجود الله سبحانه وتعالى .

د ـ إذاعة البرامج المختلفة في إذاعة ضد الدين .

هـ ـ جمع كل الكتب الدينية وإتلافها .

و ـ النضال ضد رجال الدين ، وضد المتدينين ، واعتبار الإسلام خارجًا على القانون ومنه التعليم الديني وإقامة العبادات ، وإغلاق المدارس الدينية والمساجد .

ز ـ إقامة الولائم ظهرًا في نهار رمضان لمراقبة الشيوعيين المحللين والتأكد من موقفهم من الدين .

ح ـ إلصاق الملصقات على جدران المدن والقرى ، التي تحمل العناوين التالية : **«الدين أفيون الشعوب»** ، **«الإسلام في خدمة الاستعمار»** ، **«الإسلام ضد العلم»** ، **«الإسلام اختراع أغنياء العرب»** ، **«العادات الدينية تفسد النظام الاقتصادي»** [1] . والشيوعيون جادون في الدعاية لمذهبهم الإلحادي وطروحاته الفكرية ، في العالم كله ، وخاصة في دول العالم الإسلامي ، ولهم في هذا المضمار جهود ضخمة .

وقد أحصى الدكتور إبراهيم دسوقي أباظة منشورات الشيوعيين في العالم كله وأشار إلى أنها تحتل المركز الأول في إنتاج الكتاب :

(٣.٧ مليون كتاب يوميًا أي : ما يوازي ربع إنتاج العالم) ، بما يساوي

---

(١) الإعلام الشيوعي المعاصر ص٧٨ نقلاً عن عيسى يوسف الب تكين ، قضية تركستان الشرقية ، ترجمة إسماعيل حقي ص١٧١ـ١٧٢ .

٢٥٠٠ نسخة في الدقيقة ، وأن مؤلفات لينين تحتل المكان الأول ، بلغ مجموع نسخها ٢٣٠ مليون نسخة صدرت بحوالي ٩٨ لغة من لغات شعوب السوفييت إلى عشرات الملايين من الترجمات باللغات الحية [(١)] .

كذلك فقد كشف الباحثون عن مخططات خطيرة للدعاية الشيوعية في دول العالم الإسلامي تقوم على إستراتيجية دقيقة في الدعاية ، وتتطور وتبدل بين آن وآخر ؛ لتتلاءم مع ظروف المجتمعات ، ولكنها تقوم في أصولها ومضامينها على نفس المقومات التي رسمها ماركس ولينين ، وتأخذ طريقها عن بواسطة الصحيفة والكتاب والمنشور والكلمة المسموعة، وتدور المضامين كلها حول الفردوس المزعوم أو الشيوعية .

وأبرز مضامين الإعلام الشيوعي في البلاد الإسلامية :

أولا : الحياد المصطنع بالنسبة للدين ، وقد حدث تحول ظاهري خادع ، فبعد أن كانت الأديان في الدعوة الماركسية أفيون الشعوب أصبح يقال الآن : إنه لا تعارض بين الشيوعية والإسلام ، بدعوى أن كليهما يسعى إلى هدف واحد ، أو الادعاء بأن الإسلام ثوري .

ثانيًا : محاولة تحييد الدين الإسلامي بإبعاده عن دائرة المقاومة للغزو الماركسي ، وخاصة بعد أن انتكس هذا الغزو مؤخرًا في العديد من الأقطار الإسلامية .

ثالثًا : اتجاه الإعلام الشيوعي إلى هدم القيم الإسلامية ، حيث تلمِّح كتابات

---

(١) هزيمة الشيوعية في عالم الإسلام . أنور الجندي ، ص٥١ ، دار الاعتصام .

الشيوعية بخواء هذه القيم وعدم تلاؤمها مع روح العصر ومتطلباته .

رابعًا : التشهير بالتعاليم الإسلامية وإفراغها من مدلولاتها الحقيقية .

خامسًا : التبسيط الساذج لمشاكل العالم الثالث بطرحها في قوالب ماركسية توحي للملاحظ العادي بسلامتها وصدقها .

سادسًا : تقديم السموم الاشتراكية في أشكال براقة تستأثر بالعواطف وتطرح الحلول في قوالب جاهزة ، تفرض على العقل المادي سلطانها ، وقد ركب الشيوعيون كل تيار يؤدي إلى خدمة أغراضهم ، حتى ولو كان مصادمًا لجوهرها ، فركبوا تيار القومية وأداروه لحسابهم ؛ وركبوا تيار الاشتراكية غير العلمية وسخروها لأهدافهم ، وتعاطفوا مع الأقليات الانفصالية .

سابعًا : المحاولات التي بذلها رواد الإعلام الشيوعي بقصد الحيلولة دون تعرف إنسان العالم المتخلف بحقيقة الدعوة الشيوعية ، وقطع الطرق وسد المنافذ حتى لا يصل إلى حقيقة التجارب الشيوعية في بعض الدول ، وتستهدف كل هذه المخططات تذويب الفكر الإسلامي في بوتقة الشيوعية اليهودية مما يستدعي اليقظة والتصدي لها والكشف عن زيفها [1] .

إن الإسلام سيظل هدفًا للملاحدة ، وسيبقى كذلك الصخرة العاتية التي تتحطم عليها معاولهم ، فعلى المسلمين أن يتذكروا هذا دائمًا ، وهو يواجهون تلك الحملات المسعورة ، حتى يزدادوا ثقة ، وعليهم ألا يتواكلوا ويضعفوا في

---

(١) السابق (٤٩، ٥٠) وهناك وثيقة تفضح مخططات الغزو الفكري الشيوعي ذكرها الشيخ محمد الغزالي في كتابه « الغزو الثقافي يمتد في فراغنا » ص١٢٢ـ ١٢٩ . دار الصحوة للنشر . القاهرة ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م .

مواجهة أعدائهم ، بل يجب أن يعدوا العدة ويأخذوا بالأسباب ويستعينوا بالله ، ويعقدوا العزم على نصرة الحق، والدفاع عنه ، والله لا شك ناصرهم :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد:٧] .

*****

المبحث الثاني

أهداف الغزو الفكري

وقد يتساءل المرء : ماذا يريد هؤلاء ، وإلى أي شيء يهدفون ؟

وتنوعت إجابات الباحثين ، وتعليلاتهم لتلك الهجمات من قبل المصادر التي سبقت الإشارة إليها في الفصل السابق .

وأود أن ألفت النظر إلى حقيقة قائمة ، تساعد في التعرف على أهداف الغزو الفكري والعسكري ، وأي عمل مضاد من جانب أولئك الخصوم .

تلك أن الله تعالى اقتضت حكمته ، أن يكون في الدنيا حق وباطل ، وأن الصراع لا يهدأ بينهما ، والعداوة قائمة ومستمرة بين أتباعهما ، وكان هذا منذ أن أهبط آدم وزوجه من الجنة ، وُوُجِّهَ ليباشر القيام بمهام الخلافة في الأرض ، وهو أيضًا كائن إلى قيام الساعة .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ .

[طه:١١٦، ١١٧]

ثم كان من أمر هذا العدو مع أبينا آدم من وسوسة وإغراء ، وغواية وإضلال ، ثم توبة الله على أبينا آدم ، إلى أن أهبطا إلى الأرض .

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [طه:١٢٣] أي : آدم صاحب الحق وإبليس صاحب الباطل .

«ولن تخلو الأرض من حق وباطل معًا ، ولن تكون حياة الإنسان إلى الهداية خالصة ، أو الضلال خالصًا .

ولن ينصرف الشيطان عن عمل الغواية والإغراء والعبث والفساد .

فالإنسان ليس مخيرًا بين الهداية والضلال ، بل هو مطالب بالوقوف إلى جانب الهداية لنصرة الحق .

والشيطان ليس مخيرًا في الانصراف عن الإغواء والإضلال ، بل ألزم نفسه بالتحدي في الإغواء والإضلال ، وقبل منه رب السماوات والأرض هذا التحدي ، منذ أن أرجأه إلى يوم البعث أي : طيلة وجود الإنسان في حياته الأرضية ، والإغواء والإضلال مقدر على الشيطان وضرورة في وجوده لا يمكنه التخلف عنه »[1] .

تلك حقيقة واقعة ، تتصل بها أخرى تتمثل في أن دين الإسلام هو الحق الذي لا مرية فيه ، وأن ما عداه من أديان هو الباطل الذي لا شك فيه .

وإذا كان ذلك كذلك ؛ فإن الخصوم هم أهل باطل جمعهم العداء للحق ، ووحدهم البغض للإسلام ، ودفعتهم الضغائن نحوه للقضاء عليه ، وتفريق الناس عنه ، والكيد لأتباعه .

فالأهداف الأولى والنهائية لِكهَنة الإلحاد العالمي ـ على اختلافهم ـ من وراء غزوهم الفكري المعادي ، لا تخرج عن رغبة جامحة ، في القضاء على الإسلام

---

(١) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر ، مشكلات الحكم والتوجيه ، د/ محمد البهي (ص١٧) مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط الثالثة (١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢م) .

والصد عنه ، وإخراج أهله منه .

ولا ينكر أن هناك أهدافًا أخرى مادية ، اختلطت مع هذا الهدف ، لكنها لا يمكن أبدًا أن تتقدمه أو تبرز لتزاحمه ، بل إن تحقيق تلك الأهداف المادية ونحوها مرتبط أشد الارتباط بالهدف الرئيس ، وهو القضاء على الإسلام والصد عنه ، وإخراج أهله منه .

ويسمع المرء - في بعض الأحيان - أصواتًا تنبعث من هنا وهناك ، منكرة هذا الذي تقرر فيما يتعلق بأهداف الخصوم ، ومراميهم ، ومواقفهم من الإسلام والمسلمين ، بل منكرة الاعتراف بأنهم فعلًا خصوم وأعداء !

ويبدو أن مثل هذا الإنكار والرفض لوجود مخططات ترمي للقضاء على الإسلام والمسلمين ، ونحوه ، لا يمكن أن يصدر إلا عن أحد ثلاثة :

إما عن جهول ، حجبته أغطية الجهل عن معرفة هذا الواقع .

وإما عن ضحية من ضحايا الغزو الفكري .

وإما عن ماكر هو نفسه وسيلة من وسائل التمكين للغزو الفكري .

وإذا أردنا التماس الأدلة على ذلك ، لوجدناها يسيرة دانية ، وأكتفي منها بالنزر اليسير الذي يؤكد هذا الهدف .

وإذا اتجهنا إلى القرآن الكريم ، فإننا نجد توكيدًا لهذا الأمر ، فعلى سبيل المثال لا الحصر ، يقول الله تعالى : ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ

أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

[البقرة:٢١٧]

وقال ﷻ : ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ ﴾ [النساء:٨٩] .

وقال سبحانه : ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة:٥٩] .

وقال جل شأنه : ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴾

[آل عمران:٩٨]

وقال سبحانه : ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [البقرة:١٣٥ ـ ١٣٧] .

وقال سبحانه : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣٢، ٣٣] .

فهل يماري أحد بعد هذه النصوص المعصومة ؟!

ولقد صدق الله ، فرأينا من أحوالهم وسلوكياتهم ما يبرز أهدافهم ، وليس هذا فقط ، بل اعترفوا وصرحوا بما يفضح دسائسهم ، ويكشف سرائرهم ،

ويظهر خبيئاتهم .

وها هي ذي طائفة من أقوال زعمائهم ، على اختلاف مذاهبهم وأجناسهم ، صريحة لا تحتاج إلى تفسير ، أو تأويل ، أذكرها من باب «وشهد شاهد من أهلها» ، وليس لأني أود أن أستظهر على صواب رأيي بكلام هؤلاء الأعاجم بعد كلام الله ، بل لأن كثيرًا من الناس يقدسون كل ما يصدر عن الأوربيين فكان من باب الإلزام لهم بالحجة التي يخرون عليها صُمًّا وعميانًا :

يقول المبشر «و.هـ.ت جايردنر» :

إن مشكلة الإسلام هذه لا يمكن أن نغفلها ببساطة ـ ليست حتى في مواجهة الأوضاع العاجلة بطريق لا يمكن وصفها ، والتي تواجهنا في الشرق الأقصى ، وهذه أولًا ؛ لأن الإسلام على أبوابنا ، فمن أقصى الساحل الشمالي الإفريقي يواجه أوروبا ، إنه فعلًا يلمسها ، ويمكن القول : إنه يمسكها من طرفي البحر المتوسط عند أعمدة هرقل وعند القسطنطينية ، وثانيًا : لأنه مشكلة أساسية مركزية أيضًا ، فكروا في تلك الكتلة المركزية لعالم الإسلام الصلب من شمال أفريقيا إلى غرب ووسط آسيا ! إنه كإسفين ثابت يحجب الغرب المسيحي عن الشرق الوثني ، وأريدكم أن تدركوا أيها الآباء والإخوة أنه لو حلت مشاكلنا مع يابنيينا وكورييننا وصينيينا ومنشورييننا وهنودنا ، ولو واجهنا أزماتهم الحالية في سعادة وتغلبنا عليها ، وأضفنا شرق أقصى مسيحي إلى الكنيسة ، فإن ذلك الوتد «الخازوق» الغريب عنا والمعادي لنا ، الغير منسجم أو متعاطف ، سيقطع العالم النصراني الشرقي الغربي كلية إلى نصفين ،

فاصلًا الاثنين عازلًا لهما عن بعضهما ، مظهرًا ـ للرب والإنسان ليس فتقًا فحسب ، بل صدعًا من القمة إلى القاع في ثوب الكنيسة العظيم ـ بل في ثوب الإنسانية ككل ، التي لولا الإسلام لانتصر عليها المسيح ، فحقًّا لذلك يجب ألا نؤجل مشكلة الإسلام ، إنها مشكلة اليوم كما رأينا ، فليكن نفس «اليوم» على هذا ، هو يوم الحل والخلاص [(١)] .

خرج مسؤول فرنسي في وزارة الخارجية سنة (١٩٥٢) قال :

ليست الشيوعية خطرًا على أوروبا فيما يبدو لي ، فهي حلقة لاحقة لحلقات سابقة ، وإذا كان هناك خطر فهو خطر سياسي عسكري فقط ، ولكنه ليس خطرًا حضاريًّا تتعرض معه مقومات وجودنا الفكري والإنساني للزوال والفناء .

إن الخطر الحقيقي الذي يهددنا تهديدًا مباشرًا عنيفًا هو الخطر الإسلامي ، فالمسلمون عالم مستقل كل الاستقلال عن عالمنا الغربي ، فهم يملكون تراثهم الروحي الخالص ، ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة ، فهم جديرون أن يقيموا بها قواعد عالم جديد ، دون حاجة إلى «الاستغراب» أي : دون حاجة إلى إذابة شخصيتهم الحضارية والروحية بصورة خاصة في الشخصية الحضارية الغربية [(٢)] .

---

(١) الوثيقة الإسلام الخطر ، نص الخطاب الذي ألقاه : و .هـ.ت . جاير دنر في مؤتمر أدنبرة للتبشير «التنصير» المنعقد بالقاهرة عشية السبت (١٨) يونية (١٩١٠م) ، محمود الشاذلي (ص١٨، ١٩) المختار الإسلامي ، القاهرة ، وجاير دنر منصر «مبشر» بريطاني ، كان من أبرز نجوم الشر في المؤتمر المذكور .

(٢) معالم التاريخ الإسلامي المعاصر من خلال ثلاثمائة وثيقة سياسية خلال «القرن الرابع عشر الهجري» ، أنور الجندي (ص١١٣) ، دار الاعتصام .

قرار المؤتمر الاستعماري في برلين (١٩١٠) :

إن ارتقاء الإسلام يتهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم ، لذلك فإن المؤتمر الاستعماري ينصح للحكومة بزيادة الإشراف والمراقبة على أدوار هذه الحركة ، والمؤتمر الاستعماري يشير على الذين في أيديهم زمام المستعمرات أن يقاوموا كل عمل من شأنه توسيع نطاق الإسلام ، وأن يزيلوا العراقيل عن طريق انتشار التبشير [١] .

ويقول « بِنْ جوريون » [٢] :

إن كبت المسلمين وتصفيتهم شرط ضروري للتفاهم والتعامل مع العرب ، لأن عقلياتهم المتعصبة «أي : تمسكهم بالحق ومقارعتهم للباطل بما يفرضه الإسلام» تشكل أكبر عقبة في طريق السلام [٣] .

ويقول أيضًا :

إن أخشى ما نخشاه أن يظهر في العالم العربي محمد من جديد [٤] .

نرى الزعيم الشيوعي «كاسترو» الكوبي ينصح زعماء إسرائيل فيقول لأحدهم :

«يجب على إسرائيل ألا تترك حركات الفداء الفلسطيني تتخذ طابعًا إسلاميًّا ؛

---

(١) السابق (ص١٣٣) .
(٢) رئيس وزراء العدو الصهيوني الأسبق .
(٣) المصدر السابق (ص١١٧) .
(٤) دور المسلمين في الحياة د/ توفيق الواعي (ص٣٦) نقلًا عن «الخائفون من الإسلام» (ص٤٠) ، ومعركة الإسلام (ص٤٤) .

لأن اكتساب هذه الحركات هذا الطابع العقائدي سيجعل منها شعلة من الحماس الديني سيستقطب جماعات إسلامية أخرى ، مما يجعل من المستحيل على إسرائيل أن تصون كيانها ، وعلى إسرائيل أن تسعى لجعل دولة عربية في جوارها دولة اشتراكية الجذور ، فإن منتهى المطاف لأية حركة مقاومة عربية ذات طابع اشتراكي هو التعايش السلمي الاشتراكي العربي مع الاشتراكية الإسرائيلية» [١] .

وهذا مؤلف كتاب «العالم العربي المعاصر» موربيرجر يقول :

« إن الخوف من العرب واهتمامنا بالأمة العربية ليس ناتجًا عن وجود البترول بغزارة عند العرب ، بل بسبب الإسلام ، يجب محاربة الإسلام للحيلولة دون وحدة العرب التي تؤدي إلى قوتهم ؛ لأن قوة العرب تتصاحب دائمًا مع قوة الإسلام وعزته وانتشاره » [٢] .

ويقول آخر :

«كان قادتنا يخوفوننا بشعوب مختلفة ، لكننا بعد الاختبار لم نجد مبررًا لتلك المخاوف ، كانوا يخوفوننا بالخطر اليهودي ، والخطر الياباني ، والخطر البلشفي، لكنه تبين لنا أن اليهود هم أصدقاؤنا ، والبلاشفة الشيوعيين حلفاؤنا ، وأما اليابانيون فإن هناك دولًا ديمقراطية كبيرة تتكفل بمقاومتهم ، لكننا وجدنا أن الخطر الحقيقي علينا موجود في الإسلام ، وفي قدرته على التوسع والإخضاع ،

---

(١) السابق (ص٣٦) ، نقلًا عن معركة الإسلام للصواف (ص٢٠٣) .
(٢) السابق (ص٣٧) .

وفي حيويته المدهشة [١] .

ولقد قرأنا لبعض دعاة التبشير الغربي قولهم : لقد حرصت أوروبا بمختلف الوسائل على تحطيم قيم الثقافة العربية واللغة العربية والدين والتراث في نفوس الشرقيين والمسلمين والعرب بمختلف الوسائل ، وزعزعة العقائد ؛ وذلك لتدمير هذه القوة الروحية الضخمة التي تكونت لهم في الشرق ، وكانت عاملًا ضخمًا في منحهم القوة على مقاومة كل استعمار ومواجهة كل ظلم» [٢] .

قال راديو إسرائيل (٨ أيلول ١٩٧٨) :

إن أخطر ما يتهدد مستقبل إسرائيل هو استيقاظ الروح الإسلامية من جديد .

إن على اليهود وأصدقائهم أن يدركوا أن الخطر الحقيقي الذي يواجه إسرائيل هو خطر عودة الروح الإسلامية إلى الاستيقاظ من جديد ، وأن على كل المحبين لإسرائيل أن يبذلوا كل جهودهم لإبقاء الروح الإسلامية خامدة ؛ لأنها إن اشتعلت من جديد ، فلن تكون إسرائيل وحدها في خطر ، ولكن الحضارة الغربية ستكون في خطر [٣] .

ويقول لورانس براون :

وإذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرًا وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضًا ، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون

---

(١) السابق (ص٣٧) .
(٢) معالم التاريخ الإسلامي المعاصر (ص١٦٩) .
(٣) السابق (ص٣٠٩) .

حينئذٍ بلا قوة ولا تأثير [١] .

وتقول مجلة العالم الإسلامي الإنجليزية :

«إن شيئًا من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربي ، ولهذا الخوف أسباب منها : إن الإسلام منذ أن ظهر في مكة لم يضعف عدديًّا ، بل دائمًا في ازدياد واتساع ، ثم إن الإسلام ليس دينًا فحسب ، بل إن من أركانه الجهاد ، ولم يتفق قط أن شعبًا دخل في الإسلام ثم عاد نصرانيًّا» [٢] .

يقول «توماس بين» أحد المستشرقين الأمريكيين في مقدمة كتابه «السيف المقدس» بعد أن يشرح لقرائه نبذة عن تاريخ الإسلام وفتوحاته الواسعة : قد تغير الحال اليوم ، وأصبح المسلمون في قبضة أيدينا ، ولكن ما حدث مرة يمكن أن يحدث مرة أخرى ، وإن الشعلة التي أوقدها محمد ﷺ في قلوب أتباعه لهي شعلة غير قابلة للانطفاء [٣] .

ويقول المؤرخ الإنجليزي «توينبي» في محاضرة بعنوان «الإسلام والغرب» :

إن الإسلام يمكن أن يتولى زعامة الدول البروليتارية [٤] مرة أخرى إذا

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، د/ محمد البهي (ص٥٢٥) ، نقلًا عن : الإسلام والإرساليات ، لورانس براون (ص٤٤ـ ٤٨) .

(٢) السابق (ص٥٢٦) نقلًا عن المجلة المذكورة ، عدد (يونية ١٩٣٠) تحت عنوان «الجغرافيا السياسية للعالم الإسلامي» .

(٣) واقعنا المعاصر ، محمد قطب (ص٣٠٠) .

(٤) الدول البروليتارية : هي الدول الواقعة تحت سيطرة الغرب أو ما يسمى في مصطلح هذه الأيام «دول العالم الثالث» .

تهيأت الظروف [١] .

ويقول «غلادستون» [٢] :

«ما دام هذا القرآن موجودًا فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق ، بل ولا أن تكون هي نفسها في مأمن » [٣] .

وكذلك فالمسيو كيمون يعتقد أن «الإسلام جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكًا ذريعًا ، بل هو مرض مريع وشلل عام ، وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمول والكسل ، ولا ينقذه منهما إلا ليسفك الدماء» ، وهو يرى المسلمين وحوشًا ضارية ويعتقد أن الواجب إبادة خمسهم ، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة ، وتدمير الكعبة ، ووضع ضريح «محمد» في متحف اللوفر [٤] .

وقال وليم جيفور بلجراف :

«متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب ، يمكننا حينئذٍ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة «يعني : الحضارة المسيحية» التي لم يبعده عنها

---

(١) السابق (ص٣٠٠) .

(٢) جلادستين اسمه ويليام إيوارت : سياسي بريطاني ، تزعم حزب الأحرار (١٨٦٨ ــ ١٨٩٤م) ، برع في الخطابة والشؤون الاقتصادية ، في عهد وزارته احتلت بريطانيا مصر عام (١٨٨٢م) ، مذكرات السلطان عبد الحميد ، تقديم وترجمة د/ محمد حرب ، (ص٢٧٣) ، عن حواشي المترجم ، دار القلم ، دمشق ، ط الثالثة (١٤١٢هـ ــ ١٩٩١م) .

(٣) الغزو الفكري أهدافه ووسائله ، عبد الصبور مرزوق (ص١٥) .

(٤) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، د/ محمد محمد حسين (جـ١) (ص٣٤٩) ، مؤسسة الرسالة بيروت ط الرابعة ، (١٤٠٤هـ ، ١٩٨٠م) .

إلا محمد وكتابه »[١] .

ويقول ألفريد كانتول سميث :

إن الغرب يوجه كل أسلحته الحربية والعلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية إلى العالم الإسلامي بغرض إذلاله وتحقيره ، وإشعاره بالضآلة والخنوع ، وإن الغرب وقف في صف الصهيونية ضد العرب والمسلمين متأثرًا بتلك العداوة القديمة بين المسيحية والإسلام[٢] .

ولما توجهت إيطاليا لاستعمار «طرابلس» كان النشيد الطلياني يحث على قتال المسلمين ومحو القرآن ، مما يبين أن الهدف ليس ماديًّا ، وإنما هو حرب الإسلام بالدرجة الأولى ، وها هو ذا النشيد الطلياني في التحريض على قتال المسلمين ومحو القرآن[٣] :

إن من أعظم الآلام لشاب في العشرين من عمره ألَّا يحارب في سبيل وطنه مع دوام القتال في طرابلس ، والراية المثلثة الألوان والموسيقى الحربية تنبهان النفس المقدامة ، يا أماه أتمي صلاتك ولا تبكي ، بل اضحكي وتأملي ، ألا تعلمين أن إيطالية تدعوني وأنا ذاهب إلى «طرابلس» فرحًا مسرورًا لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة «كذا» ولأحارب الأمة الإسلامية التي تجيز

---

(١) أباطيل وأسمار ، محمود شاكر (ص١٥٨) .

(٢) من التبعية إلى الأصالة ، أنور الجندي (ص١٦) (ط٣/ ١٤١٢هـ ، ١٩٩١م) .

(٣) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ، تأليف الأمير شكيب أرسلان ، (ص٥٢، ٥٣) ، من حواشي العلامة السيد رشيد رضا على الكتاب ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت (١٩٦٩) .

البنات الأبكار للسلطان [1] .

سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن « كذا » .

ليس بأهل للمجد من لم يمت إيطاليًا حقًا .

تحمسي أيتها الوالدة ، تذكري « كاروني » التي جادت بأولادها في سبيل وطنها :

يا أماه أنا مسافر ، ألا تعلمين أن على الأمواج الزرقاء الصافية من بحرنا ستلقي سفائننا المراسي ؟ أنا ذاهب إلى طرابلس مسرورًا ؛ لأن رايتنا المثلثة الألوان تدعوني ، وذلك القطر تحت ظلها .

لا تموتي لأننا في طريق الحياة ، وإن لم أرجع فلا تبكي على ولدك ولكن اذهبي في كل مساء وزوري المقبرة ونسائم الأصيل تحمل إلى طرابلس وداعك الذي يأبى الحدادَ على قبره فلذةُ كبدِك ، وإن سألك أحد عن عدم حدادك عليَّ فأجيبيه : إنه مات في محاربة الإسلام .

والطبل يقرع يا أماه ، أنا ذاهب أيضًا ، ألا تسمعين هزج الحرب ، دعيني أعانق وأذهب !

ويقول الحاكم الفرنسي للجزائر بمناسبة مرور مائة عام على احتلالها :

---

(١) الديانة الإسلامية لا تجيز للسلطان إلا ما تجيزه لغيره من المسلمين ، وهو تزوج البكر والثيب ، ولكن الأفرنج تبيح لهم نصرانيتهم الافتراء على الإسلام ، وتبيح لهم مدنيتهم الزنى ، حتى أفسدوا كل قطر دخلوه ببغاياهم لاسيما الطليان منهم ، السابق (ص٥٢) من حاشية السيد رشيد رضا .

«يجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم، ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم حتى ننتصر عليهم»[١].

فهذه النصوص المنقولة عن قادة الفكر والسياسة ورجال الدين، تدلل بجلاء على أن هدفهم الذي يسعون إليه هو القضاء على الإسلام، وذلك راجع إلى عاملين رئيسين:

الأول: عامل ديني قديم، لا تخبو ناره، بل تستعر مع الأيام جذوته!

الثاني: عامل مادي، يتعلق باستعمار البلاد الإسلامية، ونهب خيراتها، والتهام ثرواتها، واستغلال طاقاتها وإمكانياتها، ونحو ذلك من الأطماع.

والإسلام يقف حائلًا دون ذلك كله، فهو يأمر بإعداد القوى المادية، ويحض على المقاومة والكفاح، ويتوعد المستسلمين والمستضعفين بسوء المآل في الدنيا والآخرة[٢].

ثم إنهم خططوا للقضاء على الإسلام ومحاربته على صعيدين أساسيين:

الأول: على الصعيد الداخلي أي: في بلاد المسلمين، حيث عملوا على إبعاد المسلمين عنه وذبذبة ولائهم له، والحيلولة دون الفهم الصحيح لمبادئه، بعد أن فشلوا عمليًّا في جعلهم يكفرون به.

الثاني: على الصعيد الخارجي: أي خارج بلاد المسلمين حيث قاموا بجهود

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، عبد الله ناصح علوان، (٢٠/ ٧٥٤) نقلًا عن المنار: عدد (٩/ ١١/ ١٩٦٢).

(٢) معالم التاريخ الإسلامي المعاصر (ص١٦٨).

جبارة في التشكيك في الإسلام وتشويهه ، وتلطيخ سمعته لتتكون في النهاية صورة سيئة عنه في نفوس غير المسلمين ، فينفرون منه ، ولا يفكرون في اعتناقه .

*****

الباب الثاني

وسائل الغزو الفكري

الفصل الأول :

التعليم

الفصل الثاني :

الإعلام

الفصل الثالث :

وسائل أخرى

تمهيد

الوسائل جمع وسيلة ، ومن خلال استقراء كتب اللغة [١] ، نجد أن لها أكثر من معنى ، وعليه فإننا نقرر أن مفهوم الوسائل : أنها الأدوات أو الوسائط التي يتوصل بها إلى شيء ما .

وأشير في هذا المقام إلى أن كثيرين من الباحثين يخلطون بين الوسائل والأساليب ، أو يستعملونها على أنها مترادفان ، والظاهر أنها متغايران .

فالوسيلة هي الأداة أو الواسطة ـ كما تقدم ـ وأما الأسلوب فكما جاء في كتب اللغة [٢] : هو الطريقة والفن والوجه ، والطريق والمذهب ، ويقال : أخذ فلان في أساليب من القول : أي : في أفانين منه ، وغير ذلك من الدلالات .

ولعل سبب الظن بأنهما مترادفان هو دلالة كل منهما على معنى الطريقة ، لكن الواقع أنهما متغايران .

فمثلًا : القصة أسلوب ، وكذا الشعر والمثل والإنشاء والخبر وغيرها ، وهذه الأساليب لابد لها من وسيلة تبلغ بها وتُنشر وتذاع من خلالها ، وقد تكون الوسيلة هي الكتاب أو الإذاعة ، أو التلفاز أو الاتصال الشخصي ونحوها .

---

(١) يراجع ـ على سبيل المثال ـ : لسان العرب لابن منظور (١١/ ٧٢٤، ٧٢٥) ، دار بيروت ، والصحاح للجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار (٥/ ١٨٤١) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط الثالثة ، ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م ، وترتيب القاموس المحيط ، الطاهر أحمد الزاوي (٤/ ٦٦٢) ، الدار العربية للكتاب ، ط الثالثة ، ١٤٠٤ ، ١٩٨٤م .

(٢) انظر : ترتيب القاموس المحيط (٢/ ٥٩٠) ، الصحاح (١/ ١٤٩) ، لسان العرب (١/ ٤٧٣) ، أساس البلاغة للزمخشري (ص٤٠٣) ، دار الفكر (١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م) .

وهكذا يتبين أن الوسيلة غير الأسلوب ، فالأسلوب هو طريقة حمل المعنى وعرضه ، والوسيلة هي الأداة التي يُبَلَّغ بواسطتها الأسلوب .

وكم أتعجب حين أجد بعض العلماء يتحدث عن وسائل الغزو الفكري ، فيذكر تحتها : التشكيك ، وتشويه الحقائق ، واختلاق المفتريات ، فأين هذا ونحوه من الوسائل ؟!

وأجد بعضهم يتحدث عن أساليب الغزو الفكري ، فيذكر تحت هذا العنوان : الإعلام والتعليم والجمعيات والمستشفيات ونحوها ، وهذا ليس من الأساليب في شيء !

وعليه فإن المقصود بوسائل الغزو الفكري الأدوات أو الوسائط التي يتم من خلالها نقل أو تسرب الأفكار الغازية المعادية ، والثقافات الأجنبية الدخيلة ، المتعارضة مع الإسلام ، والآراء المتعارضة مع القرآن والسنة ، وعرضها على المسلمين عبر تلك الوسائل بأساليب مختلفة لتحقيق أهداف الغزو الفكري .

هذا ، ولقد استخدم ثالوث الشر ـ السالف الذكر [1] المتحالف ضد الإسلام والمسلمين ـ دائمًا ـ كل ما يمكن تصوره وما لا يمكن ، في محاربته للإسلام ، بغية الوصول إلى أهدافه .

وكان للغزو الفكري وسائل كثيرة ومتشعبة ، منها ما هو سافر ، ومنها ما هو مستتر ، ومنها ما هو مباشر ، وآخر غير مباشر ، ومنها ما هو موَجَّه لكافة الناس ، وما هو موجه لفئة معينة ، وهذه الوسائل كلها موجَّهة لإعمال الهدم والتخريب والتشويه في كل جانب من جوانب الإسلام ، فهي تستهدف

(١) وهو اليهودي ، النصراني ، الإلحادي .

العقيدة والشريعة، والآداب والتاريخ والتراث، والحاضر والمستقبل، وعلائق شعوب الأمة الإسلامية، وروابطها مع بعضها، وغير ذلك من الجوانب.

وفي الفصول التالية نفصل الحديث بما يُجَلِّي وسائل الغزو الفكري ويكشفها، لنتنبه إلى مكامن الداء ومصادر الوباء، عسى أن نأخذ حذرنا، وننجوَ من مكر أعدائنا، والله المستعان.

*****

الفصل الأول

التعليم

المبحث الأول :

التعليم الوطني أو الحكومي .

المبحث الثاني :

التعليم الأجنبي .

المبحث الثالث :

الابتعاث إلى الخارج .

المبحث الأول
التعليم الوطني أو الحكومي

حرص الخصوم على استغلال التعليم في الغزو الفكري :

والمقصود بهذا النوع من التعليم : التعليم الذي هو بيد الحكومات الإسلامية والعربية ، الخاضع لتوجيهها ، والتابع لها .

ولقد تواصى أعداء الإسلام ، وتنادوا فيما بينهم بضرورة صبغ هذا التعليم بصبغة غربية ، وجعله يسير على غير هدى من الله ، وبعيدًا عن روح الأمة وشخصيتها .

فيقول المستشرق الماكر «جب» [١] : «إن التعليم هو أكبر العوامل الصحيحة التي تعمل على الاستغراب ، وإن انتشار التعليم «أي : على الطريقة الغربية» سيبعث بازدياد في الظروف الحاضرة على توسيع تيار الاستغراب وتعميقه ، ولاسيما لاقترانه بالعوامل التعليمية الأخرى التي تدفع الشعوب الإسلامية في نفس الطريق » [٢] .

ويقول أيضًا : «والسبيل الحقيقي للحكم على مدى التغريب «أو الفرنجة»

---

(١) المستشرق جب : هو «هـ .أ . ر . جب» أكبر مستشرقي إنجلترا المعاصرين ، كان عضوًا بالمجمع اللغوي في مصر ، وأستاذ الدراسات الإسلامية والعربية في جامعة هارفرد الأمريكية ، من كبار محرري وناشري «دائرة المعارف الإسلامية» له كتابات كثيرة فيها عمق وخطورة ، وهذا هو سر خطورته ، ومن كتبه : «طريق الإسلام» ألفه بالاشتراك مع آخرين وترجم من الإنجليزية إلى العربية تحت العنوان المذكور ، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم ، د/ مصطفى السباعي (ص٣١) .

(٢) من التبعية إلى الأصالة ، أنور الجندي ، (ص٨١) .

هـو أن نتبـين إلى أي حـد يجـري التعلـيم عـلى الأسـلوب الغـربي وعـلى المبـادئ الغربية ، وعلى التفكير الغربي ، والأساس في كل ذلك هو أن يجري التعليم على الأسلوب الغربي وعلى المبادئ الغربيـة وعـلى التفكـير الغـربي هـذا هـو السبيل الوحيد ولا سبيل غيره ، وقد رأينا المراحـل التـي مـر بهـا طبـع التعليم بالطـابع الغربي في العالم الإسلامي ، ومدى تأثيره على تفكير الزعماء المدنيين وقليـل مـن الزعماء الدينيين »[١] .

وقد أدركت وأقرت سياسة الدول الأوربية الغازية جميعًا بـضرورة اخـتراق التعليم في العالم الإسلامي ، والتعويل عليه في أن يكون سلاحًا بأيديهم ضدنا ؛ لأن حاجة الناس إلى العلم لا تنقطع ، وبخاصـة في زمـن اليقظـة بعـد الغفـوة ، هذه واحدة ، والأخرى أن التعليم يضمن تنشئة أجيـال قـد صـبغوا عـلى أيـدي معلميهم بالـصبغة التـي يريـدها الـدعاة مـن أسـاتذتهم ، وهـو أخطـر عامـل في توجيه أفكار الصغار إلى الجهة التي يريدها المعلـم ، فينـشأ الطفـل ويكـبر حتـى يكون رجلًا فلا يحس في نفسه أنه قد طبع طبعًا جديدًا ، يراد به استبقاء سـيطرة الغازي عليه وعلى بلاده ، وتـدمير أمتـه بمـسخه هـو وأقرانـه إلى عبيـد يـذللون الطريق لأقدام السادة الطغاة من حيث لا يدري أنه عبد مسخر[٢] .

وهكذا صار التعليم أداة من أكبر أدوات الغزو الفكري وأخطرها !

أجل ، وهذا هو واقع التعليم الوطني .

---

(١) الاتجاهات الوطنية ، د/ محمد محمد حسين (جـ٢) (ص٢١٦، ٢١٧) ، والكـلام مترجـم عن كتاب «إلى أين يتجه الإسلام» الذي أشرف على جمعه وتـأليف بحوثـه والتقـديم لهـا والتعقيب عليها المستشرق جب .

(٢) أباطيل وأسمار (ص١٨٥) .

ولكن كيف غدا هذا حال التعليم في بلادنا ؟

أو بعبارة أخرى :

كيف تسلل الغزو الفكري إلى التعليم الوطني ، واستطاع أن يوجد له مواطئ أقدام ، وقواعد لا تزال باقية إلى اليوم ؟!

هذا ما أحاول الإجابة عليه بشيء من التفصيل في الصفحات التالية :

وسائل تسلل الغزو الفكري إلى التعليم الوطني :

يمكن القول بأن أهم الطرق التي تسلل من خلالها الغزو الفكري إلى التعليم الوطني ثلاث ، أتناولها فيما يلي :

الوسيلة الأولى : الاستعمار في العصر الحديث :

لقد قدم الاستعمار في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ، إلى بلاد العالم الإسلامي ، وانقض على دولة الخلافة العثمانية الإسلامية ، يقطع أوصالها ويمزق أشلاءها ، وعاث في بلاد العالم الإسلامي فسادًا ، وكان كالجراد الذي يقع على المروج الخضراء فيحيلها خرابًا بلقعًا ، لا يحل في قطر إلا ويتجه للقضاء على كل مظهر من مظاهر الحياة الإسلامية فيها ، ولقد كان التعليم قبل مجيء هذا الاحتلال ، وحتى وصوله ، قائمًا على مبادئ الإسلام ، ومفاهيم الشريعة الإسلامية ، كما يشير إلى هذا أحد المؤرخين فيقول :

قبل مجيء الاحتلال الأجنبي للبلاد العربية والإسلامية كان التعليم إسلاميًّا يقوم على مفهوم الشريعة الإسلامية والجهاد ، ومن هنا كان حرص النفوذ الأجنبي في السيطرة على التعليم لإخراجه من مفاهيم القوة والمقاومة ، وقد حاول الاستعمار تبرير هدمه للمنهج الإسلامي في التعليم بوصفه بالجمود والتخلف ، بينما كانت التربية الإسلامية هي مصدر المقاومة التي واجهها

الاحتلال ، وقد اعترف بذلك رجال الاستعمار أنفسهم ، فقال اللورد لويد [١] في كتابه « مصر منذ أيام كرومر » :

إن التعليم الوطني عندما قدم الإنجليز كان في قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين ، والتي كانت أساليبها الجافة تقف حاجزًا في طريق أي إصلاح تعليمي ، وكان الطلبة الذين يتخرجون من هذه الجامعة يحملون معهم قدرًا عظيمًا من غرور التعصب الديني ، فلو أمكن تطوير الأزهر لكانت خطوة جليلة الخطر ، فليس من اليسير أن يتصور لنا أي تقدم طالما ظل الأزهر متمسكًا بأساليبه هذه ، ولكن إذا بدا أن مثل هذه الخطوة غير متيسر تحقيقها ، فعندئذٍ يصبح الأمل محصورًا في إيجاد التعليم اللاديني الذي ينافس الأزهر حتى يتاح له الانتشار والنجاح [٢] .

هكذا كان التعليم إسلاميًّا في الأقطار الإسلامية ، تقوم عليه مؤسسات إسلامية كالأزهر في مصر ، وجامع القرويين في المغرب ، وجامع الزيتونة في تونس ، وغيرها من المؤسسات والبلدان ، فرمى الاستعمار هذا التعليم بالجمود ، وعمل على محاصرته ، وتضييق الخناق عليه ، ثم طفق ينشئ التعليم العلماني ، وينشره ، ويؤسسه على غير تقوى من الله ورضوان ، بل على أسس جاهلية .

وكانت هذه سياسة أساطين الاستعمار في كل مكان ابتلي بهم ، ونكب

---

(١) اللورد لويد هو المندوب السامي البريطاني بمصر بعد كرومر ، وقد استقال كرومر عام (١٩٠٧م) .

(٢) من التبعية إلى الأصالة (ص٨٤) ، الخنجر المسموم الذي طُعن به المسلمون ، أنور الجندي (ص٣٠) ، دار الاعتصام ، القاهرة .

بوجودهم، وكان لهذا التعليم الذي أنشأه الاستعمار في الأقطار الإسلامية خطة متشابهة، ترمي إلى تحقيق أهداف خطيرة، وهي :

أولًا : عزل هذا القطر عن أمته العربية ثم عزله عن العالم الإسلامي كله .

ثانيًا : الحيلولة بينه وبين الارتباط بالجذور التاريخية والأدبية بادعاء أن العصر الحديث بدأ بحملة نابليون [1] ، وأن هذا العصر منفصل تمامًا عما قبله مما أطلق عليه زيفًا «عصر الانحطاط» ، عملًا على إيجاد شعور نفسي بالكراهية والانسلاخ من الماضي كله .

ثالثًا : بعد عزل القطر «إقليميًّا» عن أمته العربية الصغرى وأمته الإسلامية الكبرى وعن أصول فكره الإسلامي القرآني الممتد وراء أربعة عشر قرنًا ، تقوم الدعوة إلى إحياء التاريخ الإقليمي الفرعوني والفينيقي والآشوري والبابلي وغيره ، ثم الارتباط بالغرب وحضارة الغرب وعظمة الغرب وبطولاته وأمجاده ، بدعوى أن هذا الغرب هو صاحب الحضارة التي لا تقهر ، ومُمدِّن الشعوب المتأخرة إلى آخر هذه الزيوف والأضاليل .

رابعًا : إعلاء العامية على الفصحى ، والاهتمام باللهجة الإقليمية وما يتصل بها من حكايات ، وفلكلور ، وأزجال ومَوّال وغيره ؛ إغراقًا في العمق الإقليمي ، وحيلولة دون الامتداد الطبيعي للأمة .

---

(١) هو نابليون بونابرت (١٧٦٩ ـ ١٨٢١) : إمبراطور فرنسا (١٨٠٤ ـ ١٨١٥) غزا مصر (١٧٩٨ ـ ١٧٩٩) ، ودوَّخ بفتوحاته القارة الأوربية ، حاول احتلال الروسيا ولكن ارتد عنها خائبًا عام (١٨١٢) ، تنازل عن العرش (١٨١٤) ، فنفي إلى جزيرة الباوفد ، حاول استعادة عرشه خلال فترة المئة ، ولكنه هزم هزيمة حاسمة في واترلو عام (١٨١٥) فنفاه الإنكليز إلى جزيرة سانت هيلانة . معجم أعلام المورد (ص٤٥٠) .

خامسًا : إعلاء اللغة الأجنبية «الإنجليزية أو الفرنسية» على اللغة العربية والدعوة إلى تعلمها بحجة أنها لغة الحضارة ، ثم السيطرة عن طريقها فكريًا على المثقفين الذين يوجَّهون بعد ذلك إلى الاعتماد على فلسفات ومفاهيم الغرب .

هذه كانت خطة التعليم العامة مع تغييرات يسيرة يختلف بها المنهج من قطر إلى قطر ، ولكن الهدف في الجملة واحد ، وهو ازدراء الوطن والقوم والفكر العربي الإسلامي كله ، والالتفاف نحو الغرب صاحب الحضارة المستعمرة وبطولاته وأمجاده [١] .

والمتتبع لسياسة الاستعمار العملية ، وتصريحات زعمائه الصريحة المتبجحة ، يلمس عزمهم على تفريغ التعليم وتجريده من الروح الإسلامية ، والحيلولة دون انطلاقه من مبادئ الشريعة الغراء .

قال المارشال «ليوتي» المقيم الفرنسي بالمغرب : يجب أن تكون المدارس الموجودة في مراكش فرنسية الروح والغاية ، مسيحية الاتجاه ، وليس فائدة من التدريس باللغة العربية أو التركيز على الثقافة الإسلامية [٢] .

وقريب من هذا ما اعترفت به «دائرة المعارف البريطانية» : فبعد ثلاث سنوات من الاحتلال بدأ تطبيق القانون الفرنسي على التعليم في الجزائر ، ومنعت المعونات المالية والحكومية عن أي مدرسة خاصة لا تدرس بالفرنسية [٣] .

---

(١) من التبعية إلى الأصالة (ص١١٥، ١١٦) .

(٢) وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي (ص٣٧) ، نقلًا عن محمد جميل ، الحلقة المفقودة في تاريخ العرب (ص٢٣٠، ٢٣١) .

(٣) السابق (ص٣٧) ، مترجمًا عن دائرة المعارف البريطانية .

قال زويمر : إن السياسة الاستعمارية لما قضت من نصف قرن ـ أي : منذ عام (١٨٨٢) تقريبًا ـ على برنامج التعليم في المدارس الابتدائية أخرجت منها القرآن ثم تاريخ الإسلام ، وبذلك أخرجت ناشئة لا هي مسلمة ولا هي مسيحية ولا هي يهودية ، ناشئة مضطربة مادية الأغراض لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقًّا ، فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة [١] .

صورة من سياسة الاحتلال الفرنسي حيال التعليم :

ولما فرض الانتداب الإفرنسي على سوريا ولبنان عام (١٩١٩) فرض معه منهاج للتعليم الرسمي ، وكان هذا التعليم الرسمي في مناطق الانتداب يساعد المبشرين في أعمالهم [٢] .

ومن لبنان نلتقط هذه الصورة التي توضح كيف استطاع الانتداب الفرنسي أن يصبغ التعليم الرسمي وكل شيء في لبنان بصبغة غير إسلامية ، مما سجله الشيخ حسن خالد مفتي لبنان السابق ـ رحمه الله ـ .

يقول ـ تحت عنوان ـ : «أثر المنتدب في تعويق مسار الدعوة » :

ومع ذلك فقد كان لهذا المنتدب أثره الخطير في مسار الدعوة معيقًا لها ومعطلًا دورها ، فهو الذي اتخذ قرار فصل الدين عن الدولة ، وجعلها دولة علمانية في الظاهر ومسيحية في الحقيقة والواقع ؛ إذ جعل رئيسها مسيحيًّا رغم وجود أكثرية إسلامية ، ومكن له ولمن يتأثرون به في أجهزة الدولة ؛ ليتخذوا لأنفسهم فيها مواقع نفوذ ، عملوا من خلالها على صبغ ما أمكنهم من إدارتها

---

(١) الخنجر المسموم (ص٢٢) .

(٢) التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، د/ مصطفى خالدي ، د/ عمر فروخ (ص٨٤) ، المكتبة العصرية بيروت ، ط الرابعة ، (١٣٩٠هـ ، ١٩٧٠م) .

ومؤسساتها والعاملين عليها بالصبغة المسيحية ، فرفعوا الصلبان فوق رؤوس المرضى في مستشفيات الدولة ، فضلًا عن المستشفيات الخاصة المسيحية ، وسخروا لها الرهبان والراهبات للإدارة والتمريض ، وأطلقوا على جهاز الإسعاف اسم الصليب الأحمر ، وتركوا العنان للمؤسسات التبشيرية المسيحية في وضع مناهج التعليم وأنظمة التربية ، بما يتفق مع نظرتهم وأغراضهم في معاداة الإسلام وتمييع الشخصية الإسلامية ، بل وتفريغها من كل مدلول يعبر عنها ويثبت وجودها ، وأكثروا من المدارس التابعة لهم في الأقضية والمحافظات والقرى الإسلامية ، في الوقت الذي كان فيه المسلمون في عجز كلي عن إيجاد المدارس الابتدائية ؛ فضلًا عن التكميلية والثانوية ، ودور الحضانة من أرفع المستويات ، فأقبلوا عليها يدفعون بفلذات أكبادهم ليتلقوا العلم وينهلوا من المعرفة ، فنشأ بذلك قسم كبير من أبناء الجيل الحديث في رعاية الرهبان ورؤساء الأديرة ، الذين كانوا يجدون في ذلك فرصة لتنشئتهم على الطباع والأخلاق والأفكار ، بل والمعتقدات المسيحية ، مع بذر بعض الشكوك حول العقيدة الإسلامية وسيرة الرسول ﷺ وتاريخ الإسلام والمسلمين ، وكثير من التشريعات والأنظمة الإسلامية وآيات القرآن الكريم في نفوسهم [1] .

ومع إنماء الاستعمار للتعليم اللاديني ، نجد فرض الرقابة الصارمة على التعليم الإسلامي ، والتدخل في شئونه ، وتحديد ما يدرس وما لا يدرس ، ومنع كل ما من شأنه أن يجعل المسلمين يقاومونهم ، ويهبون للدفاع عن دينهم ، وأوطانهم ، وهذا شاهد على هذه السياسة من الجزائر بلد المليون شهيد ؛ إذ

---

(١) مسار الدعوة الإسلامية في لبنان خلال القرن الرابع عشر الهجري ، حسن خالد ، (ص٣٧ ــ ٣٩) دار الدعوة ، بيروت لبنان ، ط الأولى (١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م) .

يقول : «إن هؤلاء الأوربيين الفاتحين المبعدين للأحرار المخربين للديار ، ما زالوا يحرمون عبيدهم من كلمة الجهاد ، ويعدون ذكره فضلًا عن فعله من أعظم الذنوب ، وهو آية الهمجية والتعصب الديني الممقوت ، وبلغ ببعضهم الأمر أن حرموا على المسلمين تفسير آيات الجهاد في كتب الفقه » .

وبعيني شاهدت صحيفة الإذن التي حصل عليها شيخنا محمد بن حبيب الله الشنقيطي - رحمه الله - ، في مدينة المشربة قسم وهران من الجزائر ، وفيها أن الإذن بتدريس علوم الدين مقيد بأن المدرس لا يفسر أي آية أو حديث يدل على الجهاد ، وألا يدرس شيئًا من أبواب الجهاد في كتب الفقه ، ولما راجعت دعاية هؤلاء في الشرق سار المسلمون ينفرون من لفظ الجهاد [١] .

صورة من سياسة الاحتلال الإنجليزي حيال التعليم في مصر

كانت هذه شذرات من سياسة الاستعمار الفرنسي حيال التعليم في البلاد الإسلامية ننتقل منها إلى الحديث عن شيء من سياسة الاستعمار البريطاني ودوره في إفساد التعليم ، وجعله أداة للغزو الفكري في البلاد التي امتدت يده إليها .

ولنأخذ مثالًا على سياسته هذه من مصر .

جاء الإنجليز إلى مصر عام (١٨٨٢م) ، وحَلّوا على أهلها ضيفًا ثقيلًا ، بل عدوًّا ماكرًا خبيثًا ، وعملوا على إقصاء الشريعة الإسلامية عن كل جوانب الحياة فيها ، بما في ذلك جانب التعليم الذي نحن بصدد الحديث عنه ، ولا يتسع المقام لذكر سياستهم في هذا المجال تفصيليًّا ؛ ولذا سأكتفي بذكر طرف يسير يفي بالمطلوب بإذن الله .

---

(١) الخنجر المسموم ، (ص٢١، ٢٢) .

البريطاني "دنلوب" ودوره في تفريغ التعليم من الروح الإسلامية

لقد عمل الإنجليز على إنماء التعليم العلماني - كما صرح «لويد» من قبل - وتوسعوا فيه لينافس الأزهر الشريف، وجعلوه في قبضة أيديهم، وتحت نفوذهم وسيطرتهم، فجاؤوا برجل صليبي حاقد يسمى «دنلوب» وأسندوا له منصب مستشار وزارة التعليم، ليفسد كما شاء؛ وليضع للتعليم سياسة تحقق أهداف المستعمر الصليبي.

فما حكاية هذا الرجل، ومنصب المستشار الذي أسند إليه، ودوره الذي قام به؟

ونتعرف عليه أولًا:

هو «دوجلاس دنلوب من أصل أسكتلندي، حصل على لقب معلم علوم، ودكتور في الحقوق، وعمل ناظرًا للمدرسة الأسكتلندية بالإسكندرية، ثم اختير سنة (١٨٩٠) مفتشًا بالمعارف ثم سكرتيرًا فمستشارًا للمعارف [١]، وكان عنيدًا شديد الاستعلاء» [٢].

وكان المستشار هو ممثل الاحتلال في الوزارة، فهو رسميًّا مستشار للوزير في كل ما يختص به الوزير، وهو فعليًّا صاحب السلطة العليا في الوزارة، وقد ظل «دنلوب» يشغل هذا المنصب بالرغم من سخط الرأي العام الشديد عليه حتى اضطر للاستقالة في (يونية سنة ١٩١٩)، فرشح خلفًا له إنجليزي آخر هو باترسون، ثم ألغي المنصب أي: «منصب المستشار» في أعقاب صدور تصريح

---

(١) سياسة التعليم في مصر تحت الاحتلال البريطاني (١٨٨٢ ــ ١٩٢٢)، د/ محمد أبو الأسعاد، (ص٣٧)، هامش، طيبة للدراسات والنشر.

(٢) السابق (ص٥٨).

(٢٨) فبراير سنة (١٩٢٢)[١] .

ولقد كشف بعض الباحثين النقاب عن أن دنلوب ، لم يكن مجيئه إلى مصر ، واختياره ليكون صاحب النفوذ في وزارة المعارف ، ومسيّرًا لأمورها ، أمرًا عفويًّا ، وإنما كان مقصودًا ومرتبًا ، فيقول : .

« وحين بدأ (أي : كرومر) حكمه في مصر شكاه المبشرون إلى الحكومة البريطانية بدعوى أنه يضيق عليهم ، فلما أرسلت الحكومة البريطانية الشكوى إليه ليرد عليها جمع المبشرين وقال لهم : هل تتصورون أنني يمكن أن أضيق عليكم ؟ ولكنكم تخطفون الأطفال من الشوارع ، وتخطفون الرجال لتنصيرهم ، فتستفزون المسلمين ، فيزدادون تمسكًا بدينهم ، ولكني اتفقت مع شاب تخرج قريبًا في كلية اللاهوت بلندن ليضع سياسة تعليمية ستحقق جميع أهدافكم »[٢] .

ولكن لماذا أنشأ الإنجليز وظيفة «مستشار الوزارة» ؟

لقد كان على قمة الجهاز الإداري للمعارف المصرية وزير مصري دائمًا ، وكان نظام التعليم في ذلك الوقت يتسم بالمركزية ، أي : تركيز السلطة التعليمية تركيزًا مطلقًا في شخص ناظر المعارف أو وزيرها ، وكان لابد للإنجليز في ظل هذا النظام المركزي أن يتخذوا من الوسائل والتدابير ما يضمن لهم سير هذا الناظر أو ذاك وفقًا لسياستهم ، وما إليه يهدفون ، فأنشؤوا

---

(١) السابق (ص٣٧) .

(٢) واقعنا المعاصر ، محمد قطب ، (ص٢١٦) ، نقلًا عن كتاب «التبشير والإرساليات التبشيرية» ، الجزء الأول ، وهو من الكتب الممنوع إخراجها من مكتبة المتحف البريطاني .

في المعارف كما أنشؤوا في غيرها من النظارات وظيفة المستشار ، التي كان لابد وأن يتولاها إنجليزي ليقوم على إنفاذ السياسة البريطانية ، فكان أن تولاها «دنلوب» منذ أن وجدت عام (١٩٠٦) حتى استقال في أعقاب الثورة المصرية سنة (١٩١٩) [١] .

وإذن فقد كان على قمة الجهاز الإداري للمعارف المصرية ناظر مصري ومستشار إنجليزي ، فأيهما كانت له السلطة العليا ؟

لا خلاف في الرأي على أن «دوجلاس دنلوب» كان هو صاحب السلطة العليا في المعارف ، وأن كلمته كانت هي النافذة وأمره هو المطاع ، وأنه سيطر على إدارة المعارف المصرية ، ووجه سياستها لخدمة الأغراض البريطانية لنحو ثلاثين عامًا بحيث أنه كان في واقع الأمر وحقيقته هو الوزير الفعلي للمعارف [٢] .

وهكذا كانت السلطة العليا في توجيه التعليم في قبضة الإنجليز ممثلة في مستشارهم .

ولم يكتف الإنجليز بهذا ، بل خطوا خطوة أخرى لا تقل مكرًا ودهاء عن سابقتها ، حيث إنهم : « اتجهوا في نفس الوقت للسيطرة على مختلف إدارات التعليم وجعل المناصب الرئيسية سواء في الإدارة الرئيسية في الديوان أو إدارة المدارس في قبضة يدهم، حتى إن « كرومر » [٣]، لم يستطع إخفاء هذه الحقيقة،

---

(١) سياسة التعليم في مصر تحت الاحتلال البريطاني (ص٥٦) بتصرف .

(٢) السابق (ص٥٦، ٥٧) .

(٣) كرومر «أفلن بيرنج» إيريل : (١٨٤١ ــ ١٩١٧) ، اختارته بريطانيا (١٨٨٣) عقب الاحتلال الإنجليزي لمصر ليكون «الوكيل البريطاني والقنصل العام بمصر ، بدرجة =

فهو يعترف بأن المناصب العليا في المعارف كانت دائمًا في أيدي المصريين ، لكن المستشار الإنجليزي «دنلوب» اختار عددًا من الأوربيين لشغل بعض هذه المناصب ، ويوضح سعد زغلول [1] أن حرص «دنلوب» على حصر الوظائف الرئيسية في التعليم في أيدي الإنجليز كان الغرض منه أن يعاونوا المستشار الإنجليزي على إنفاذ سياسته في السيطرة على التعليم ؛ إذ كان جميع الموظفين الإنجليز سواء كانوا مفتشين أو نظار مدارس أو معلمين يساعدون «دنلوب» على تنفيذ سياسته .

وتتضح لنا معالم هذه السياسة في السيطرة على إدارة التعليم ، إذا تتبعنا حجم الموظفين الأجانب في وزارة المعارف ، وتعرفنا على المناصب التي شغلوها ، فمن حيث حجم الموظفين الأجانب نجد أن عددهم قد زاد بشكل ظاهر في المعارف ، فعلى حين لم يكن في المعارف قبل الاحتلال سوى (٢٧) موظفًا أجنبيًّا ، كان معظمهم من الفرنسيين ، ارتفع هذا العدد بعد الاحتلال فوصل في سنة (١٨٩٦) إلى (٩٣) أوربيًّا كان معظمهم من الإنجليز ، ثم ارتفع هذا العدد فوصل سنة (١٩٠١) إلى (١١١) موظفًا ، ثم ازداد سنة (١٩٠٦) إلى (١٩٢) موظفًا ، ثم وصل سنة (١٩١٢) إلى (٢١٩) موظفًا أجنبيًّا ، وأما من حيث المراكز التي شغلها هؤلاء الأجانب ، فقد كانت مراكز حساسة ذات أهمية ، ففي وظائف التفتيش كانت خطة الإنجليز أن تكون هيئة التفتيش والمراقبة إنجليزية ؛ ولذلك كان أغلبية هيئة التفتيش إنجليزية ، وذلك

= وزير مفوض في السلك الدبلوماسي ، ومنذ ذلك الحين حتى استقالته (١٩٠٧) كان الحاكم الحقيقي لمصر ، الموسوعة العربية الميسرة (٢/ ١٤٥٦) باختصار .

(١) عمل ناظرًا للمعارف من أكتوبر (١٩٠٦) إلى فبراير (١٩١٠) ، سياسة التعليم في مصر تحت الاحتلال البريطاني (ص٣٣) .

فيما عدا هيئة تفتيش اللغة العربية ، وفي وظائف النظار كان معظمهم نظار المدارس التجهيزية والعليا والخصوصة من الإنجليز ؛ إذ كانت خطة الإنجليز تقوم على أساس أن تكون السيطرة في المدارس التجهيزية والعليا على وجه الخصوص للعنصر الإنجليزي ، فنجد أن عدد الأجانب في الثانوي ارتفع من (٤١) مدرسًا بنسبة (٣٣٪) سنة (١٨٩٦) إلى (٧٣) مدرسًا بنسبة (٦١٪) سنة (١٩٠٦) كما ارتفع عدد الأجانب في المدارس العليا من (١٦) أستاذًا بنسبة (٢٦٪) سنة ١٨٩٦ إلى (٤٧) أستاذًا بنسبة (٥٨٪) سنة (١٩٠٦) .

كذلك اهتم الإنجليز بالسيطرة على مجالس المعارف واللجنة العلمية الإدارية ؛ نظرًا لأهميتها في توجيه السياسة التعليمية ، وتمثل ذلك في العمل على أن يكون للعنصر الأجنبي الكلمة العليا في توجيه سياسة هذين المجلسين» [١].

ولقد كان الاهتمام باللغات الأجنبية على حساب اللغة العربية كبيرًا ، لدرجة كادت تموت في ظله اللغة العربية في ذلك العهد ، لولا أن قيض الله الأزهر لحمايتها ، والسهر على رعايتها ، وكانت مناهج التعليم مباءة تخرب الدين والخلق ، وتمسخ شخصية المسلم العربي لتحيله إلى مستغرب لا صلة له بالشرق وأهله ، ولا بالدين وشعائره .

وكان الجدول الدراسي اليومي يوضع بشكل يخدم هذه المخططات ويعمق ما ترمي إليه ، ويحدثنا واحد ممن ابتلوا بهذا التعليم حينما كان طفلًا ، كيف كان توزيع الحصص بخبث ودهاء ، وكيف كان تأثير هذا الأمر في نفس الطفل الغض النضر ، فيتكلم عن أول دخوله المدرسة الابتدائية أيام الاستعمار ، قائلًا :

« ... واستقر بنا الجلوس ، ثم بدأ الدرس الأول على الريق ، وهو درس

(١) السابق (ص٦٠، ٦١) نقلًا عن مراجع أجنبية وعربية .

اللغة الإنجليزية ! ونسيت كل ما نالني حينما سمعت هذه الحروف الغريبة النطق التي لم آلفها ، وفتنتني وغلبني الاهتمام بها ، وجعلت أسارع في ترديدها وحفظها ، اغتالت هذه الحروف الجديدة وكلماتها كل همتي ، اغتالتها بالفرح المشوب بطيش الطفولة ، وكأن حب الجديد الذي لم آلفه قد بز حسن الانتباه إلى القديم الذي ألفته منذ ولدت ، فقل انتباهي إلى لغتي العربية ، ومضت الأيام ففتر انتباهي إليها ، بل لعلي استثقلتها يومئذٍ وكدت أنفر منها ، وكذلك صرت في العربية ضعيفًا جدًّا ، لا أكاد أجتاز امتحانها إلا على عسر وعلى شَفَى ، وهكذا أنفذ «دنلوب» اللعين أول سهامه في قلبي من حيث لا أشعر ! ودرجت على ذلك أربع سنوات في التعليم الابتدائي ، والبلاء يطغى عليَّ عامًا بعد عام ...» [١] .

هكذا يتضح لنا بجلاء كيف أن الاستعمار كان وسيلة خطيرة لتسلل الغزو الفكري إلى التعليم الوطني .

ولكن أليس الاستعمار قد رحل عن ديار المسلمين ، وترك للمسلمين إدارة شؤون التعليم والإشراف عليه بكامل حريتهم ؟ وتغيرت الظروف بما يجعل التعليم خالصًا من أي شوائب ، وغزو فكري ؟ فكيف غدا حال التعليم بعد رحيل الاستعمار ؟

« الحقيقة الأساسية التي تكشف عنها دراسة أحوال التعليم المعاصر في العالم الإسلامي أن آثارًا كبيرة للسموم التي قام الاستعمار بدسها في مناهج التعليم إبان الاحتلال العسكري والسياسي للبلاد الإسلامية «فرنسا وإنجلترا

---

(١) أباطيل وأسمار (ص٥٥٦، ٥٥٧) ، وانظر : سياسة التعليم في مصر تحت الاحتلال البريطاني (ص٢٠٥ــ ٢٣٧) ، حيث تحدث بالتفصيل عن سياسة دنلوب في التمكين للغة الأجنبية على حساب العربية .

وهولندا» ، ما تزال حتى الآن موجودة وقائمة ، وبعيدة التأثير في بناء وتشكيل الأجيال المتوالية والجديدة على نحو يجعلها أكثر ولاء وتبعية »[١] .

ولقد أشار الأستاذ محمود محمد شاكر إلى أن نظام التعليم في بلادنا وقع « تحت» سلطان المستعمرين والمبشرين حقبة لا تزال ممتدة في حياتنا إلى اليوم ، ولا تزال آثارها تستشري عامًا بعد عام ، حتى كأن أصابع ذلك الرجل اللعين ، لم تزل حيَّة ممسكة بالزمام ، وهو رمة بالية تحت الثرى »[٢] .

فكيف إذن تسلل الغزو الفكري ، أو بقي في التعليم ، بعد رحيل الاستعمار عن العالم الإسلامي ؟!

هذا ما تحمل الصفحات التالية الإجابة عليه ؛ ليأتي دور الحديث عن الوسيلتين الأخريين على النحو التالي :

الوسيلة الثانية : المستغربون من بعض أبناء البلاد الإسلامية :

وهؤلاء صنعهم الغزو الفكري على عينه ، ورباهم بيده ، ونشأهم في أحضانه ، ثم قذف بهم إلى بلادهم المسلمة ، ليقوموا بالدور المنوط بهم نيابة عن أعداء أمتهم ، أو مؤازرة لخصوم دينهم .

وأعداء الإسلام لهم خطط ماكرة في صناعة الأشخاص الذين ينوبون عنهم في أداء رسالتهم ، ويقومون بالإفساد بدلًا منهم .

وإن استخدام بعض أبناء المسلمين للترويج للغزو الفكري والتمكين له في بلادهم ، إنما هو انطلاق من المخطط اللئيم الذي عبر عنه المستشرق المنصِّر

---

(١) من التبعية إلى الأصالة (ص٧٧) .

(٢) أباطيل وأسمار (ص٥٥٥) ، وانظر (ص٥٥٨) .

صمويل زويمر بقوله : « تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم ؛ لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها»[١] .

ولقد امتلأت المعارف وحقول التعليم في العالم الإسلامي بكثير من الوطنيين الذين عملوا ـ ولا يزالون يعملون ـ جاهدين على تغريب التعليم ، وتحكموا في رسم سياسته ، ووضع خططه ، واختيار أعضائه ، وصياغة مناهجه ، على نحو يضمن تدفق الغزو الفكري المعادي ، واستمراره في تلك الحقول والمجالات التعليمية ، حتى أصبح الأمر كما أشرت : أن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها .

وفي ظل أولئك العملاء للغزو الفكري ضيّق الخناق على كل ما هو إسلامي في شتى مجالات وفروع التعليم ، ويجري إزاحة المناهج الإسلامية ، وكل ما يمت بصلة إليها في حقول التعليم ، بينما يتم إفساح المجال والتمكين للثقافات الأجنبية الدخيلة المتعارضة مع الإسلام يومًا بعد يوم .

الوسيلة الثالثة : مؤتمرات تتبناها منظمات دولية مشبوهة ، تدعم مخططات الغزو الفكري ، في صورة قرارات تلزم الدول الإسلامية بتنفيذها .

فهذه المؤتمرات تتبناها وتعقدها منظمات دولية معروفة بسيطرة الغرب ذي النزعة العدائية للإسلام عليها ، مثل منظمة اليونسكو[٢] ، التي لا تخفي

(١) الغارة على العالم الإسلامي ، تأليف أ . ل .شاتليه ، لخصها ونقلها إلى العربية ، محب الدين الخطيب ومساعد إلياقي (ص٣٠) ، دار أسامة بن زيد . بيروت .

(٢) منظمة اليونسكو إحدى المنظمات التابعة للأمم المتحدة ، للتربية والعلوم والثقافة ، تأسست عام (١٩٤٦) لدعم التعاون بين الأمم عن طريق التربية والعلوم والثقافة ، تعمل على إنماء التبادل الثقافي بين الأمم وجعل الأعمال الفنية والأدبية والفلسفية في متناول الشعوب ، الإعلام الغربي المعاصر وأثره في الأمة الإسلامية ، د/ يوسف محيي=

سيطرة أمريكا ـ وبخاصة اليهود ـ عليها ؛ إذ تتبنى مؤتمرات تشارك فيها المنظمات والدول العربية ، ثم تتمخض عنها قرارات لها صلاحية التنفيذ ، في الدول الأعضاء ، وغالبًا ما يكون تنفيذها في بلادنا نحن العرب والمسلمين فقط .

وهذه المؤتمرات « تستهدف السيطرة على توجيه الثقافة والتعليم في البلاد العربية ، فمن ذلك الترويج لآراء اجتماعية ومذاهب سياسية لا تخدم إلا مشاريع اليهود والغرب ، فمن ذلك مؤتمر تبادل المدرسين بين البلاد العربية الذي انعقد في القاهرة سنة (١٩٥٦) بدعوة من اليونسكو ، ومؤتمر التعليم الثانوي في مصر سنة (١٩٥٥) ، واشتركت في الدعوة إليه الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، والحلقة التربوية التي دعت إليها الجامعة الأمريكية في بيروت سنة (١٩٥٤) وكان موضوعها «فلسفة تربوية متحدة في عالم عربي متحد» ، وحلقة دراسات التربية للتفاهم العالمي التي انعقدت في اليونسكو ببيروت سنة (١٩٥٥) ، ورأَسَها عبد العزيز القوصي ، فمثل هذه المؤتمرات لا يقصد بها إلا السيطرة على التعليم في العالم العربي وتوجيهه وجهة لا دينية تؤدي إلى ضياع الجيل القائم والجيل القادم ضياعًا لا تقوم معه نهضة في هذه المنطقة ، مما يمكن لليهود ولشيعتهم الذين يتولونهم من دول الاستعباد الغربي والأمريكان منهم خاصة ، وذلك بترويج بعض الآراء والأساليب التربوية والنفسية المنحرفة الفاسدة[(١)] .

ومن أمثلة تلك المؤتمرات التي تحولت برامجها وتوصياتها ـ في هذا المجال

= الدين أبو هلالة (ص٦٢) هامش ، نقلًا عن محمد عبد الله السمان ، مفتريات اليونسكو على الإسلام .

(١) حصوننا مهددة من داخلها د/ محمد محمد حسين ، (ص١٩٩) ، المكتب الإسلامي ، بيروت ط الرابعة ، (١٣٩٧هـ ، ١٩٧٧م) .

الذي نحن بصدده ـ إلى تطبيق عملي في بلادنا ، ما قامت به منظمة مشبوهة ، تدعى «منظمة الإسلام والغرب» التي تكونت تحت رعاية اليونسكو ومنظمة التعليم والثقافة التابعة لجامعة الدول العربية «الأليسكو» حيث عقدت ندوة استشارية حول التوصل إلى تفاهم أفضل بين الإسلام والغرب في فينسيا «البندقية» بإيطاليا في المدة من (١٦ ـ ٢٠) أكتوبر (١٩٧٧) ، وفي المدة من (٣ـ ٦) أكتوبر (١٩٧٩) ، عقد المؤتمر التأسيسي لجمعية «منظمة الإسلام والغرب» حيث أصدرت برنامجًا حظي بالقبول ، وكان عنوانه «مراجعة كتب تدريس التاريخ وتطوير المادة التعليمية ، بوصفها السبيل إلى تفاهم أفضل بين الإسلام والغرب ، وقد تم لهم تحقيق ما رموا إليه ـ وفق طريقتهم هم ـ في بلادنا مصر على يد وزير التعليم [1] الذي شارك في أعمال هذه المنظمة المشبوهة ، ثم قام على مدى سنوات توليه وزارة التعليم بمصر ، والتي بلغت نحو أربع سنوات ، هي نفس المدة التي حددتها المنظمة من قبل لإلغاء تدريس التاريخ الإسلامي في التعليم الابتدائي ، الذي أحل محله التاريخ الفرعوني وغير ذلك من اختزال أو تشويه ، أو محو للحس الإسلامي من مادة التاريخ وغيرها ، تحت الشعار الذي رفعه ، وهو «تطوير التعليم» [2] .

وهكذا نرى كيف أن هذه المؤتمرات المرتبطة بتلك المنظمات المشبوهة ، تفرز مخططات تستهدف عقيدة الأمة وتاريخها وشريعتها في التعليم ، كما يتبين ذلك من تأمل ما يحدث في مصر في السنوات الأخيرة ـ على سبيل المثال ـ مما عرف

(١) هو د/ أحمد فتحي سرور ، الذي عُيِّن بعد ذلك رئيسًا لمجلس الشعب المصري .

(٢) التطوير بين الحقيقة والتضليل ، د/ جمال عبد الهادي ، أ/ علي لبن (ص٢٧ ـ ٣٠) بتلخيص وتصرف ، الوفاء للطباعة والنشر ، (١٤١١هـ ، ١٩٩١م) .

بتطوير التعليم .

والحقيقة أن مبدأ التطوير الذي يستهدف المراجعة والتمحيص لواقعنا في شتى المجالات ، لتفادي السلبيات والوصول إلى الإيجابيات ، والانتفاع من تجارب الماضي في صياغة المستقبل ، ونحو ذلك ، لا يختلف اثنان على أهميته وفائدته ، ولكن أن يكون التطوير طمسًا لهوية الأمة ، وتشويهًا لشخصيتها الإسلامية ، وتنفيذًا لمخططات أعدائها ، وامتدادًا لمكرهم ، فهذا ما يسترعي الانتباه ، ويستلفت الأنظار ، ويتطلب الوقوف في وجه مثل تلك المحاولات ، والتحذير منها .

ولقد كشفت الدراسات عن « أن عملية تطوير المناهج والمواد التعليمية باشرها مركز له كيانه المستقل منذ سنة (١٩٩٠) ، وهذا المركز أنشئ بأموال المعونة الأمريكية ، وطبقًا لما نشر فقد اشترك في عملية «التطوير» (٢٩)أستاذًا ومستشارًا أمريكيًا يعملون بمركز تطوير التعليم في واشنطن [١] .

ولنلتقط بعض الصور السريعة مما حدث في التعليم ، من تفريغ للمناهج من المحتوى الإسلامي في ظل «التطوير» :

المرحلة الابتدائية : ألغي التاريخ الإسلامي وتقرر بدلًا منه التاريخ الفرعوني ، ليتخذ التلاميذ مثلهم الأعلى رمسيس الثاني الذي قال : «أنا ربكم الأعلى» ، لماذا يحل تاريخ الوثنية والخرافة محل تاريخ الإسلام بعد أن هدانا الله إليه ؟

المرحلة الإعدادية : ألغي أكثر من ثلثي كتاب التاريخ الإسلامي ليحل محله

---

(١) فتنة في الأرض وفساد كبير ، فهمي هويدي ، مقال بجريدة الخليج الإماراتية (ص٧) ، العدد (٥٠٧٨) الثلاثاء (١٥ شوال ١٤١٣هـ ، ٦ أبريل ١٩٩٣م) .

تاريخ الوثنيات القديمة «ومنها الفراعنة للمرة الثانية» ، أما الثلث الباقي فقد اختصر فيه التاريخ الإسلامي اختصارًا مخلًّا يشوه ويحرف معظم الأحداث .

المرحلة الثانوية : معالم التاريخ الإسلامي والوسيط ، أضيفت كلمة «الوسيط» أي : أضيف تاريخ أوروبا في القرون الوسطى وهي عصور الظلام ، أقحمت هكذا على التاريخ الإسلامي ، وبسبب ذلك انكمش تاريخ عمر بن الخطاب ، فصار نصيبه (٧) أسطر فقط ، وبالمثل صار نصيب عثمان بن عفان (٥) أسطر ، وهكذا شوهت أحداث التاريخ الإسلامي .

كتاب الإنجليزي الجديد : ألغي تاريخ صلاح الدين وكل ما يربط الطالب بوطنه وقيمه وتاريخه ـ وتقرر بدلًا من ذلك موضوعات عن الرقص والغناء والميسر ، وكل ما يربطه بالحضارة الغربية المهترئة [١] .

وثمة كتاب في التربية الوطنية بعنوان «يقظة المجتمع المصري» مقرر على الصف الثاني الثانوي ، يتحدث عن التأثير المتبادل بين الحضارتين : العربية الإسلامية ، والأوروبية ، ألغي التطوير في طبعته أثرَ الحضارة الإسلامية في المجتمع المصري الحديث ، وأبقى على الصورة الأخرى ، أي : على أثر الحضارة الأوربية في المجتمع المصري الحديث ، وفي طبعة تالية أعيد جزء هش من الفصل الملغي ، في صفحة ونصف من القطع الصغير ، بينما كان في الأصل ست صفحات من القطع الكبير .

أما التأثير الأوروبي على المجتمع المصري ، فقد أفرد له الكتاب ضِعفَ مساحة التأثير الإسلامي على الحضارة الغربية ! الأمر الذي يضخم من شعور

---

(١) التطوير بين الحقيقة والتضليل ، (ص١٠) .

الطالب بالدونية في تعامله مع النموذج الغربي ، ويفقده ثقته في ذاته وأمته ، وحيث يضعف لديه الوعي بما أنجزته الحضارة الإسلامية والعربية وأضافته إلى الذات الإنسانية .

عندما يطالع المرء هذه الخريطة في مجملها ، فإنه يلاحظ من ناحيةٍ : ذلك الجهد الحثيث المبذول لطمس هوية الطفل وتجريح علاقته ببيئته ومجتمعه ، ثم يلاحظ من ناحية ثانية جهدًا آخر موازيًا لتهوين علاقته عندما يكبر بالإسلام معرفيًّا وحضاريًا ، إزاء ذلك ، فإنه لا يستطيع أن يفترض البراءة فيما تم ، بل لعله لا يستطيع أن يخفي توجسه الشديد مما جرى وقلقه الأكبر من عواقبه [1] .

ومن خلال ما سبق يتضح لنا كيف يأخذ الغزو الفكري طريقه إلى التعليم الوطني في بلاد المسلمين .

*****

(١) فتنة في الأرض «السابق» .

المبحث الثاني
التعليم الأجنبي

والمقصود به التعليم الذي لا يرتبط بالسياسة التعليمية ، ولا يتقيد بمناهج التعليم في القطر الذي يوجد فيه ، وإنما يسير وفق سياسة تعليمية ومناهج مختلفة ، ويكون تابعًا لجهة أجنبية .

وهذا النوع من التعليم نشط في العصر الحديث ، وخاصة في عهد الاستعمار الغربي ، وفترة ضعف الدولة العثمانية ، نشاطًا خطيرًا ، وسرى في ربوع العالم الإسلامي سريان النار في الهشيم ، وانتشر كالريح العقيم : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات:٤٢] .

تاريخ التعليم الأجنبي :

وهذا التعليم ارتبط ارتباطًا كبيرًا بالإرساليات [١] التبشيرية ؛ ولذا يرى الباحثون أن تاريخ الأعمال التبشيرية في البلاد الإسلامية ، إلى حد كبير ، تاريخ للتعليم الأجنبي [٢] .

---

(١) الإرسالية : تعني جماعة من المنصرين يقومون بنشر المسيحية في إقليم معين ، وتضم الإرسالية عادة عدة مراكز يختص كل منها بالعمل في مدينة معينة يطلق عليها «المركز التبشيري» أو «مركز التبشير» ، كما توجد مراكز فرعية على مستوى القرى ، والمبدأ العام لمفهوم التنصير هو قيام الإرساليات بتنصير منطقة معينة ، وإنشاء كنيسة وطنية تؤول رعايتها تدريجيًا للسكان الوطنيين الذين يتولون بدورهم مهام التنصير .
انظر : الإذاعات التنصيرية الموجهة إلى المسلمين العرب ، د/ كرم شلبي (ص٤٨) هامش ، مكتبة التراث الإسلامي ، القاهرة ، ط الأولى (١٤١٢هـ ، ١٩٩١م) ، نقلًا عن إبراهيم عكاشة ، التبشير النصراني في جنوب السودان ، وادي النيل ، (ص٢٤، ٢٥) .

(٢) التبشير والاستعمار (ص٦٩) بتصرف .

ويرجع تاريخ التبشير المسيحي إلى صدر النصرانية ومبتدأ تأسيسها ، وكان «ريمون لول» الأسباني هو أول من تولى التبشير بالنصرانية بعد أن فشلت الحروب الصليبية في مهمتها ، فتعلم «لول» اللغة العربية بكل مشقة ، وجال في بلاد الإسلام وناقش علماء المسلمين في بلاد كثيرة [١] .

ولا يَسمح المقام بتتبع مسيرة التبشير «التنصير» في العالم الإسلامي حتى العصر الحديث ، ولكن نتوقف بعض الشيء عند القرنين الأخيرين ، حيث انتشرت فيهما جمعيات تنصيرية كثيرة كان لها الأثر الواضح في انتشار التعليم الأجنبي ، وميلاده في أماكن لم يكن فيها من قبل .

فقد شهدت السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر ظهور كثير من الجمعيات التبشيرية التي كرست نفسها لحمل الإنجيل إلى جميع البشر [٢] ، ثم تأسست جمعيات كثيرة تباعًا ، حتى عصرنا الحاضر :

« فتأسست سنة (١٧٩٥) جمعية لندن التبشيرية ، ثم تأسست جمعيات على شاكلتها في «أسكوتلندا» و«نيويورك» وانتشرت هذه الفكرة في ألمانيا والدانمرك وهولندة والسويد والنرويج وسويسرا وغيرها ، وتعذر على الفرنسيين أن يقوموا بشيء من هذا القبيل ؛ لانشغالهم بالثورة التي آلت إلى الانقلاب المشهور .

وتأسست جمعيات فرعية كثيرة مثل «جمعية التبشير في أرض التوراة العثمانية» .

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي (ص١٢، ١٣) بتصرف .

(٢) الخنجر المسموم ، (ص٢٠) ، نقلًا عن تقرير للأستاذ نبيه أمين فارس ، مجلة الأبحاث ، أيلول (١٩٥٨ م١١ ص٣٨٣) .

وفي سنة (١٨٨٥) أسست «جمعية الشبان المسيحيين» من الإنكليز والأمريكان ووظيفتها إدخال ملكوت المسيح بين الشبان، وعقد تلاميذ المدارس النصرانية في «نورثفيلد» مؤتمرًا اجتمع فيه (٢٥٠) مندوبًا عن (٨٠) مدرسة تكفلت بتقديم (١٠٠) شاب للتطوع في نشر الدين المسيحي، ومن هؤلاء تألفت «جمعية الشبان المتطوعين للتبشير في البلاد الأجنبية»، ثم تبع ذلك تأسيس جمعيات التبشير في كل بلاد البروتستانت، وفي سنة (١٨٩٥) تأسست «جمعية اتحاد الطلبة المسيحيين» في العالم، وهي تهتم بدرس أحوال التلاميذ في كل الأقطار وبث روح «المحبة» بينهم، فالتحق بها (١٠٠.٠٠٠) طالب وأستاذ يمثلون أربعين قومًا، فنشأ عن وجود هذا العدد العظيم ميل إلى الانتفاع به، وذلك أن تأسست سنة (١٩٠٢) «جمعية تبشير الشبان» ومن وظائف هذه الجمعيات الأخيرة استمالة النساء والبنات والشبان والطلبة إلى استماع صوت المبشرين، ثم تقرر سنة (١٩٠٧) أن تؤسس جمعية أخرى لتبشير الكهول، فأسست وأخذت تباشر أعمالها وترفع التقارير بهذا الشأن »[1].

وعلى هذا المنوال أخذت تلك الجمعيات والهيئات في الظهور، ثم في العمل الجاد لمكافحة الإسلام في كل صقع من الأصقاع، حتى غدت بإمكانيتها، وأجهزتها والعاملين فيها من المنصرين، كأنها جيش، بل هي كذلك.

وأخذت المدارس الأجنبية في الظهور بكثرة خلال القرنين الأخيرين، وساعد على انتشارها، والتمكين لها وجودُ الاستعمار الذي طوق العالم الإسلامي، وبسط نفوذه على أجزاء شاسعة منه، وكذلك بعض الحكام العملاء للغرب، خاصة المستغربين منهم.

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي (ص١٤).

يقول المستشرق «هاملتون جب» في كتاب «وجهة الإسلام» :

إن إدخال طرائق جديدة في البلاد الإسلامية كان سيتطلب نظامًا جديدًا في التربية من عهد الطفولة في المدارس الابتدائية والثانوية قبل الانتقال للدراسات العالية ، وإن إصلاح التعليم على هذا النحو لم يكن في ذلك الوقت يخطر على بال السلطات المدنية الإسلامية ، ولكن هذا الفراغ ملأه هيئات أخرى ، فقد انتشرت في منتصف القرن التاسع عشر شبكة واسعة من المدارس في معظم البلاد الإسلامية ولاسيما في تركيا وسوريا ومصر ، وذلك يرجع غالبًا إلى جهود جمعيات تبشيرية مسيحية مختلفة ، وربما كان أكثرها عددًا المدارس الفرنسية ، وقد كانت المدارس الإنجليزية في الإمبراطورية العثمانية أقل منها في الهند ، وكانت المدارس الهولندية قاصرة على جزر الهند الشرقية .

هذه المدارس صاغت أخلاق التلاميذ وكونت أذواقهم ، والأهم أنها علمتهم اللغات الأوروبية التي جعلت التلاميذ قادرين على الاتصال المباشر بالفكر الأوروبي ، فصاروا في سبيل حياتهم مستعدين للتأثر بالمؤثرات التي فعلها أيام الطفولة «أي : التعليم على الطريقة المسيحية» [١] .

ولقد بدأ الأثر الفعال للتعليم الأجنبي في مصر في عهد محمد علي ، فإنه إلى أن غزا نابليون مصر في سنة (١٧٩٨م) ، لم يكن للمبشرين أثر يذكر في التأثير على أبناء البلاد العربية ، فلما تولى محمد علي أمر مصر ، وزينت له نفسه أن يستقل بها، وأغراه طموحه أن يجعلها تناصي دار الخلافة في تركيا، انثال [٢] عليه

(١) الخنجر المسموم (ص٢٧) .

(٢) (انثال) انصبّ وانهال ، ويقال: انثال عليه الناس اجتمعوا ، وأتوْه من كل ناحية وانثالت عليه الأفكار: تتابعت فلم يَدْر بأيها يبدأ ، وانثالت عليه العبارات : تتابعت=

قناصل الدول ليشدوا أزره ، وليحطموا بمعاول جيشه صرح الخلافة العثمانية ، فعاونوه على إنشاء المدارس واستقدم لها المعلمين ، وأرسل البعثات إلى أوروبا منذ سنة (١٨٢٦) ، وبعد قليل بدأت طلائع إرساليات التبشير تفد إلى مصر ، وتنشئ المدارس وتحدث في بيوت المسلمين وغير المسلمين صدعًا كان يصعب اتقاؤه يومئذٍ لقلة المنتبهين إليه [1] .

ولقد نشطت المدارس التنصيرية من بعد ذلك في ظل أبنائه ، ولقيت في رحابهم من العطف والعون الكثير .

ولقد أغدق إسماعيل [2] الهبات على بعثات التبشير الفرنسية المتعاونة مع الاستعمار من الصين إلى أعماق إفريقيا .

وفي رسالة مسيو «بوجاد» قنصل فرنسا في مصر ، (٢/ ٥/ ١٨٦٩) : إن إسماعيل منح رئيس أساقفة اللاتين بمصر قطعة أرض مساحتها (٣٥٠٠ذراع) في موضع حسن جدًّا (١٥٠ ألف فرنك ذهب) ومنح الراهبات إعانة سنوية (٦ آلاف فرنك ذهب) ، وهبة (٢٠٠ ألف فرنك) ومنح أساقفة اللاتين منحة أخرى هي أرض مساحتها (٦ آلاف ذراع) ، وكانت منذ عام (١٨٦٧) قد

= وكثرت فلم يدر بأيها ينطق . و (تناثل) القومُ إلى فلان : اجتمعوا إليه من كل صوب . المعجم الوسيط ، مادة (ثال) ومادة (نثل) .

(١) أباطيل وأسمار ، (ص١٨٨، ١٨٩) .

(٢) هو إسماعيل باشا (١٨٣٠ ــ ١٨٩٥م) : الخديوي والي مصر من عام (١٨٦٣ ــ ١٨٦٧م) وخديوي مصر من عام (١٨٦٧ ــ ١٨٧٩م) الابن الأكبر لإبراهيم باشا ، خلف عمه سعيد باشا في حكم مصر ، افتتح قناة السويس عام (١٨٦٩م) ، ارتبكت مالية مصر في عهده ، باع أسهم مصر في قناة السويس لإنجلترا عام (١٨٧٥م) ، عزله السلطان عبد الحميد في يونيو عام (١٨٧٩م) ، انظر : مذكرات السلطان عبد الحميد ، تقديم وترجمة ، د/ محمد حرب (ص٢٧٢) من حواشي المترجم .

بدأت مدارس الاستعمار الفرنسي والبريطاني في العمل في مصر ، وجميع عملاء الغرب من رجال الخديوي إسماعيل إنما صنعتهم هذه المدارس «المحافل الماسونية [مع] المدارس التبشيرية »[١] .

وهكذا كانت الظروف في صف الخصوم ، ومشجعة لهم على نشر هذه المدارس بما تحمله من سموم فكرية يتجرعها أبناء المسلمين .

فالدولة العثمانية ؛ إذ ذاك كانت في حالة ضعف لا تحسد عليها ، أثخنها الخصوم بالجراح ، وأطلقوا عليها «الرجل المريض» .

والاستعمار ناشب أظفاره ومخالبه في العالم الإسلامي ، ويحمي مؤسسات التنصير هنا وهناك .

وثلة من الحكام المتفرنجين أو المستغربين ، أو الجهلاء ، يقدمون المساعدات .

ثم إن كثيرًا من المسلمين يقبلون عليها لتعليم أولادهم ؛ نظرًا لضيق ذات اليد أو رغبة في تعليم أفضل ؛ إذ ينبهرون بنظمها وينخدعون ببريقها ، فيعدون التعليم فيها ميزة ، فنشأ عن ذلك انتشار شبكة واسعة من المدارس في معظم البلاد الإسلامية ، كما قال «جب» المستشرق منذ قليل[٢] .

وإن من أشهر المؤسسات التعليمية في الشرق العربي جامعة القديس يوسف

---

(١) معالم التاريخ الإسلامي المعاصر ، أنور الجندي (ص٥٦) ، هذا : وكان هدف إسماعيل الأكبر أن يجعل مصر قطعة من أوروبا ، الاتجاهات الوطنية (٢/ ١٩٠) .

(٢) لمعرفة المزيد عن حجم هذه المدارس وانتشارها في بلاد المسلمين ، ينظر المراجع التالية :

أ ــ الغارة على العالم الإسلامي .

ب ــ معالم التاريخ الإسلامي المعاصر (ص١٥٠) .

جـ ــ التبشير والاستعمار ، الفصلان الثالث والرابع .

د ــ مسار الدعوة الإسلامية في لبنان ، (ص٢١، ٢٢) .

في لبنان ، وهي جامعة بابوية كاثوليكية تعرف الآن «بالجامعة اليسوعية» .

والجامعة الأمريكية التي كانت من قبل تسمى «الكلية السورية الإنجيلية» ثم كلية بيروت ، وقد أنشئت في عام (١٨٦٥) ، وهي جامعة بروتستانتية .

والكلية الأمريكية بالقاهرة التي أصبحت فيما بعد «الجامعة الأمريكية» هناك والكلية الفرنسية في لاهور ، وأسست في لاهور باعتبار أن هذا البلد يكاد يكون البلد الفريد في تكوينه في شبه القارة الهندية [١] .

خطورة التعليم الأجنبي ودوره في الغزو الفكري :

ولقد أفصح الخصوم عن ضرورة إيجاد هذا التعليم ، وأشاروا إلى دوره الخطير في الغزو الفكري :

يقول بنروز [٢] رئيس الجامعة الأمريكية :

«ولقد برهن التعليم على أنه أثمن الوسائل التي استطاع المبشرون أن يلجؤوا إليها في سعيهم لتنصير سوريا ولبنان » [٣] .

ويقول المبشر تكلي :

« يجب أن نشجع إنشاء المدارس ، وأن نشجع على الأخص التعليم الغربي ، إن كثيرين من المسلمين قد زعزع اعتقادهم حينما تعلموا اللغة الإنكليزية ، إن الكتب المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقي مقدس أمرًا صعبًا

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، د/ محمد البهي (ص٤٢٧، ٤٢٨) .

(٢) هو ستيفين ب . ل . بنروز ، صليبي متعصب عمل رئيسًا للجامعة الأمريكية ببيروت في الفترة ما بين عامي (١٩٤٨ ــ ١٩٥٤) ، توفي في التاسع من كانون الأول (١٩٥٤) ، التبشير والاستعمار (ص٤٦ ــ ١٠٨) بتصرف .

(٣) السابق (ص٤٦) .

جدًّا »[١] .

وجاء في بعض تقارير التبشير التي عرضت ودرست في مؤتمر القاهرة التبشيري سنة (١٩٠٦) :

«والتعليم المدرسي والتربية الأخلاقية اللذين يعني بهما المبشرون قد أسفرا عن نتائج جمة ، وأثمر ثمرات نافعة في الأطفال والمراهقين على السواء»[٢] .

وقد قال أحد المبشرين : المدارس هي من أحسن الوسائل لترويج أغراض المبشرين[٣] .

وهم يهتمون بمدارس الصغار والبنات خاصة :

يقول المبشر «جون موط» :

يجب أن نؤكد في جميع ميادين «التبشير» جانب العمل بين الصغار وللصغار .

ويقول : « إن الأثر المفسد في الإسلام يبدأ باكرًا جدًّا ، من أجل ذلك يجب أن يحمل الأطفال الصغار إلى المسيح قبل بلوغهم الرشد وقبل أن تأخذ طبائعهم أشكالها الإسلامية »[٤] .

ونشر الكاتب الفرنسي الشهير «مسيو اتين لامي» مقالًا في مجلة «العالمين» الفرنسية بالعدد الصادر في (١٥ سبتمبر ١٩٠١) ، فقال بالحرف الواحد :

« إن طريقة تربية أولاد المسلمين وإن كان لها من التأثير ما بيناه ، فإن تربية

---

(١) السابق (ص٨٨) .

(٢) الغارة على العالم الإسلامي (ص٣٦) .

(٣) السابق (ص٣٧) .

(٤) التبشير والاستعمار (ص٦٨) .

البنات في مدارس الراهبات أدعى لحصولنا على حقيقة القصد ، ووصولنا إلى نفس الغاية التي وراءها نسعى ، بل أقول : إن تربية البنات بهذه الكيفية هي الطريقة الوحيدة للقضاء على الإسلام بيد أهله »[١] .

والدول الغربية لا زالت تولي هذا التعليم جل عنايتها ، وتمده بالنفقات اللازمة ، وتقدر دوره في خدمتها .

تقول مجلة وول ستريت (١٩٧٣) : إن المساعدات الحكومية إلى الجامعة الأمريكية في بيروت بلغت (١٠٧) مليون دولار خلال العشرين سنة الأخيرة ، وإن أهمية هذه الجامعة تقاس بحجم خدمتها إلى صناعة النفط في هذه المنطقة[٢] .

ونعود إلى اهتمامهم بالأطفال ، فإنهم يهتمون بمدارسهم «لأن التعليم الديني في هذه المدارس يجعلها بابًا مفتوحًا للتبشير وللتأثير في عقول الأطفال الغضة ، ثم إن الذين يشرفون على رياض الأطفال يكونون أكثر اتصالًا بأهل الطلاب من الذين يشرفون على المدارس العالية ، وكذلك التعليم الابتدائي وسيلة ثمينة للتبشير ؛ لأنه يمكن المبشرين من أن يثبتوا أقدامهم في القرى تحت ستار التعليم الابتدائي الذي تحتاج إليه القرى في الدرجة الأولى ، وللمدارس الابتدائية فضل على الكليات ؛ لأنها تمكن المبشر من أن يصل إلى العقول ، وهي لا تزال تتأثر بما يلقى إليها ، ثم إن المدارس الابتدائية كرياض الأطفال تساعد أن يتصل المبشرون بأهل الطلاب ، وأكثر ما وصل إليه المبشرون البروتستانت إنما كان عن طريق المدارس الابتدائية .

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام ، عبد الله ناصح علوان ، (٢/ ٧٥٧، ٧٥٨) ، الناشر دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط السابعة (١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م) .

(٢) معالم التاريخ الإسلامي المعاصر (ص١٥٣) .

أما اليسوعيون خاصة ، فيجعلون الصفوف الدنيا في عهدة الراهبات ؛ لأن الطلاب «الصغار» هم فسائل «شتل» تغرس فيما بعد في الكليات ، فيجب أن تكون هذه الفسائل مطبوعة طبعًا خاصًا »[1] .

ولقد تبين أن هذا التعليم بكل مراحله ، لم يكن يهدف إلى تعليم العرب والمسلمين العلم الحديث ، وإنما كانت له أهداف أخرى ، أفصح عنها دهاقنة التبشير ، كما أعلن المبشر «هنري جب» رؤيته لهذا الأمر ، « فهو يرى أن التعليم في «مدارس» الإرساليات المسيحية إنما هو واسطة إلى غاية فقط ، هذه الغاية هي قيادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفرادًا مسيحيين وشعوبًا مسيحية ، ولكن حينما يخطو التعليم وراء هذه الحدود ؛ ليصبح غاية في نفسه وليخرج لنا خيرة علماء الفلك وطبقات الأرض وعلماء النبات ، وخيرة الجراحين والأطباء في سبيل الزهو العلمي ، فإننا لا نتردد حينئذٍ في أن نقول : إن رسالة مثل هذه قد تخرجت عن المدى التبشيري المسيحي إلى مدى علماني محض ، إلى مدى علمي دنيوي ، مثل هذا العمل يمكن أن تقوم به جامعات «هايدبرغ وكمبردج وهارفرد وشيفيلد» ، لا الجمعيات التبشيرية التي تسعى إلى أهداف روحية فحسب »[2] .

ولقد سجل هذه الحقيقة المؤرخون ، خاصة من بحثوا في تاريخ التعليم الأجنبي ، ونستشهد هنا بدراسة واحد من بني جلدتهم ، أقر بهذه الحقيقة :

فقد كتب جرجس سلامة كتابًا حول تاريخ التعليم الأجنبي في مصر في القرنين التاسع عشر والعشرين ، وأقر في مقدمته أن هذا التعليم قد بدأ في مصر

---

(١) التبشير والاستعمار (ص٧٨، ٧٩) .

(٢) السابق (ص٦٦، ٦٧) .

لأغراض دينية بحتة [١].

إن هذه الحقيقة التي وقفنا عليها، وتجلت واضحة كالشمس في ضحاها، من خلال إفصاح الخصوم عن أن هدف المدارس الأجنبية إنما هو التنصير، وتخريب العقيدة الإسلامية في نفوس الكبار والصغار من الذكور والإناث، وتحطيم معنوياتهم ومقومات حياتهم الإسلامية، ليحتم علينا نحن المسلمين، أن نحمي أولادنا منه، ونقف وقفة حاسمة في وجه أخطاره؛ لنقي منها العباد والبلاد.

ولربما يقول قائل: بأن الظروف قد تغيرت الآن لغير صالح هذا التعليم وواجه تضييقًا ولم يعد حرًّا طليقًا من كل قيد، بل ألغيت المدارس التبشيرية في بعض البلاد الإسلامية [٢]، فلم يعد مصدر خطر كما كان من قبل.

والحقيقة أن هذا التعليم لا تزال أخطاره قائمة، فهو لم يُلغ في كل البلاد الإسلامية، بل لا زال قائمًا متبجحًا في أقطار إسلامية كثيرة، فهذه مدارس تدرس المناهج البريطانية وأخرى تدرس المناهج الفرنسية، وثالثة تدرس المناهج الأمريكية، ولا زال أبناء المسلمين وآباؤهم من قبلهم في تلك الأقطار، يتهافتون على هذه المدارس تهافت الفراش على النار، هذا أولًا.

وثانيًا: إن القائمين على أمر هذه المدارس من الخبث بمكان، بحيث يستطيعون أن يتأقلموا، ويتماشوا مع الظروف، فإن لم تسمح الظروف في بلد ما بأن يفصحوا عن أنفسهم سافرين، فليكن العمل التنصيري مستترًا بستار ما،

---

(١) يراجع ما قاله جرجس سلامة في كتاب: أباطيل وأسمار (ص١٨٧).

(٢) في سنة (١٩٥٦) ألغيت المدارس التبشيرية في مصر والسودان، وطلب إليها إذا كانت تريد أن تستمر في هذين البلدين أن تتقيد بأنظمة الحكومتين وبمناهجهما، التبشير والاستعمار (ص١١١) هامش.

والأنشطة التعليمية لا تصطدم بشكل مباشر بالأنظمة الحكومية المفروضة في التعليم.

وثالثًا: إن التعليم ليس فقط هو الكتب التي تدرس، فإذا ما فرض على هذه المدارس في قطر ما أن تكون مناهجها التي تشتمل عليها الكتب المدرسية، على نمط ما، فإن هناك أمورًا أخرى لا تفرض عليها قيود بخصوصها، وهذه الأمور تدخل ضمن العملية التعليمية، ويمكن بسهولة أن تؤدي أهدافهم، وأن يسخروها لتوصل للطلاب وتؤصل في نفوسهم ما يريدون؛ وفقًا لأهدافهم التي ذكرناها عنهم منذ قليل.

فهناك على سبيل المثال: مما يدخل ضمن العملية التعليمية: البيئة التعليمية، وهي «تبدأ من باب السور الخارجي للمؤسسة التعليمة «دار حضانة ـ مدرسة ـ معهد ـ جامعة ـ إلى غير ذلك»، وتستمر حتى آخر موقع قدم فيها، وتتبعها ملحقاتها الخارجة عن حدود سورها، كالملاعب الرياضية، ومراكز النشاطات الفنية والعلمية والأدبية، ومهاجع النوم ودور السكن للطلاب الداخليين والطالبات الداخليات، وكذلك الذين لهم سكن حر أو تحت الإشراف ملحق بالمؤسسة، حتى المطاعم والمشارب، وأندية التسلية والحدائق العامة الملحقة بالمؤسسة أو المخصصة لها.

وتشتمل البيئة التعليمية ما يكون في موقعها من توجيه مباشر أو غير مباشر مقروء أو مسموع، وأنظمة الحضور ضمن هذه المواقع، وما يسمح فيها وما لا يسمح، ومن أنظمة الحضور ما يتعلق بألبسة الدارسين والدارسات، وبمواقيت الدخول والخروج، وحرية الاختلاط بين صنفي الذكور والإناث أو عدم ذلك، وحرية اللقاءات الثنائية، أو عدم ذلك، إلى غير ذلك من أمور

كثيرة يصعب حصرها جميعًا ، تشمل مختلف أنواع السلوك الإنساني الفردي أو الجماعي وما يوضع لها من قيود ، وما يترك لها من حرية» [(١)] .

وهناك المدرس الذي يقوم بالتدريس للطلاب ، ويكون على اتصال دائم بهم ، وهو يعتبر وسيلة فعالة وأساسية في بث ما يراد من آراء في مجال التعليم ، والمدارس الأجنبية تحرص دائمًا على ألا يعمل فيها إلا المدرس النصراني ، ولا يعمل فيها مسلم إلا اضطرارًا ، ولا شك في أنه لا يمكن أن يكون هناك وجود لمعلم مسلم يلقن التلاميذ ما يدحض مفتريات أولئك الخصوم ، وقد ذكر صاحبا كتاب «التبشير» ، و«الاستعمار» أن جميع المدارس الأجنبية لا تزال تسير على سياسة الاستغناء عن المعلم المسلم ما أمكن ، حتى الكلية العلمانية [(٢)] .

ويحسن أن أقدم هذين المثالين توكيدًا لما ذكرت ، والمثال الأول تدليل على أن هذه المدارس تستطيع أن تتأقلم مع كل الظروف ، وأقدمه من السودان الذي ألغيت فيه المدارس التبشيرية إلا أن تتقيد بأنظمة الحكومة ، حيث يبين لنا كيف استطاعوا أن يلتفّوا على هذا القرار ، والمثال الثاني تدليل على أنهم لا يسمحون بمدرس يعرض الوجهة الصحيحة التي تدمغ باطلهم .

فأما المثال الأول :

فيرويه الشيخ عبد الرحمن الأمين ، السوداني ، وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، فيقول :

أرجو أن أقص على حضراتكم واقعة ، تدلكم على حيل المبشرين ومكرهم ،

---

(١) غزو في الصميم ، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، (ص٧٧) .

(٢) التبشير والاستعمار (ص٧١) .

فقد أردت أثناء مروري في بحر الغزال : أن أزور مركز «راجا» ، وهو مركز تسكنه قبيلة مسلمة ضمن سكانه الوثنيين والمسيحيين ، وبالمركز كنيسة كبيرة ، حاولت إنشاء مدرسة في مدينة «حورشهام» عاصمة القبيلة المسلمة ، فعارض عمدة القبيلة ونشبت بينه وبين القسيس محاورة حادة ، فتدخل مفتش المركز مؤيدًا القسيس ، ويحاول الضغط على العمدة لقبول مدرسة الكنيسة بين قومه المسلمين ، ولما أصر العمدة نفاه المفتش وبموافقة الحكومة المركزية بالخرطوم إلى مديرية دار فور ، وعين أخاه بدله ، فأذعن الأخ لأوامر المفتش ورغبة القسيس ، وبعد أن تعهدوا له بأنهم لا يعلمون الدين المسيحي ، وكانت المدرسة يؤمها عدد كبير من أبناء المسلمين ، فلما أخبرت مدير بحر الغزال بأنني سأزور «راجا» ، قال لي : إن «راجا» تبعد (٢٥) ميلًا من «واو» ، وتبعد مسافة أكثر من ذلك من حدود دار فور ، فلا وسيلة من تعليم أبنائها إلا بواسطة الإرسالية ، وقد أذنت للإرسالية أن تفتح مدرسة بحور شهام ، وتعليم أولاد المسلمين التاريخ والجغرافيا والرياضة والصحة واللغة الإنجليزية ، وحظرت بشدة أن يدخل في المدرسة أي درس ديني ، فإذا وصلت «راجا» أرجو أن تزور المدرسة ، لتقف على هذه الحقيقة ، وتزول الشكوك من أذهان بعض المتعصبين الذين يظنون أن مجرد تبعية المدرسة إداريًا للإرسالية معناها التنصير ، فوعدته أن أزور المدرسة مصحوبًا بالعمدة ، وبعض كبار الوطنين ، وفعلًا تمت الزيارة التي استغرقت يومًا دراسيًا كاملًا ، حضرت أثناءه كل الحصص في كل الدروس ، فذهبت كل الدهشة ؛ لأن جدول الحصص خالٍ من أي مادة دينية ولكن الدروس كلها ، باستثناء مادة الحساب هي في الواقع دروس دينية مسيحية ، فالتاريخ كله يتعلق برحلات المسيح والحواريين ،

وسير المسيحية من قطر إلى قطر ، والصحة كلها تتعلق بالشفاء ببركة المسيح ومسه للمصابين ، وشفاء المرضى بدعوته وصلواته ، والجغرافيا كلها تتعلق بدراسة الرقعة المسيحية بوجه عام ، ومنطقة فلسطين وسوريا والأردن والفاتيكان بوجه خاص ، والمحفوظات عبارة عن ترتيل الكنيسة ، وتمجيد المسيح ورسله ، والإنجليزية عبارة عن مطالعة من الكتب المسيحية ، والقصص الدينية ، ثم خرجنا من المدرسة وذهبنا إلى الاستراحة ، وأفهمت الجميع أن كل ما سمعته في المدرسة دروس دينية مسيحية ، وأن الطالب حينما يستوعب هذه الدروس ويتخرج من المدرسة ، لابد أن يكون مسيحيًا أو على الأقل مستعدًا لاعتناق المسيحية ، ولا أثر بالمدرسة للغة العربية ، ولا للإسلام ، مع أن الطلبة لغتهم العربية ودينهم الإسلام ، أو هكذا يعتقدون ؛ لأن عربيتهم ركيكة مفككة أقرب إلى الرطانة ، ولأن إسلامهم اسمي يتعصبون له ولا يعرفونه ، واتفقت معهم على إحضار رجل يحفظ القرآن من أقرب منطقة وأن ينشؤوا خلوة لتحفيظ القرآن [1] .

وأما المثال الثاني :

فقد جاء في رسالة بعث بها «نشار أحمد أعظمي» من «كانو» في نيجيريا الشمالية : «إن معظم الأساتذة الكبار هنا أمريكانيون وبريطانيون ، وتعلمون أن التاريخ مادة تضم أبحاثًا يمكن أن تختلف الآراء ووجهات النظر في طريقة عرضها ، ويتعمد هؤلاء عرض نقاط التاريخ الإسلامي بشكل مغاير للحقيقة

---

(١) المسؤولية الإعلامية في الإسلام ، د/ محمد سيد محمد (ص٣٤٤ــ ٣٤٦) ، نقلًا عن الدعوة إلى الإسلام ، المؤتمر السابع لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، (١٣٩٢هـ ، ١٩٧٢م) ، (ص١٤٤، ١٤٥) .

مثل : حياة وتعاليم الرسول الكريم ﷺ ، انتشار الإسلام ، الجهاد ، الصليبيون ، أثر الشعوب الإسلامية في الحضارة الإنسانية ، بيد أن عرضي لوجهة النظر الأصيلة في هذه المواضيع لم يعجب مدير المدرسة البريطاني ، وخيل للرجل أني مبشر ، ومن الجدير بالذكر هنا أن القسم الأكبر من المقرر يتعلق بتاريخ بريطانيا وأوروبا ، وقد أخذ المدير يعاملني كمبشر ويرسل للوزارة تقارير كاذبة ضدي ، فقد استطاع قبل سفره إلى إنكلترا أن ينقلني فعلًا إلى مدرسة أخرى ، وإذ كان كبير المستشارين بشؤون التربية «وهو بريطاني أيضًا» صديقًا حميمًا له ، فقد أخذ المدير يكتب له من إنكلترا ، يذكره بي حتى استطاع أن يصل إلى غايته تقريبًا ، إذ استلمت مؤخرًا إخطارًا بإنهاء مدة عقدي ، وأن عليَّ أن أغادر البلاد .

وأعتقد أن من واجبي قبل أن أغادر البلاد أن أوكد للمسلمين خطورة تدريس التاريخ الإسلامي لتلاميذ لم ينضجوا بعد ، على أيدي المبشرين بطريقة حاقدة مضللة ، تجعل أبناء نيجيريا الشمالية يفقدون كل احترام لماضيهم وأبطالهم وأجدادهم ، ويخجلون من كل ما فعلوه ، وحاربوا من أجله ، وضحوا بأرواحهم في سبيله ، إن السياسة التي تتبعها الحكومة حاليًا أنه لا يسمح إلا لأولئك الذين يلبسون ثياب أساتذة المدارس الرسمية من المبشرين النصارى أن يعرضوا وجهات النظر الحاقدة المضللة في بعض مسائل التاريخ الإسلامي بنفس الطريقة التي استطاع بها المستشرقون الأوربيون أن يجعلوا هذه المواضيع موضع أخذ ورد [١] .

---

(١) مأساتنا في أفريقية ، الحصار القاسي ، وثائق من تاريخنا المعاصر ، د/ عماد الدين خليل (ص٨٨، ٨٩) ، مؤسسة الرسالة ببيروت ، ط الثانية (١٤٠١هـ ، ١٩٨١م) نقلًا عن «المسلمون» ، المجلد التاسع عدد (٥) .

وهكـذا يتبـين لنـا مـن خـلال العـرض الـسابق أن التعلـيم بـشقيه الـوطني والأجنبي يعد من وسائل الغزو الفكـري المعـادي ، وأن كلـيهما بوضـعه الحـالي يتعارض مع ما ننشده لأطفالنا وشـبابنا مـن تنشئه سـوية مـستقيمة عـلى هـدي الإسلام ، وما نرجوه ونتطلع إليه من آمال لأمتنا الإسلامية .

*****

المبحث الثالث
الابتعاث إلى الخارج

لقد حرص أعداء الإسلام على أن يصطادوا أبناء المسلمين الموفدين من قبل بلادهم لتلقي العلم في أوروبا وغيرها ، فحاصروهم وعملوا على زرع أفكار معادية للإسلام في عقولهم ، وللأسف ، فإن منهم من نجح الخصوم في غسل دماغه وإفساد تفكيره ، حتى عادوا بغير القلب الذي ذهبوا به ، أو بوجوه مسلمة عربية ، وقلوب غربية جاحدة .

«وأجهزة الغزو تحاصر هذا القطاع [1] بالوطن ، وبالخارج ، وفي بعض الحالات تكون مسؤوله عن الانتقاء والإشراف على المبعوثين [2] !! ولاشك أنها تحاول اصطياد هؤلاء أثناء دراستهم وتدريبهم على أساس أنهم قادة المستقبل وزعماء الغد .

وهناك عشرات الأمثلة المشهورة والخفية لعملية الانتقاء ، الإعداد ، التجهيز ، والابتعاث ، الإشراف ، العودة ، التصعيد ، المؤازرة ، الدعم .... إلخ ، عشرات الأمثلة توضح دور أجهزة الغزو : تبشيرًا واستعمارًا ومخابرات ، ومراكز ثقافية أجنبية في العمليات السابقة بحيث يعود بعد خمس سنوات جيل

---

(١) أي : قطاع المبتعثين إلى الخارج .

(٢) في حالات كثيرة تختار شركات وهيئات عددًا من الطلاب ، والمتدربين ، وبناء على المنحة أو حتى البعثة الحكومية ، تُشرف هذه الهيئات على طلابنا وتتابعهم ، وتكتب عنهم تقاريرها ، وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، د/ حسان محمد حسان (ص١٩٢) هامش ، دعوة الحق ، سلسلة شهرية تصدر عن الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ، السنة الأولى (١٤٠١هـ) ، شعبان عدد (٥) .

موجَّه ، مشبَّع ، ملقَّن .

ثم تفتح له الأبواب ، وتذلل له الصعاب ، وتقدم له التسهيلات ، وتمهد له الطرق ، وتزال من أمامه العقبات ، وفي النهاية يرقى هذا الجيل سلم النفوذ وموقع القيادة »[١] .

هذا ، وبالنسبة لتاريخ الابتعاث ، فإن « من الأمور التي تزل فيها أقدام كثير من الباحثين تقرير الأوليات بحزم دون استقصاء ، وبناء على هذا ، فلا أستطيع الجزم بأول مبعوث أو بأول بعثة ذهبت من بلاد المسلمين إلى ديار الكفار لتلقي العلم ، ولكننا نستطيع أن نقول : إن أشهر هذه البعثات هي تلك التي كانت أيام محمد علي[٢] والي مصر ، وفي النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري «أي : مطلع القرن التاسع عشر النصراني»[٣] .

ويحدث أحد الباحثين عن موقف يكشف عن آثار الابتعاث ومخاطره ،

---

(١) السابق (ص١٩٢، ١٩٣) .

(٢) محمد علي (١٧٦٩ ــ ١٨٤٩) : والي مصر (١٨٠٥ ــ ١٨٤٨) ومؤسس الأسرة العلوية التي حكمتها حتى عام (١٩٥٢) ، معجم أعلام المورد ، موسوعة تراجم لأشهر الأعلام العرب والأجانب القدامى والمحدثين مستقاة من «موسوعة المورد» تأليف منير البعلبكي ، إعداد الدكتور رمزي البعلبكي (ص٤٢٠) دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الأولى (١٩٩٢م) .
ولقد احتضنته فرنسا احتضانًا ؛ لينفذ لها كل مخططاتها ، وقد قام بدور كبير وخطير في نقل مصر من المرتكز الإسلامي إلى شيء آخر يؤدي بها في النهاية إلى الخروج من الحيز الإسلامي ، سواء أكان واعيًا تمامًا لهذا الدور ، أم مستغلًا من قبل الصليبيين لتنفيذه . واقعنا المعاصر ، (ص٢٠٥) ، وما بعدها بتصرف .

(٣) الابتعاث ومخاطره ، محمد الصباغ (ص٢٧، ٢٨) . جامعة الإمارات العربية المتحدة (١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م) .

فيقول : «وحدث أنني منذ عشر سنوات اجتمعت في الطائرة بشاب من بلد عربي يتوقد ذكاء ، قصَّ عليَّ قصة دراسته وخلاصتها :

أنه كان الأول في امتحان الشهادة الثانوية ، فاتصلت دولة من الدول الاشتراكية بوزارة التربية في ذلك البلد ، وعرضت عليها الرغبة في أن تعطي هذا الطالب الذكي ، منحة دراسية في أي فرع نادر من فروع التخصص يرغب فيه ، وذهب إلى الدراسة ، ولكنه - كما بدا من حديثه - لم يتلق العلم فقط ، وإنما الفكر الشيوعي الماركسي ، وأصبح من المؤمنين به المدافعين عنه »[(١)] .

ويقول «ماسينون»[(٢)] :

إن هؤلاء الطلاب المسلمين الذين يصلون إلى فرنسا يجب أن يصاغوا صياغة غربية خالصة ، حتى يكونوا أعوانًا لنا في بلادهم[(٣)] .

وأعداء الإسلام يستغلون شغف كثير من المسلمين بالحصول على درجات علمية من إحدى جامعات الغرب ، لاسيما الماجستير والدكتوراه ، وهم على

---

(١) السابق (ص٤) .

(٢) لويس ماسينون (١٢٩٩ ـ ١٣٨٢هـ = ١٨٨٣ ، ١٩٦٢) : مستشرق فرنسي من العلماء من أعضاء المجمعين العربيين في «دمشق والقاهرة» ، مولده ووفاته بباريس ، تعلم العربية والفارسية ، والتركية والألمانية والإنكليزية ، وعني بالآثار القديمة ، واستهواه التصوف الإسلامي ، وتولى تحرير مجلة «العالم الإسلامي» الفرنسية التي سميت بعد ذلك «مجلة الدراسات الإسلامية» وكان من موظفي وزارة المستعمرات في شبابه ، ثم مستشارًا لها بقية حياته . الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء ، من العرب والمستعمرين والمستشرقين ، خير الدين الزركلي ، (٢/ ٢٤٧) باختصار ، دار العلم للملايين ببيروت ، الطبعة السابعة (١٩٨٦م) ، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم ، د/ مصطفى السباعي (ص٣١) ، المكتب الإسلامي بيروت (١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م) .

(٣) من التبعية إلى الأصالة ، أنور الجندي (ص١٦) ، أباطيل وأسمار (ص٢٥٥) .

استعداد لمنح البعض هذه الدرجات بسهولة ويسر في مقابل أن يصبح جندي فكرتهم المخلص !

جاء في كتاب «المشكلة الشرقية» طبع لندن سنة (١٩٥٧م) صفحة (١٤٦) ما يلي :

لا شك أن المبشرين فيما يتعلق بتخريب وتشويه عقيدة المسلمين قد فشلوا تمامًا .

ولكن هذه الغاية يمكن الوصول إليها من خلال الجامعات الغربية ، فيجب أن تختار طلبة من ذوي الطبائع الضعيفة والشخصية الممزقة والسلوك المنحل من الشرق ، ولاسيما من البلاد الإسلامية ، وتمنحهم المنح الدراسية حتى تبيع لهم الشهادات بأي سعر ؛ ليكونوا المبشرين المجهولين لنا ، لتأسيس السلوك الاجتماعي والسياسي الذي نصبوا إليه في البلاد الإسلامية ، إن اعتقادي القوى بأن الجامعات الغربية يجب أن تستغل استغلالًا تامًّا جنون الشرقيين للحصول على الدرجات العلمية والشهادات ، واستعمال أمثال هؤلاء الطلبة كمبشرين ووعاظ ومدرسين لأهدافنا ومآربنا باسم تهذيب المسلمين والإسلام [1] .

وهكذا ندرك خطورة الابتعاث إلى الخارج ، وأنه سلاح ذو حدين ، يمكن أن يكون خيرًا ، كما يمكن أن يكون شرًّا ، فينبغي الاهتمام بأولئك المبتعثين ابتداء من الانتقاء والتأهيل والتحصين ، ومتابعتهم في الخارج ، والوقوف على أحوالهم ورعايتهم فكريًّا وثقافيًّا حتى لا يذوبوا في ثقافات غير ثقافتنا ، أو

(١) غزو في الصميم ، دراسة واعية للغزو الفكري والنفسي والخلقي والسلوكي ، عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني (ص٧٠، ٧١) دار القلم ، دمشق ط الثانية (١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م) ، أجنحة المكر الثلاثة للمؤلف (ص٢٦٢) .

تتلوث مفاهيمهم بما لا يتوافق ومعتقداتنا ، وهكذا ، حتى يعودوا بخير ، ويكونوا سواعد بناء ، لا معاول هدم ، ويلتحموا بمجتمعاتهم ، مساهمين في مسيرة البناء والعطاء .

*****

الفصل الثاني

الإعلام

المبحث الأول :

وسائل الإعلام وخطورتها في العصر الحديث

المبحث الثاني :

اختراق الغزو الفكري للإعلام .

المبحث الأول
وسائل الإعلام وخطورتها في العصر الحديث

مفهوم وسائل الإعلام

في البداية يحسن أن أشير إلى مفهوم وسائل الإعلام بإيجاز ، وهذا المصطلح يتكون من كلمتين أعرف بهما أولًا ، وهما : وسائل وإعلام .

أما الوسائل : فقد مر بنا تعريفها من قبل ، وهي تعني : الأدوات أو الوسائط التي يُتوصل بها إلى شيء ما .

وأما الإعلام فيعني في اللغة : الإخبار بشيء ، قال الراغب : وأعلمته وعلمته في الأصل واحد ، إلا أن الإعلام اختص بما كان بإخبار سريع ، والتعليم اختص بما يكون بتكرير وتكثير يحصل منه أثر في النفس لتصور المعاني [١] .

ويأتي الإعلام في اللغة - أيضًا - معبرًا عن المعاني والدلالات التالية :

أ - الإعلام بمعنى نشر المعلومات بعد جمعها وانتقائها ، وأحيانًا يطلق على الاستعلامات Information التي تعني إبراز الأخبار وتفسيرها .

ب - الإعلام بمعنى الدعوة ، وهو المعنى القديم الذي أطلق عليه في القرون الوسطى لفظ Propaganda أي : النشاط الهادف إلى نشر الدعوة والتبشير بها وكسب المؤمنين بها .

ج - الإعلام بمعنى الدبلوماسية المفتوحة أو العمل السياسي الخارجي ، وهو تطور حدث في مفهوم الإعلام في النصف الثاني من القرن العشرين نتيجة

---

(١) المفردات (ص٣٤٣) .

اشتراك الشعوب في تقدير السياسة الخارجية المنظمة في صورة تجعل لها وزنًا ضاغطًا [١] .

والإعلام في الاصطلاح له تعريفات عديدة ، أختار منها هذا التعريف على سبيل المثال ، فقد عرفه أحد الباحثين بأنه : «هو نشر الحقائق والأخبار والأفكار والآراء في وسائل الإعلام المختلفة» [٢] .

وفي ضوء هذا ونحوه يمكن تعريف وسائل الإعلام بأنها : الوسائط أو الأدوات التي يتم من خلالها نشر الحقائق والأخبار والأفكار والآراء ، وإيصالها إلى الملتقى لأغراض مختلفة .

وقد عرفها بعض الباحثين بأنها : هي مجموعة المواد الأدبية والعلمية والفنية المؤدية للاتصال الجماعي بالناس بشكل مباشر أو غير مباشر من خلال الأدوات التي تنقلها أو تعبر عنها الصحافة والإذاعة والتليفزيون ووكالات الأنباء والمعارض والمؤتمرات والزيارات الرسمية وغير الرسمية [٣] .

ثورة الاتصال الخطيرة في العصر الحاضر

والإنسان منذ فجر التاريخ ، لم يستغن عن الإعلام ، وكان لكل عصر وسائله الإعلامية ، ومنذ آلاف السنين وسكان الأدغال في أفريقيا يتناقلون

---

(١) أثر وسائل الإعلام على الطفل ، د/ صالح ذياب هندي (ص١٧) ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ط الأولى (١٩٩٠م) ، نقلا عن د/ صلاح الدين جوهر ، علم الاتصال مفاهيمه ونظرياته ومجالاته (ص٩) .

(٢) الإعلام ، نشأته ، وسائله ، ما يؤثر فيه ، د/ يوسف محيي الدين أبو هلالة ، (ص٦) ، مكتبة الرسالة الحديثة ، عمان الأردن ، ط الأولى (١٤٠٨هـ ١٩٨٨م) نقلًا عن : شاكر إبراهيم شاكر ، الإعلام ووسائله ودوره في التنمية الاقتصادية (ص٢٢) .

(٣) أثر وسائل الإعلام على الطفل ، د/ صالح ذياب هندي ، (ص١٨) .

أخبارهم عن طريق الدق على الطبول ، وفي أنحاء متفرقة من العالم ، فقد كانت الأخبار تنتقل بالكلمة الشفوية ، أو بالأغنية أو بالرواية أو بالقصص الشعرية أو البلاغات أو الإرشادات «كإشارات الدخان» أو قرع الطبول أو الملصقات أو النشرات ، وقد كانت هناك في الإمبراطورية الرومانية صحيفة تكتب بخط اليد وتلصق في الأماكن العامة تسمى أكتاديورنا Actadiurna لإطلاع الجمهور على القوانين الجديدة التي تسنها الحكومة [١] .

وأخذت وسائل الإعلام تتطور عصرًا بعد عصر ، حتى عصرنا الحاضر ، الذي شهد طفرة هائلة في مجال وسائل الإعلام والاتصال بشكل عام ، وحدث تطور ضخم ربما فاق كل ما وصلت إليه البشرية من قبل في هذا المجال ، وما شابهه ، حتى غدا العالم كله ـ بفعل هذا التطور ـ كأنه قرية صغيرة ، كما يقول الإعلاميون ، وغدا عصرنا هذا أيضًا عصر الاتصالات .

يقول أحد الباحثين : يعيش عالم اليوم ثورة الاتصال الجماهيري حيث إن الإعلام الموجه إلى إنسان اليوم لا يتوقف الآن في أي لحظة من لحظات النهار أو الليل ، وأن هذا الإنسان يواجه منذ اللحظة التي يفتح فيها عينيه وينهض من نومه بمؤثرات إعلامية تتسابق للتأثير على عقله واتجاهاته وتظل تلاحقه طوال النهار والليل ، أي : إن المواطن المعاصر لا يأوي إلى فراشه قبل أن يقرأ ويرى ويسمع كمًّا هائلًا من المعلومات والمشاهد ، تعرض أفكارًا واتجاهات وفنونًا ودعايات تستهدف شد انتباهه إلى هدف من أهدافها ، وهي تحاصره حصارًا محكمًا لا سبيل إلى الإفلات منه ، حصارًا لم يشهده الإنسان في أي عصر سواء تم ذلك من خلال الوسائل السمعية أم البصرية أم المقروءة أم وسائل

---

(١) الاتصال بالجماهير والدعاية الدولية ، د/ أحمد بدر (ص٦٣، ٦٤) .

الاتصال المباشر (١).

وقد مكنت ثورة الاتصال للوسائل الإعلامية من الوصول إلى ملايين الناس في اللحظة الواحدة، وأصبح الخبر يطوف حول المعمورة في نفس اللحظة التي تحول العالم إلى قرية إلكترونية، وغدت الدنيا كلها في متناول بصر الإنسان وسمعه، ولم يعد الإعلام يتجه إلى فئة معينة أو ينحو إلى تقديم معلومات خاصة، ولكن الإعلام الحديث أصبح قادرًا على التوجه إلى الإنسان أيًا كان وحيث كان، وتشير الدراسات العلمية إلى التقدم الهائل الذي أحرزته التكنولوجيا المعاصرة في وسائل الاتصال، والذي سوف يحدث تأثيرات هائلة على حياتنا ومستقبلنا وعلى البيئة الاقتصادية للشعوب والأمم أرادت ذلك أم لم ترد، ذلك أن الوسائل التكنولوجية المعاصرة سوف تسمح بتحقيق أنواع مختلفة من نظم المعلومات التي تشكل قنوات سمعية وبصرية وغيرها عبر الوسائل الإلكترونية والمغناطيسية (٢).

ولقد أثر هذا التقدم الكبير من وسائل الإعلام في عملية انجذاب الجمهور إليها، حيث كان لما صاحبها من بهرجة، وزخارف، ونظم وأنماط كثيرة، تكاد تكون ضربًا من الخيال، كتلك التي تتعلق بالتصوير، أو الطباعة، أو البث المباشر، وأمثال هذه الفنون، كان لها دور كبير وفعال في تعلق الجماهير بها، وإقبالهم عليها، ثم التأثر بما تلقيه، وتنشره من أفكار.

ولقد كثرت وسائل الإعلام في هذا العصر وتنوعت، وتسابقت فيما بينها،

---

(١) الدعوة الإسلامية والإعلام الدولي، د/ محيي الدين عبد الحليم، (ص١٤، ١٥)، دار الفكر العربي، القاهرة نقلًا عن محمد عبد القادر حاتم، الإعلام في القرآن، (ص٣٥).
(٢) السابق (ص١٥، ١٦) نقلًا عن مرجع أجنبي.

وتنافست في الاستحواذ على الجماهير ، وجذب انتباههم وشدهم نحوها ، وارتبط الناس بها ، ارتباطًا تتفاوت نسبته من وسيلة لأخرى ، وأقبلوا عليها ، يتلقون منها ، ويأخذون عنها ويتأثرون بها .

وأبرز وسائل الإعلام في عصرنا : الاتصال الشخصي ، ثم الإعلام المقروء مثل الكتب ، والصحف ، والمجلات ، والمنشورات ، ثم الإعلام المسموع ، وأخيرًا الإعلام المرئي ، كالمسارح والفضائيات التليفزيونية ، ثم الشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت) ، وغيرها.

*****

المبحث الثاني
اختراق الغزو الفكري للإعلام

حرص الخصوم على استغلال وسائل الإعلام في الغزو الفكري :

لقد حرص الخصوم على استغلال وسائل الإعلام في الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، انطلاقًا من وعيهم الكامل لدورها الفعال ، وتأثيرها القوي في معركة الفكر والثقافة التي يخوضونها ضد الأمة الإسلامية .

يقول المبشر «ولسن كاسن» : إن الصحافة لا توجه الرأي العام فقط ، أو تهيئه لقبول ما ينشر عليه ، بل هي تخلق الرأي العام ، وقد استغل المبشرون الصحافة المصرية على الأخص ؛ للتعبير عن الآراء المسيحية أكثر مما استطاعوا في أي بلد إسلامي آخر .

لقد ظهرت مقالات كثيرة في عدد من الصحف المصرية ، إما مأجورة في أكثر الأحيان ، أو بلا أجرة في أحوال نادرة [(١)] .

وبمثل هذا عبر المستشرق «جب» عن ضرورة الاهتمام بالصحافة في تدعيم النفوذ الغربي في العالم الإسلامي :

فبعد أن تحدث عن ضرورة أن يجري التعليم على الأسلوب الغربي ، وعلى المبادئ الغربية ، وعلى التفكير الغربي ، قال : والواقع أن المدارس والمعاهد العلمية لا تكفي ، فليست هي في حقيقة الأمر إلا الخطوة الأولى في الطريق ؛ لأنها لا تغني شيئًا في قيادة الاتجاهات السياسية والإدارية ، والوصول إلى هذا

---

(١) أباطيل وأسمار (ص٢٥٥، ٢٥٦) ، وانظر : (ص٢٧٠، ٢٧١) منه .

التطور الأبعد ـ الذي بدونه تظل الأشكال الخارجية مجرد مظاهر سطحية ـ يجب ألَّا ينحصر الأمر في الاعتماد على التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية، بل يجب أن يكون الاهتمام الأكبر منصرفًا إلى خلق رأي عام، والسبيل إلى ذلك هو الاعتماد على الصحافة.

ويقرر جب أن الصحافة هي أقوى الأدوات وأعظمها نفوذًا في العالم الإسلامي.

كما يقرر أن مديري الصحف اليومية ينتمون في معظمهم إلى من يسميهم التقدميين [1]، ولذلك كان معظم هذه الصحف واقعًا تحت تأثير الآراء والأساليب الغربية [2].

وتغمر الهيئات التبشيرية اليوم أفريقيا بالكتب والنشرات التي تهاجم الإسلام والمسلمين، ولا يخلو بلد أفريقي من ركائز تبشيرية تتولى توزيع الكتب والنشرات بلغات متعددة [3].

ولاشك أن وسائل الإعلام تخدم أهداف الخصوم، ويستطيعون من خلالها تحقيق الكثير، وهي لا تقل عندهم أهمية عن المدارس، بل ربما فاقتها في الأهمية.

---

(١) التقدميون: هم الذين يرون الأخذ بكل الأساليب الأوربية والارتماء في أحضان الغرب، وقد أطلق في المقابل على الذين يدعون إلى الحفاظ على القيم والأصالة الإسلامية، والتحفظ حيال حضارة أوربا المادية، أطلق عليهم «الرجعيون»، وهي كما لا يخفى تسميات خبيثة غير بريئة، وغير منصفة للحقيقة.

(٢) الاتجاهات الوطنية (٢/ ٢١٧)، والكلام مترجم عن كتاب وجهة الإسلام للمستشرق «جب» وآخرين.

(٣) جذور البلاء (ص٢٢٩).

وإذا كانت المدارس تضم ملايين ، فإن الإذاعة والتلفاز تتعامل يوميًا مع ملايين أكثر عددًا ، وأقل حصانة .

وإذا كانت المساجد والمدارس تابعة لوزارة أوقاف وشؤون دينية ، وتعليم أصلي وتربية ، وتعليم عالٍ ، فإن سوق الإعلام مفتوحة لكل الغزاة ، ومنهوبة من كل الطغاة .

فإذا كانت الدولة الإسلامية تستطيع فرض رقابة على مدارسها وجامعاتها ، فمن يفرض سلطته على برنامج إذاعي يبث من عاصمة أجنبية ؟ ومن يحكم سيطرته على فيلم أنتجته إستديوهات هوليود أو روما أو ليننجراد ؟

وإذا كانت الدولة تستطيع أن تحكم سيطرتها على أجهزة الإعلام الرسمية ، فمن يحكم أجهزة الإعلام المهربة في علبة ، وكتب وأفلام ، وشرائط فيديو ، وشرائط تسجيل ؟

وإذا كانت الجماعات والتنظيمات الإسلامية تستطيع أن توجه الإذاعات الخاصة بالإسلام والقرآن الكريم ، فمن يوجه سائر الإذاعات الوطنية والأجنبية ؟

لهذا كله ـ ولغيره ـ فإن الدراسات الاجتماعية والتربوية المعاصرة تعتبر «صناعة الإعلام» من أخطر وأهم الصناعات على الصغير والكبير ، المتعلم والأمي ، المسلم وغير المسلم .

وإذا كانت الانقلابات العسكرية تستهدف الاستيلاء على الإذاعة والتلفاز ، فإن أجهزة الغزو الفكري تستهدف ذلك بنفس الدرجة وبذات الأهمية ، لكن بطريقة ذكية ، وبناء على خطة بعيدة المدى ، فمرحلة الخطوات متسقة

الأبعاد[١] .

تسلل الغزو الفكري إلى الإعلام في بلاد المسلمين :

إن أي إعلام في العالم مسخر لخدمة قضايا بلاده ، وغير محارب أو مخالف ـ بشكل عام ـ للمعتقدات المترسخة السائدة فيها ، فالإعلام الشيوعي يعمل لخدمة الشيوعية ، والإعلام الصهيوني مسخر لخدمة الصهيونية العنصرية ، وكذلك الإعلام الرأسمالي الغربي ، حتى في البلاد التي عزلت فيها الكنيسة عن واقع الحياة ، لا نجد الإعلام يحارب الكنيسة أو يعمل ضد مصلحتها .

فإذا ما جئنا إلى الإعلام في بلاد المسلمين ، وتساءلنا : هل هو مسخر لخدمة الإسلام وتحقيق أهدافه ؟ أو على الأقل لا يتصادم معه ؟ كان الجواب وبكل أسف بالنفي !!

وكان الواقع أن الإعلام في بلادنا الإسلامية قد غدا من أخطر وسائل الغزو الفكري المعادي .

وهذا الواقع يجمع عليه الباحثون ، ويبدو جليًّا من خلال تتبع ما يصدر عن وسائل الإعلام .

وقد جاء في توصيات المؤتمر الأول لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة (١٣٩٧هـ ، ١٩٧٧م) المنعقد بالمدينة المنورة ما يلي :

ويندد المؤتمر بالهوة السحيقة التي تردى إليها إعلامنا ، ولا يزال إلى اليوم يتردى عن علم من القائمين به أو عليه أو عن جهل منهم ، فبدلًا من أن يكون منبر دعوة إلى الحق ومنار إشعاع للخير صار صوت إفساد وسوط عذاب ،

---

(١) وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي (ص٧٣، ٧٤) .

وسكت القادة فأقروا بسكوتهم أو جاوزوا ذلك فشجعوا وحموا ، وخفت صوت الدعوة وسط ضجيج الإعلام الفاسد ، وزلزل الناس في إيمانهم وقيمهم ومثلهم زلزالًا شديدًا ، ولم يعد الأمر يحتمل السكوت ....[1] .

ولو استعرضنا الجوانب التي تعرضها وسائل الإعلام ، لم نجد جانبًا واحدًا سلم من الغزو الفكري ، أو خلص من السموم الفكرية ، التي يجب ألا يكون لها أي ذكر في بلد مسلم ، ما جعل المسلم المعاصر محاصرًا أينما حلَّ وأينما ارتحل بأفكار ومعتقدات وأنماط وعادات وتوجهات ، تفسد عليه تدينه ، وتضيع إيمانه ، وتذبذب ولاءه ، وتغير الحقائق والمفاهيم الإسلامية والتاريخية لديه ، وباختصار يقع فريسة لغزو فكري ماكر خبيث ، يريد أن يتركه هو وإخوانه المسلمين ، كما قال الله تعالى : ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ [النحل:٢١] .

ولنلق نظرة خاطفة على خريطة البرامج في بعض الوسائل كالإذاعة والتليفزيون في بعض البلاد الإسلامية ، لنتبين من خلالها إلى أين يتجه الإعلام ، فقد أعد باحث متخصص دراسة حول البرامج التي تقدم في الإذاعة والتلفزيون ، فظهر أن الأغاني العاطفية تشغل أكبر مساحة من البرامج اليومية ، حيث تشغل (٣٥٪) من ساعات البث اليومي التي تبلغ اثنتين وعشرين ساعة يوميًا أي : بمعدل (٧.٧) سبع ساعات واثنتين وأربعين دقيقة يوميًا ، أي : ما يزيد على ثلث المادة المقدمة يوميًا ، أما الأغاني الدينية فنصيبها (٠.٤٪) ، ونصيب الأغاني الوطنية (١.٨٪) ، والتمثيليات (٨.٦٪) ، والمسرح والسينما (١.٧٪) ، والرياضة والشباب (١.٢٪) أما البرامج الإخبارية والسياسة فتبلغ

---

(١) نحو إعلام إسلامي ، إعلامنا إلى أين ؟ د/ علي جريشة (ص١٧) ، الناشر مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط الأولى (١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩م) .

نسبتها (٢١.٥٪) ، والموسيقى ٣.٠٪) .

أما التلفزيون فلا يختلف كثيرًا عن الإذاعة ، فتشغل الأفلام الروائية العاطفية العربية منها والأجنبية نسبة (١٢.٥٪) ، أما المسلسلات العربية والأجنبية فتبلغ نسبتها (١١.١٪) ، وتشغل التمثيليات التلفزيونية نسبة (٧.٩٪) ، والبرامج الرياضية نسبة (٧.٩٪) ، والإعلانات التجارية نسبة (٧.٨٪) ، والنشرات الإخبارية والبرامج السياسية نسبة (٧.٩٪) ، والأغاني المصورة (٤.٨٪) ، والبرامج الموسيقية (٢.٤٪) ، والأسرة والمرأة (١.٤٪) [١] .

وفي دراسة عن إذاعتي « البرنامج العام ، وصوت العرب » المصريتين ـ والإذاعة المصرية أقوى وأوسع إذاعة عربية من حيث عدد ساعات البث وقوتها في الوصول إلى العالم أجمع ـ وجد الآتي :

١ ـ الأغاني الفردية والجماعية تشكل (٣١٪) من البرنامج العام ، من هذه الأغاني (٢٨.٤٪) تتضمن الحب والغرام .

٢ ـ إذا أضيف إلى هذه النسبة المنوعات والتمثيليات والبرامج الموسيقية وبرامج الشباب والرياضة لأمكن القول : إن الترفيه يغطي حوالي نصف الإرسال اليومي أي : حوالي (٤٥.٢٪) .

٣ ـ البرامج التثقيفية لا تشكل سوى (٩.٣٪) وهذا يعني : أن الترفيه أهم بكثير من التثقيف في عرف الإذاعة .

٤ ـ بالنسبة لإذاعة صوت العرب نفس النسبة تقريبًا .

---

(١) الإعلام والتيارات الفكرية المعاصرة ، سعيد عبد الله حارب (١٠٣، ١٠٤) ، دار الأمة للنشر والتوزيع دبي ، الإمارات العربية المتحدة ، ط الأولى (١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م) .

٥ـ الإذاعة تتوجه إلى شعب إسلامي ومع ذلك ، فالبرامج الدينية لا تتعدى (٩٪) وبرامج الأسرة (١٪)[١] .

وكل لون من هذه الألوان السابقة كالأغنيات والتمثيليات والأفلام والإعلانات التجارية التي جميعها هابطة تتكاتف لهدر الشرف والفضيلة ، وقتل المروءة ، والترويج للفحش والخنا والآثام ، والنيل من مبادئ الدين بل والعقيدة الإسلامية ذاتها ، والنيل من التاريخ الإسلامي وتجاهله ، والنيل من القيم والآداب الإسلامية واللغة العربية .

وبالجملة من كل القيم والخصائص التي امتازت بها الأمة الإسلامية عن غيرها ، والتي هي عدتها ، ومنها تستمد قوتها وأسباب حياتها الحياة العزيزة الكريمة .

وهذا هو حال وسائل الإعلام عامة ـ إلا ما رحم ربي ـ .

« وقد دَمَغَ المسرحَ والسينما والفنون كلها أناس من أهلها ، يقول نعمان عاشور : إن موجات الجنس والجريمة والعنف المسرحي والمسلسلات العقيمة المتفشية في التلفزيون ، وهذا الهذر السخيف الذي تفيض به فقرات البرامج الثقافية ، ناهيكم بالكتابات الفارغة الفجة ، التي تملأ صفحات الكتب والمجلات ، إنما يخلقها دائمًا الانهيار الفني والتردي الأدبي وهبوط المستوى الثقافي ، وكل ذلك منبعث عن مصدر واحد هو : اعتبار الفن مجرد أداة من

---

(١) الإعلام والبيت المسلم ، فهمي قطب الدين النجار (ص٩٥، ٩٦) ، شركة الشعاع للنشر ، الكويت ، ط الأولى (١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م) ، نقلًا عن دراسة ميدانية عام (١٩٧٦م) بعنوان الإعلام وتزييف الوعي من (ص٢٩ ــ ٣٥) للدكتور عبد الباسط بدر .

أدوات التسلية والترفيه يصلح بيعها كسلعة تدر الربح »[1] .

والواقع أن انحطاط هذه الوسائل الإعلامية ، وغلبة الموجات المعاكسة للدين عليها ، تتزايد ـ مع الأسف ـ بل صرنا نرى أمورًا سافرة من ضروب الفساد وألوان البعد عن الله تعالى ، والصد عن سبيله في واقعنا المعاصر ، ما يفوق في ضراوته وعتوِّه ومكره وتدميره ، كل ما عرفه الناس سابقًا من طرق الإضلال والإفساد .

طرق تسلل الغزو الفكري إلى الإعلام :

ولكن ثمة سؤال يطرح نفسه ، أو يلح على الذهن ، مفاده : كيف تسلل هذا الغزو الفكري إلى وسائل الإعلام ؟ وما وسائل أو أسباب استمراره ، والحقيقة أنه سؤال مهم والإجابة عنه ـ في نظري ـ أهم .

والواقع أن هناك وسائل كثيرة ، وأسبابًا عديدة ، تقف وراء تسخير الإعلام في بلاد المسلمين للغزو الفكري المعادي ، ولست أدعي الإحاطة بها جميعًا ، ولكن أذكر ما اهتديت إليه منها ، وما يسر الله لي التعرف عليه على النحو التالي :

أولا : الحكام العلمانيون في كثير من البلاد الإسلامية :

وهؤلاء الحكام قد كانوا أكبر الأسباب التي مكنت للغزو الفكري في الإعلام ، بل وفي كل شيء ، على غرار أتاتورك اليهود والنصارى ، ومعظم هؤلاء قد ربوا تربية خاصة في بلاد الغرب أو الشرق المعادي للإسلام ، وصنعوا على أعين أعداء الأمة ، ليكونوا امتدادًا لهم ، مثل الخديوي إسماعيل الذي ربي في فرنسا ، واستدعي من هناك لحكم مصر ولما يكمل تعليمه بعد ،

---

(١) الصحافة والأقلام المسمومة ، أنور الجندي ، (ص١٢٠) ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ط الأولى (١٤٠٠هـ) .

« وقد عاد هذا الغلام من باريس وقد ذابت تمامًا كل حرارة للإسلام في صدره ، وصاغته صالونات باريس ، وصداقاته المتعددة لرجالها ونسائها صياغة جديدة ، غريبة تمامًا عن الأمة التي ابتليت بحكمه ، فكان مبهورًا بما رأى وسمع ، ولم تكن لديه قاعدة أصيلة لماهية أمته ودينه ، وكانت أمنيته التي صرح بها مرارًا أن يجعل مصر قطعة من أوروبا !!

وكأي مقلد فقد أصالته أخذ من أوربا الشكل والمظهر دون الجوهر والمخبر ، فأسرف إسرافًا فاحشًا في تشييد القصور ، وإقامة التماثيل والحدائق والمتنزهات ، والمسارح ودور الغناء بلا ضرورة ولا وعي .

ويعجب دارس التاريخ من هذا الحاكم الذي أغرق بلاده في الديون وفوائدها الباهظة نتيجة هذه المظاهر كيف أنفق الملايين على حفل افتتاح قناة السويس (١٨٦٩) حتى اضطر إلى بيع حصة مصر فيها إلى ألد أعدائها ؟ وكيف أنشأ في مصر - على ما فيها من فقر وجهل - دار الأوبرا واستقدم لها المغنيين والمغنيات واستأجر أشهر موسيقي أوربا ليضعوا لها الألحان ... إلخ ؟ »[(١)] .

ولقد ابتليت أكثر بلاد العالم الإسلامي - إلا ما رحم الله - بهذا الصنف فإلى الله المشتكى .

ثانيا : كثير من القائمين على أمر الإعلام والثقافة في البلاد الإسلامية :

والناظر المتأمل في الساحة الإعلامية والقائمين على أمر التوجيه والإشراف والإنتاج وغير هذا مما يتصل بمجال الإعلام ، يجد أن معظم هؤلاء لهم دور كبير في تسلل الغزو الفكري المعادي إلى الإعلام بمختلف وسائله ، حيث إن

---

(١) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، د/ عبد الستار فتح الله سعيد ، (ص٢٠٥) .

السواد الأعظم منهم متفرنجون ، ومستغربون ، وفارغون تمامًا من معرفة دينهم ، ومبادئ شريعتهم ، وتاريخ وأمجاد أمتهم ، وبعضهم متحللون من كل القيم النبيلة ، ومن أي سمت للمسلمين ، ويدعون جهارًا نهارًا إلى الأخذ بأساليب المدنية الغربية المادية المنحطة ، بل ويصل الأمر ببعض هؤلاء القائمين على أمر الإعلام ، أو الذين يسلطون من خلاله للسيطرة على عقول الأمة بالأفكار الضالة ، وصل الأمر ببعضهم إلى أن يسخروا من شرع الله ، ويعيبوا على المتمسكين بالشريعة ونظمها ، بأساليب غاية في الوقاحة والتدني ، والأمثلة على هذا أكثر من أن تحصى ، وأكتفي بهذا المثال :

قالت أمينة السعيد : « إن هذه الثياب الممجوجة قشرة سطحية لا تكفي وحدها لفتح أبواب الجنة أو اكتساب رضا الله ، فتيات يخرجن إلى الشارع والجامعات بملابس قبيحة المنظر يزعمن أنها « زي إسلامي » ، لم أجد ما يعطيني مبررًا منطقيًا لالتجاء فتيات على قدر مذكور من التعليم إلى لف أجسادهن من الرأس إلى القدمين بزي هو والكفن سواء » [(١)] .

ومن هؤلاء القائمين على الإعلام شيوعيون ، وقد كشفت وثيقة تسربت عن الشيوعيين فضحت بعض مخططاتهم ، وكان فيها أسرار رهيبة ، ومما جاء فيها :

ومن المحيط العربي كله يعمل أنصارنا بجد ، وقد استطاعوا أن يثبوا إلى المناصب العليا في الوزارات والإدارات الحكومية ، والشركات ، والمؤسسات الرسمية وغير الرسمية ، ووفقوا حسب تعليماتنا للسيطرة التي وإن كانت فردية إلا أن توفيقهم للوصول إلى تلك المناصب يعد من الأعمال الناجحة ، كما أن لقاء

---

(١) الصحافة والأقلام المسمومة (ص٤٣) . نقلا عن مجلة حواء (١٨ نوفمبر ١٩٧٢م) .

الأفراد بعضهم مع بعض جعل اللقاءات في صورة اللقاء الجماعي ، ويزداد على مر الأيام عدد أنصارنا الذين يتولون المناصب ذات الأثر الفعال في خلق الجو الصالح للتحرك الثوري ، وحسب تعليماتنا لهم جعلوا من الوزراء والمسؤولين الذين لا يُشك في إخلاصهم للنظام الرجعي الحاكم المعادي للاشتراكية واجهة يقفون وراءها ، ويعملون تحت ستارها ما يريدون في أمن وطمأنينة مع اليقظة والحذر دون أن تحوم حولهم الشكوك ؛ لأنهم يتسترون بأولئك المسؤولين [١] .

والمخرجون والمنتجون للأفلام أو المسلسلات ، والمسرحيات ، ونحوها يلهثون وراء الربح المادي فقط ، والذي يعنيهم في المقام الأول هو كم سيربحون أو كم سيخسرون من المال ، أما كم سيربحون أو كم سيخسرون من المثوبة والأجر عند الله ، فهذا أمر غير وارد عندهم إلا من رحم الله ، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [سورة ص:٢٤] .

والواقع أن الذي يدر الربح لصاحبه ، ويفسح له المجال على كافة المستويات ، وتعرف الدنيا به هو البرامج والأفلام غير السوية ، على نحو ما نرى ونسمع في عصرنا الحاضر ؛ ولذا يكون الإحجام عن الأفلام الإسلامية كبيرًا من جهة المخرجين والمنتجين ، فإذا غلط المخرج وفعلها مرة واحدة ، وأقدم على إنتاج فيلم إسلامي أو تاريخي ، فإنه لن يعود لمثلها ، هكذا فعلت « آسيا » بعد أن أنتجت الناصر صلاح الدين ؛ إذ مُنيت بخسارة كبيرة من ورائه ، ولا زالت مدينة حتى الآن ، وهكذا فعل « رمسيس نجيب » بعد أن أنتج « وا إسلاماه » فكاد أن يفلس بعده [٢] .

---

(١) الغزو الثقافي يمتد في فراغنا ، الشيخ محمد الغزالي ، (ص١٢٨، ١٢٩) .

(٢) الإعلام في ديار المسلمين بداية ورسالة ، د/ يوسف محيي الدين أبو هلالة ، (ص٦٩) ، دار العاصمة ، الرياض ، النشرة الأولى (١٤٠٨هـ) ، نقلًا عن : المسلمون ، العدد=

ثالثا : استيراد مواد إعلامية من إنتاج غير المسلمين وبثها في الإعلام :

وأقصد بالمواد الإعلامية التي تتعلق بموضوعنا ، تلك المواد التي تتعلق أو تشتمل على أفكار ومعتقدات وأنماط وسلوكيات ونظم مختلفة تعبر عن الدولة التي خرجت منها ، وتنطلق من ثقافتها غير الإسلامية .

أما المواد الإعلامية التي تتعلق بجوانب أخرى من علوم الحضارات المشتركة بين الأمم ، كالكيمياء ، والطب ، والصناعات ونحوها ، فتخرج عما أقصد .

وفي البداية أود أن أشير إلى أننا لا نقف موقف الرفض لكل ما هو أجنبي ، ولكن نحن نرحب بكل نافع من أي جهة أتى ، بشرط ألا يتعارض مع الدين الإسلامي ، وأن يكون مناسبًا لنا نحن المسلمين والعرب .

والواقع أن الإعلام في بلادنا لا يفرق بين ما ينفعنا وبين ما لا ينفعنا ، أو بين ما يتوافق مع ديننا ، وبين ما يتعارض معه .

وتؤكد الدراسات تدفق المضمون الأجنبي الفكري على وسائل الإعلام المختلفة في بلادنا الإسلامية ، وأسجل هنا نتائج بعض هذه الدراسات ، التي تبين حجم المضمون الأجنبي هذا ؛ كيما تتجلى لنا حقيقة الأمر وخطورته :

فمن الأمور الملاحظة أنه « تعتمد مجلات الأطفال بدرجة كبيرة على المصادر الأجنبية بصفة عامة والمصادر الأمريكية بصفة خاصة ، بكل ما تحتويه من قيم غريبة عن حضارتنا » [1] .

= (١٠) (ص٤٣) ، الجمعة ٦ ربيع أول (١٤٠٦هـ) ، مقال : الفيلم الإسلامي يحدث صدفة ، حوار مع المخرج صلاح أبو سيف .

(١) علاقة الطفل المصري بوسائل الاتصال ، د/ عاطف عدلي العبد ، (ص٢٤) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة (١٩٨٨) ، نقلًا عن إبراهيم إمام ، صحيفة الطفل كوسيلة إعلامية ، (ص١٦، ١٧) .

وتشير دراسات حديثة حصرت البرامج الأجنبية الواردة للتلفزيون المصري من مختلف الشركات خلال الفترة من عام (١٩٧٠) حتى عام (١٩٧٨)، إلى أن إجمالي ساعات البرامج الواردة بلغ (٥٧٣٢.١٧) ساعة، قبل التليفزيون المصري منها (٨٠.٣٥٪) وجاءت الولايات المتحدة الأمريكية في المركز الأول بالنسبة لعدد ساعات البرامج الواردة منها، حيث بلغت نسبة ساعات البرامج الواردة منها (٧٧.٩٢٪)، تليها ألمانيا الاتحادية (١١.٢٪)، والمملكة المتحدة (٧.٩٨).

وتبين من دراسة نشرتها اليونسكو أن مصر تستورد أكثر من (٤٠٪) من برامجها التلفزيونية من الخارج.

شغل المضمون الأجنبي عام (١٩٨١) (٢٨.٠٩٪) من إجمالي الإرسال التلفزيوني بصفة عامة، وشغل (١٤.٣٦٪) من إرسال القناة الأولى، (٤٣.٦٠٪) من إرسال القناة الثانية.

شغل المضمون الأجنبي عام (٨٢ ـ ١٩٨٣): (٢٥٩٤ ساعة) و(٤٠) دقيقة بنسبة (٢٨.٨٢٪) من إجمالي الإرسال التليفزيوني بصفة عامة، وشغل (١٣.٠٣٪) من إرسال القناة الأولى و(٤٧.٦٦٪) من إرسال القناة الثانية، كما يتوزع المضمون على برامج القناتين الأولى (٦ ـ ٢٤٪) والثانية (٤ ـ ٧٥٪) [1].

كما تبين من دراسة أجراها أحد الباحثين لمنظمة اليونسكو ضمن مشروع دراسة التدفق العالمي للبرامج والأخبار التلفزيونية في الفترة من ٣١ يناير إلى (١٣) فبراير (١٩٨٣)، ومن واقع الحصر الشامل، أن إجمالي الإرسال التلفزيوني بصفة عامة خلال هذه الفترة (٢٠٢٩٠دقيقة) (٣٣٨ ساعة

---

(١) السابق، (ص٤٢)، وفيه المراجع التي أخذ عنها.

و١٢دقيقة) بمتوسط يومي (٢٤ساعة و٩ دقائق) وبلغ عدد الدقائق التي يشغلها المضمون الأجنبي (٥٦٧٠) دقيقة بنسبة (٢٧.٩٪) وبلغ عدد الدقائق التي يشغلها المضمون العربي (١٤٦٢) دقيقة بنسبة (٧.٢٪) من إجمالي الإرسال .

ويتوزع المضمون الأجنبي حسب الدول المستوردة منها كما يلي : الولايات المتحدة الأمريكية (٥٥٪) ، المملكة المتحدة (١٠.٦٪) ، فرنسا (٩٪) ، ألمانيا الاتحادية (٣.٦٪) ، أسبانيا (٠.٠٥٦٪) ودول أخرى بنسب أقل .

كما يتوزع المضمون العربي حسب الدول المستوردة منها كما يلي : الإمارات العربية (٨٢٪) ، المملكة العربية السعودية (١٨٪) .

كما شغلت برامج الأطفال (٩٥١) دقيقة بنسبة (٤.٧٣٪) من إجمالي الإرسال ويشكل المضمون الأجنبي (٥٠.٣٪) من إجمالي وقت برامج الأطفال ، وأهم الدول التي استورد منها هي : الولايات المتحدة الأمريكية (٨٩.٧٪) ، أسبانيا (٣.٦٪) ، وفرنسا (٣.١٪) ، ألمانيا الاتحادية (١.٩٪) ، وإيطاليا (١.٧٪) [١] .

ولقد قام أحد الباحثين بدراسة تستهدف التعرف على واقع برامج الأطفال التلفزيونية في عينة من الأقطار العربية ، وتحديد الأبعاد والسمات الأساسية في ست دول عربية مسلمة هي : الجزائر ، تونس ، الكويت ، السعودية ، سوريا ، والأردن .

وفي مجال التعرف على المصادر التي تعتمد عليها برامج الأطفال التلفزيونية في هذه الدول ، توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج ، أهمها ما يلي :

---

(١) السابق (ص٤٢، ٤٣) ،

« أهم المصادر التي تعتمد عليها برامج الأطفال التلفزيونية في الدول العربية عينة الدراسة مرتبة حسب ما أحرزته من تكرارات ، هي : الإنتاج المحلي ، الإنتاج الخليجي ، الإنتاج العربي ، والإنتاج الأجنبي (٢٣.٨٪ كل منهم) ، الإنتاج المحلي بالتعاون مع جهات أخرى (٧.٦٨٪) .

تعتمد جميع الدول العربية عينة الدراسة على المصادر الأربعة الآتية : الإنتاج المحلي ، الإنتاج الخليجي ، الإنتاج العربي ، والإنتاج الأجنبي »[(١)] .

« وتبين أن أهم الدول العربية تستمد منها الدول العربية عينة الدراسة برامج الأطفال التلفزيونية حسب ما أحرزته من تكرارات هي : دول الخليج العربي (٢٨.٥٧٪) ، لبنان (٢٨.٥٧٪) ، والأردن (٢١.٤٣٪) ، مصر (١٤.٢٩٪) ، ومؤسسة الإنتاج البرامجي المشترك (٧.١٤٪) .

وتبين أن من أهم الدول والجهات الأجنبية التي تستمد منها الدول العربية عينة الدراسة برامج الأطفال التلفزيونية ـ حسب ما أحرزته من تكرارات ـ هي : الولايات المتحدة الأمريكية (٣٠.٧٨٪) ، بريطانيا (١٥.٣٩٪) ، ألمانيا الاتحادية ، اليابان ، فرنسا ، الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية ، دول أوروبية متعددة ، بعض الشركات الأوروبية ، ودول متنوعة (٧.٩٦٪ لكل منهم) »[(٢)] .

وأهم الفقرات والمواد التلفزيونية التي تستوردها الدول العربية عينة الدراسة حسب ما أحرزته من تكرارات هي : الرسوم المتحركة (٢٠.٧٠٪) ،

---

(١) الإعلام المرئي الموجه للطفل العربي ، دراسة ميدانية وتحليلية ، د/ عاطف عدلي العبد ، (ص٧٥) ، دار الفكر العربي ـ القاهرة .

(٢) السابق (ص٧٦) .

أفلام الأطفال (١٧.٢٤٪) ، مسلسلات الأطفال (١٧.٢٤٪) ، السيرك والأكروبات (١٣.٧٩٪) ، العرائس (١٠.٣٤٪) ، برامج أطفال كاملة (١٠.٣٤٪) ، أغاني الأطفال (٦.٩٠٪) ، وأخرى (٣.٤٥٪) [١] .

وتشير بعض المصادر أيضًا إلى أنه : « بلغة نسبة البرامج الأمريكية المستوردة لمنطقة الخليج (٨١.٦٢٪) من مجموع البرامج المستوردة من الدول الأجنبية الأخرى » [٢] .

وقد نقلت صحيفة الوطن الكويتية (١٨/ ١٠/ ١٩٨٦م) عن إحصائيات منظمة اليونسكو أن (٤٥٪) من أفلام الأردن كانت من إيطاليا ، (٦٣٪) من أفلام الإمارات العربية المتحدة ، و(٢٩٪) من أفلام تونس ، و(٤٠٪) من أفلام الجزائر ، و(٦٠٪) من أفلام ليبيا ، و(٤٤٪) من أفلام الكويت ، و(٥١٪) من أفلام مصر ، كانت من الولايات المتحدة الأمريكية ، وقد استوردت ليبيا (٣٪) من أفلامها ، ومصر (٧٪) ، والعراق (٣٪) من الاتحاد السوفيتي ، بينما استوردت سوريا ما نسبته (٤٤٪) من أفلامها من الاتحاد السوفيتي ، وهناك استيراد كبير من الهند أيضًا ، فعشرون بالمائة من أفلام الإمارات المستوردة ، و(١٢٪) من أفلام الجزائر ، و(٤١٪) قطر ، و(٢٩٪) الكويت ، (٤٢٪) موريتانيا ، كانت من الهند [٣] .

---

(١) السابق (ص٧٩) .

(٢) مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة ، عدنان حسن صالح باحارث (ص٤٨٦) ، دار المجتمع للنشر والتوزيع ، جدة ، ط الأولى (١٤١٠هـ ١٩٩٠م) ، نقلًا عن مجلة التربية ، دور التلفزيون الخليجي في توازن الثقافة والترفيه والتوجيه ، العدد (٦٦ ص٩٩) .

(٣) الموقف من سينما إسلامية ، محمد وليد جداع ، (ص٣٦، ٣٧) ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة ، ط الثانية (١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩م) .

إن هذا التدفق الأجنبي للمضمون الإعلامي ، لينذر بشرور ومفاسد لا يعلم مداها إلا الله ، ويجب على قومنا أن ينتبهوا إلى هذا الاختراق الأجنبي الذي لا يرضى عنه أي عاقل ، بصير ، حريص على مصلحة الأمة .

وإن هذا السيل الجارف من الفكر الغربي لن يجني الكبار والصغار من ورائه خيرًا أبدًا .

وإن الدول الحريصة على مستقبلها فضلًا عن حاضرها ، لتتحاشى مثل هذا الاختراق الثقافي الخارجي ، بشتى السبل .

« فقد شكت وزيرة الثقافة اليونانية « ميلينا ميركوري » من أن بلدها قد دهمته الثقافة الأمريكية .

وفي فرنسا صرح وزير الثقافة الفرنسي في السبعينيات أنه خائف من وقوع الشعب الفرنسي ضحية للاستعمار الأمريكي .

وشكا رئيس وزراء كندا « بيارترودو » من تأثير الثقافة الأمريكية على الشعب الكندي »[1] .

فتلك الدول غير المسلمة التي لا يوجد كبير اختلاف في ثقافتها ، تقف هذه المواقف الشديدة ضد اختراق ثقافة أخرى لها .

« ولست أدري لماذا نحن المسلمين نفتح الأبواب لكل الأفلام مع أن أصحاب الأديان الأخرى يصدرون نشراتهم لذويهم عن الأفلام التي يجوز مشاهدتها والتي لا يجوز ؟ والمراكز الكاثوليكية للسينما منتشرة في جميع أنحاء

---

(١) البث المباشر حقائق وأرقام ، د/ ناصر بن سليمان العمر (ص ٥٨ ـ ٥٩) ، دار الوطن للنشر ، الرياض ، ط الثانية (١٤١٢هـ) نقلًا عن أقمار الفضاء غزو جديد (ص٥٢) .

العالم تحت رئاسة البابا في الفاتيكان ومهمتها تنبيه أذهان المتفرجين إلى القيم الأخلاقية للفنون التعبيرية التي تعرض عليهم، مثل السينما والمسرح، حيث تقوم هذه المراكز بتوزيع نشرات على المدارس والكنائس بأسماء الأفلام التي لا يجوز تعريض عقليات الشباب والفتيات لما تحمله من فساد.

وقد كان الأولى بنا نحن المسلمين أن نفعل ذلك وكان أولى بإعلامنا أن يهدينا إلى الحق والخير »[1].

رابعا : وسائل إعلام خاصة، تخضع مباشرة أو غير مباشرة لجهات أجنبية :

وهناك وسائل إعلامية كثيرة تدار من قبل الخصوم وتُوجّه إلى المسلمين في العالم الإسلامي وتَنْشُر ـ على اختلافها ـ الثقافة غير الإسلامية، وتتحامل بشدة على ثقافتنا الإسلامية، وتحاول القضاء على خصائصنا ومقوماتنا.

وقد يكون بعض هذه الوسائل قائمًا على أرض المسلمين، ويمارس نشاطاته داخل البلاد الإسلامية، كالصحف والإذاعات التي تملكها بعض إرساليات التبشير في بعض البلاد الإسلامية.

وقد يكون بعضها قائمًا وموجودًا خارج البلاد الإسلامية، ولكنه يبث ما يريد، ويصل بثه إلى المسلمين في حجرات نومهم داخل بيوتهم في بلادهم، وأبرز الأمثلة على هذا الأمر : الإذاعات الموجَّهة الخارجية، والبث الفضائي المباشر من الخارج إلى الدول الإسلامية عبر الأقمار الصناعية، يضاف إليهما الشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت).

فهذان ضربان من وسائل الإعلام الخاصة التي تخضع لجهات أجنبية

---

(١) الصحافة والأقلام المسمومة، (ص١٣٠) بتصرف يسير.

ويحسن أن نقف مع كل منهما وقفة قصيرة ، فيما يلي :

الأول : الوسائل القائمة داخل البلاد الإسلامية :

وكما أن هناك نوعًا من التعليم خاضعًا لجهات أجنبية ، وله سياسته المغايرة للتعليم الوطني - وإن كان الأخير في حالة لا يحسد عليها - فيوجد نفس الشيء في الإعلام ، حيث توجد صحف في العالم الإسلامي لها وجهتها المعروفة ، ولا تستحق من المسلمين إلا إغلاقها ، لما تعمل عليه من إذابة لشخصية الأمة وعقيدتها ، وهناك كذلك إذاعات خاصة وظيفتها الهجوم على الإسلام ، وبث عقائد مخالفة ، وخاصة في إفريقيا .

« ففي نيجيريا مثلًا تمتلك الإرساليات التبشيرية الاستعمارية عددًا ضخمًا من المدارس والمؤسسات ، إلى جانب إذاعة خاصة تذيع باللغة العربية ، وتخاطب المسلمين في نيجيريا تدعوهم إلى ترك الإسلام ، وقد خصصت جميع برامجها للدس على الإسلام ، والطعن بالنبي العربي العظيم ﷺ ، وتشويه حقائق الإسلام ، وبيان مزايا عقائد المبشرين الأوربيين وحضارتهم ... »[1] .

وفي فلسطين المسلمة مؤسسات إعلامية مملوكة لليهود المحتلين الغاصبين تتمخض عنها وسائل مسموعة ومرئية ومقروءة ، تملأ بالزيوفات والأضاليل ، والأباطيل وتروج للانحلال الخلقي ، وتستهدف قتل روح المقاومة في الأمة الإسلامية ، وهي لا تنشر سمومها للمسلمين في فلسطين فقط ، بل إلى بلاد المسلمين الأخرى ، خاصة في البلاد العربية المجاورة لفلسطين .

« هذا ، وإن إذاعة أديس أبابا قد تحولت إلى أقوى إذاعة أفريقية ، وبمساعدة

---

(١) مأساتنا في أفريقيا ، عماد الدين خليل (ص٨٦، ٨٧) ، والكلام على لسان وفد إسلامي نيجيري زار بعض العواصم العربية .

تجهيزات المخابرات الأمريكية تقوم ببث رسائل الإنجيل كل يوم وطوال النهار في كل أفريقيا وباللغات الإنكليزية والفرنسية والعربية والسواحلية ولغة شاننغا ولغة ياروبا بالإضافة إلى عدد آخر من اللغات الإفريقية، دون السماح بدقيقة واحدة لإذاعة القرآن الكريم »(١).

وهناك إذاعة أسستها الإرساليات وهي الإذاعة الموجودة في منطقة الشريط الحدودي بين لبنان وفلسطين المحتلة والتي تسمى بـ« المغامرة السماوية من حدث الأمل » التي تمولها مؤسسات تنصيرية أمريكية(٢).

الثاني: الوسائل الموجودة خارج العالم الإسلامي، وتوجه إلى المسلمين في بلادهم:

ولهذا النوع أمثلة وصور كثيرة، منها:

١ ـ الإذاعات الموجهة من الخارج إلى البلاد الإسلامية:

« والإذاعات الموجهة هي الإذاعات التي توجه برامجها المختلفة، ويصل إرسالها إلى أنحاء العالم بلغات شعوب تلك الدول المستهدفة لتلك الإذاعات، ووفقًا للزمن الذي يوافق تلك الشعوب، وذلك وفق ما تخططه الدولة ضمن سياستها الإعلامية، بحيث يصل صوت الدولة الباثة للإرسال وفق سياسة إعلامية مخططة وليس بشكل عفوي »(٣).

---

(١) السابق، (ص١٤٣، ١٤٤) بتصرف يسير، عن الشهاب، السنة الثانية، عدد (١٤)، أضواء على الصحافة العالمية، أنيس الدين أحمد، مأساة المسلمين في أثيوبيا، صحيفة باكستان الشابة، العدد الثالث تشرين الثاني (١٩٦٦م).

(٢) الإعلام والبيت المسلم، فهمي قطب الدين النجار (ص١٠٣).

(٣) الإذاعات الموجهة باللغة العربية إلى الوطن العربي، د/ محمد محمود المرسي، بحث منشور بمجلة الفكر الإستراتيجي العربي، (ص١٧٧)، مجلة فصلية تصدر عن معهد الإنماء العربي ببيروت لبنان، العدد (٤٢) تشرين الأول (أكتوبر) (١٩٩٢م)، نقلًا =

« ويواجه الوطن العربي عددًا من الإذاعات الموجهة باللغة العربية من مختلف أنحاء العالم ، جاءت بدايتها منذ ثلاثينيات هذا القرن ، وأخذت تزداد كمًّا وكيفًا مع تطور الأحداث وازدياد الأهمية الدولية للوطن العربي ، خاصة بعد استقلال أقطاره المختلفة .

والمهتم بالإذاعات الموجهة باللغة العربية إلى الوطن العربي ، تستوقفه عدة نقاط منها :

١ـ أن الإذاعات الموجهة باللغة العربية تذيع كمًّا كثيرًا من ساعات الإرسال إلى المنطقة العربية ، يبلغ في مجموعه ألفًا وخمسًا وأربعين ساعة وربع ساعة أسبوعيًّا (١٠٤٥.١٥) ، والعديد من هذه الإذاعات يسمع بوضوح في جميع أجزاء الوطن العربي .

٢ـ نتيجة لذلك تأتي اللغة العربية في المركز الثالث ، بين اللغات المستخدمة في الإذاعات الموجهة بعد اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٣ـ أن الوطن العربي محاصر بهذه الإذاعات من جميع الاتجاهات السياسية والعقائدية المختلفة ، فهناك عديد من الإذاعات الموجهة باللغة العربية من أوروبا الشرقية وأوربا الغربية ، الاتحاد السوفيتي « سابقًا » ، الولايات المتحدة الأمريكية ، آسيا ، أمريكا الجنوبية ، إفريقيا ، إضافة إلى العديد من الإذاعات الدينية التبشيرية .

٤ـ هذه الإذاعات ما هي إلا أداة من أدوات تنفيذ السياسة الخارجية للدول

= عن د/ ماجي الحلواني ، مدخل الإذاعات الموجهة ، القاهرة ، دار الفكر العربي (١٩٨٣) (ص١٥) ، وانظر : الإذاعات المصرية الموجهة إلى شرق أفريقيا ، فايز محمد المهدي ، (ص١٥ ــ ٢٠) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٠م) .

التي تقوم ببثها ، وتتبنى من خلال عرضها للآراء المختلفة وجهات نظر معينة تبثها للمستمع بشكل غير مباشر بهدف إحداث تغيير مقصود .

٥ـ العديد من هذه الإذاعات تستخدم تكنيكات دعائية متطورة يصعب على المواطن العادي فهم أبعادها ، وبذلك تزداد مصداقيتها لديه .

٦ ـ أن معدل الاستماع إلى هذه الإذاعات الموجهة باللغة العربية في الوطن العربي في ازدياد مستمر ، وهذا ما تثبته الأبحاث والدراسات التي أجريت في المنطقة العربية »[١] .

وبشكل خاص فإن : « هناك العديد من المنظمات العقائدية المسيحية التي توجه إذاعات باللغة العربية للوطن العربي بهدف التبشير المسيحي .

من أشهر هذه الإذاعات : راديو الفاتيكان « نصف ساعة يوميًا » وراديو حول العالم (٨.١٥ ساعات أسبوعيًا) ، ويبث إرساله على موجة إذاعة «مونت كارلو» بعد انتهائها وراديو « EIwa » (١٣.٣٠ ساعة) والمحطة الأمريكية « wyer » (٣.٣٠ ساعة) ، وإذاعة « صوت الإنجيل » وهي تتبع الاتحاد الدولي اللوثري ، وتذيع ما يزيد على عشرين ساعة أسبوعيًا »[٢] .

« وما تزال هناك محطات إذاعة تبشيرية في مرسيليا وموناكو بالعربية والدارجة تسمع في الجزائر والمغرب وتونس »[٣] .

وبعض هذه الإذاعات من الخطورة بمكان ، بحيث لا يقتصر نشاطها على

---

(١) الإذاعات الموجهة باللغة العربية (السابق ص١٧٦) .

(٢) السابق (ص١٨٥) وفي هامشه المراجع التي أخذ عنها .

(٣) من التبعية إلى الأصالة ، (ص١٨٣) .

البث عبر الأثير فقط ، بل إنها تلاحق المسلمين ، فترسل لهم رسائل على صناديق البريد مقتبسة من الأناجيل ، وتوجههم فيها إلى استماع الإذاعة ، وكيفية تمكنهم من سماعها ، وهذه الرسائل ترسل عشوائيًا ، لمسلمين قد لا يسمعون هذه الإذاعة ، وقد يسمعونها ، فكيف بمن يبتلع الطعم مرة ويراسلهم ، لا شك أن ستكون له عناية خاصة .

ومن هذه الإذاعات التي ترسل هذه المنشورات ، إذاعة حول العالم ـ مونت كارلو .

وقد جاء باسم أحد الزملاء في العمل ، على صندوق البريد الخاص به ـ وهو صندوق بريد مكتب الشؤون الإسلامية والأوقاف في مدينة « خُورفَكّان» بإمارة الشارقة ، في عام ١٩٩٢م ـ خطاب بداخله أحد المنشورات المكتوب على ورقة فاخرة مصقولة ذات لمعان وأناقة ، على الوجه الأول للورقة رسالة للشخص وهي صيغة واحدة لكل الناس ، والوجه الآخر ، به حديث عن أشخاص كانوا ضائعين ، ثم وجدوا معنى الحياة الحقة في الإيمان بالمسيح المخلِّص ، ثم مبادئ نصرانية حول عقيدة الصلب والفداء ، ومحبة الله للإنسان التي تجلت في أن أرسل ابنه «يسوع» ـ تعالى الله عن ذلك ـ ليخلص الإنسان من خطاياه ... إلى آخر هذا الهراء .

وها هو ذا نص الرسالة التي على الصفحة الأولى للمنشور :

حضرة السيد المحترم .

سلامًا عطرًا وتحية خالصة وبعد :

فإن من ميزات عصرنا التطور السريع والتقدم المستمر ، تطالعنا الصحافة

والإذاعة يوميًا بما تم إحرازه من تقدم في شتى المجالات : الصناعية ، والاقتصادية والسياسية ، وبفضل هذا التقدم أتيح لعدد كبير من الناس أن ينعموا بحياة أيسر مما كان يحلم به آباؤهم وأجدادهم ، ومع ذلك فإن المفكرين متيقنون أن في صميم حياة البشر داء وبيلًا يدل عليه ما نلمسه في كل مكان من ظلم وخصومة وعذاب وخوف وموت فهل من دواء ؟ وهل من حل لهذه المشكلة المريعة ؟

ليس من حل اقتصادي للمشكلة ، في البلاد التي أحرزت شأوًا بعيدًا في الحقل الاقتصادي ما يزال فقر واحتياج وإجرام ، وأصحاب اليُسر أنفسهم لم يجدوا في كثرة أموالهم سعادة واكتفاء وسلامًا ، بل مزيدًا من الغموم والهموم .

الحل ليس ثقافيًا ، فقلما نجد في فئة الناس المثقفين ارتياحًا وطمأنينة بما أحرزوه ، أو دلالة على رضاهم بما هم فيه ، بل نرى أن تقدم الثقافة والتربية زاد الناس طمعًا وأنانية ، كما نلاحظ أن تقدم العلوم يُزيد الخوف والنفور بين الدول والأفراد ، ويسبب توترًا وحروبًا .

إن المشكلة ليست مشكلة ذهنية ولا هي متعلقة بالأحوال المادية والظروف المحيطة بالإنسان ، وإنما صميم المشكلة في صميم قلب الإنسان والطمأنينة في قلبه ، فأين يجد المرء السلام المنشود والطمأنينة التي يتوق إليها قلبه ؟

إن كثيرًا من الناس في مختلف البلدان والعصور نالوا بركة عظيمة من الكتاب المقدس الذي هو كلمة الله ، ونالوا منه القوة الروحية التي تتوق إليها نفوسهم المحتاجة .

وفي الكتاب المقدس وجد رجالٌ ونساء ، جيلًا بعد جيل ، القوة والشجاعة لمواجهة مشاكل حياتهم اليومية ، وزيادة على ذلك ، فإن الكتاب المقدس قد

فتح لهم طريق الخلاص الأبدي ، وأعطاهم يقينًا بأن خطاياهم مغفورة وبأن لهم قبولًا عند الله ديان الجميع ، حقًّا إن في استطاعة جميع الناس أن يشاركوا في هاته البركات ، وأن يحصلوا على معرفة الحق الإلهي ، وأن يتمتعوا بالحكمة الحقيقية الموجودة في هذا الكتاب ، كلام الوحي الإلهي .

ويسعدنا أن نقدم لك أيها القارئ العزيز ، على الجهة الأخرى من هذه الورقة رسالة سماوية مقتبسة من الإنجيل ، ونرجو أنك ستجد في قراءة هذه الرسالة بركة لك .

ونغتنمها فرصة لكي نحيطك علمًا بأن في استطاعتنا ، إذا رغبت مزيدًا من المعرفة عن هذه الرسالة السماوية ، أن نرسل لك مجانًا ، نسخة من الإنجيل ، فإذا كنت راغبًا في الحصول على نسخة من الإنجيل ، أرسل إلينا بطاقة موضحًا عليها اسمك وعنوانك ـ وسيكون لنا فرح في تلبية رغبتك وإرسال هذه النسخة من الإنجيل المجانية لك .

وختامًا تقبل أحر تحياتنا ، حفظك المولى تحت رعايته .

صديق .

وفي نهاية الصفحة هذا الكلام :

استمع إلى الرسالة السماوية من الكتاب المقدس على الموجه المتوسطة وطولها (١٤٦٧) يوميًّا الساعة (٢٢.٠٠) بتوقيت غرينتش ، من إذاعة حول العالم مونت كارلو .

وأمام هذا التوجيه صورة لشاشة راديو موضح عليها موجات المحطات الإذاعية التي يستقبل عليها البث ، وقد أشير إلى الموجة المعنية بسهم [1] .

---

(١) لمزيد من المعرفة بالإذاعات التنصيرية الموجهة للمسلمين ، يراجع : الإذاعات التنصيرية الموجهة إلى المسلمين العرب ، د/ كرم شلبي ، وهي دراسة تتناول بالتفصيل خمس=

٢ـ البث الفضائي التلفزيوني المباشر :

« والبث المباشر هو قيام الأقمار الصناعية بالتقاط البث التلفزيوني في بلد من البلدان وبثه مباشرة إلى أماكن أخرى تبعد عن مكان البث الأصلي مسافات بعيدة ، تحول دون التقاط البث دون وسيط »[١] .

ولقد هجم على بلاد المسلمين ما تبثه المحطات التلفزيونية الغربية ضمن ما يسمى بالبث المباشر ، وتهيأت كثير من البلدان الإسلامية لاستقبال هذا البث الأجنبي ، وغدا واقعًا لا ينكر .

وبالإضافة إلى أن المضمون الذي تستقبله أجهزة الاستقبال في بلادنا ، إنما هو صدى ، وتعبير عن ثقافة تلك المجتمعات التي يصدر عنها ـ ولا تخفى على أحد ثقافة تلك المجتمعات المادية المتحللة غير المسلمة ـ فإن هناك برامج دينية توجه من خلال هذا البث ، على غرار الإذاعات التنصيرية المشار إليها منذ قليل ، والنصارى جادون في ضرورة الاستفادة من هذا البث المباشر في التنصير ، ويعدون العدة لهذا الأمر .

وقد أشارت المصادر إلى أنه : « يستعد الفاتيكان لبناء محطة تلفزيونية كبيرة ، للبث في كافة أنحاء العالم للتبشير بتعاليم الإنجيل بواسطة ثلاثة أقمار صناعية تسمى بمشروع نومين (٢٠٠٠) مع العلم أن القمر الواحد يغطي ثلث مساحة الكرة الأرضية »[٢] .

= إذاعات تنصيرية ناطقة بالعربية ، وهي راديو الفاتيكان ، وإذاعة حول العالم ، وإذاعة صوت الغفران ، التي تشتمل على خدمتين إذاعيتين إضافيتين هما « رسالة الإصلاح ، وإذاعة نداء الرجاء » وقد تضمنت الدراسة حقائق مهمة عن استخدام وسائل الاتصال الجماهيري في التنصير ــ عامة ــ وعن دور هذه الإذاعات المشار إليها خاصة .

(١) البث المباشر ، حقائق وأرقام ، (ص٢٢) .

(٢) السابق (ص٥٤) ، نقلًا عن الحاجة إلى تنسيق وتكامل إعلامي ، د/ حمود البدر ، (ص١٩) .

وقد عقد في هولندا اجتماع عالمي للتنصير حضره (٨١٩٤) منصر، من أكثر من مائة دولة، وكلف (٢١) مليون دولار برئاسة المنصر «جراهام بيلي»، وقد تحمل نفقات هذا المؤتمر منظمة «سامرتيان برس»، وهدف المؤتمر دراسة كيفية الإفادة من البث المباشر في التنصير [١].

وتحت عنوان « تبشير بالأقمار الصناعية » كتبت إحدى الصحف الخليجية تقول: « بدأ المبشر التلفزيوني الأمريكي «بللي جراهام» في تقديم برامج تبشيرية بواسطة القمر الصناعي يصل إرسالها إلى (٤٠) دولة بينها فرنسا التي تتلقى هذه البرامج عن طريق (١٥٠) محطة استقبال » [٢].

٣ـ الشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت):

وهذه الوسيلة قد غدت من أخطر الوسائل اليوم في عالم الاتصال، فإن وُظِّفت في الخير كان منها النفع العظيم والخير العميم، وإن استُغلّت في الشرّ كانت وبالا على الحياة والأحياء، وضررًا قلّ أن يسلم أحدٌ منه.

ولقد استُغلت هذه الوسيلة من قبل خصوم الإسلام في الغزو الثقافيّ، والحرب الفكرية المُعلَنة والخفية استغلالا كبيرا، حيث أُنشئت مواقع لا تُحصَى على هذه الشبكة الخطيرة تطفح بالشبهات والمفتريات، وتُروِّج لكل صنوف الباطل وضروب الشرّ، تخاطب جميع الفئات والأعمار، وبكافة اللغات.

ولا شك في أن الإمكانيات الهائلة التي توجد في شبكة " الإنترنت " وما تفرع عنها قد جعلت منها أكثر من وسيلة اتصال؛ فهي وسيلة مقروءة،

(١) السابق (ص٥٤)، نقلًا عن مجلة رابطة العالم الإسلامي (٢٩٠).

(٢) الخليج (ص٢٤)، صحيفة تصدر عن دار الخليج للطباعة والنشر، الشارقة، العدد (٥٠٦٦)، الخميس ٣ شوال (١٤١٣هـ، ٢٥ مارس ١٩٩٣م).

ومسموعة ، ومرئية ، وكذا اتصال مباشر ، في آن واحد ، كما أن تكلفتها الاقتصادية ليست باهظة ، ووصولها إلى كل مكان واختراقها لكل الحواجز ليس صعبا .

وهذا كله يُغري أعداء الإسلام بمزيد من الاستغلال لهذه الوسيلة في حربهم لنا بعامة ، وفي الحرب الفكرية على وجه الخصوص .

والمفترض أن يكون هذا محفِّزا لنا كي ندرك مقدار التحدّي الذي تمثله ، وفي ذات الوقت دافعا لنا كي نُحسِن استغلالها في ردّ عادية هذا الغزو الفكريّ ، ودَرْء أخطاره الماحقة ، ووقاية الأمة من أضراره المدمِّرة ، هذا بالإضافة إلى استغلالها في تبليغ الحق ، ونشر الهدى ، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أحسن .

وهكذا نلمس التخطيط المحكَم ، والتنظيم الدقيق ، من قبل مصادر الغزو الثقافي لتسخير الإعلام بكافة وسائله وصوره في مجال الحرب الفكرية الموجَّهة ضد المسلمين ، الأمر الذي يبرز حجم الخطر المحدق ، والتحدي القويّ ، ويفرض علينا أن نعطي للأمر أهميته ، ونسعى لدرء هذا الخطر الماحق ، ومواجهة تحدي وكيد خصومنا ، بإيمان عميق ، وتنظيم دقيق ، وجهد متواصل .

*****

الفصل الثالث

وسائل أخرى

المبحث الأول :

بعض أبناء المسلمين أنفسهم ، أو المستغربون في الأقطار الإسلامية

المبحث الثاني :

أعمال البر والمؤسسات الاجتماعية الثقافية

المبحث الأول
بعض أبناء المسلمين أنفسهم
أو المستغربون في الأقطار الإسلامية

عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني ، فقلت : يا رسول الله ، إنا كنا في جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : « نعم » ، قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : « **نعم وفيه دخن** » ، قلت : وما دخنه ؟ قال : « **قوم يهدون بغير هديي ، تعرف منهم وتنكر** » ، قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : « **نعم دعاة إلى أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها** » ، قلت : يا رسول الله ، صفهم لنا ؟ فقال : « **هم من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا** » ، قلت : فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال : « **تلزم جماعة المسلمين وإمامهم** » ، قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : « **فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة ، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك** » [1] .

ولقد صدق رسول الله ﷺ فأصبح هؤلاء الدعاةُ إلى جهنم فينا ، هم منّا وما هم منّا ، منّا اسمًا ولغة وموطنًا وظاهرًا ، وما هم منا مبدأ ، وهدفًا والتزامًا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، ك المناقب ، ب علامات النبوة في الإسلام ، جـ ٤ (ص١٧٨) ، وكتاب الفتن ، باب كيف يكون الأمر إذا لم تكن جماعة ، ٨ / ٩٣، ومسلم في ك الإمارة ، ب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ، مسلم بشرح النووي ، جـ١٢ ، (ص٢٣٦، ٢٣٧) ، رقم (١٨٤٧) ، والحاكم في المستدرك ، في كتاب العلم ، باب الأمر بلزوم جماعة المسلمين وإمامهم ، (ج١) ، (ص١١٣) ، وابن ماجه في ك الفتن ، ب العزلة ، ٢ / ١٣١٧، رقم (٣٩٧٩) .

بالحق وجوهرًا .

ولقد رحل الاستعمار وأبقى خلفه أناسًا من أبناء المسلمين ومن المستغربين يسهرون على تنفيذ سياسته ، وهؤلاء وأولئك ممن تعلموا في مدارس الاستعمار الأجنبية ، أو درسوا في المدارس الوطنية في إطار السياسة التعليمية التي فرضها المستعمر ، على النحو المشار إليه سابقًا ، ثم ابتعثوا إلى أوروبا لاستكمال دراستهم أو إن شئت فقل : لاستكمال غسيل عقولهم وتتميم تربيتهم على غير هدي الإسلام ، وإنما على منهج العدو الغازي ، صليبيًّا كان أم شيوعيًّا ، فحملوا أفكار الغرب ، وتشربوا روح الحضارة المادية الكافرة ، فعادوا بوجوه إسلامية ، أو عربية ، وقلوب غربية ، وأدمغة تتبرم بالدين والقيم وتستهين بتاريخ الإسلام وتراثه ، ثم كان من البلاء ، وضرورة حَبْكِ المؤامرة أن قاد هؤلاء أمتهم ، أو بالأحرى أريد لهم أن يقودوها ، ويمسكوا بزمام الأمور فيها ، في مختلف الميادين : سياسية ، وعسكرية ، وتعليمية وإعلامية واجتماعية .... وغيرها ، فعمدوا إلى أفكار الغرب وفلسفته ، ومذاهبه ، ووجهاته ، وزرعوها في المجتمعات الإسلامية ، ونفذوا ما أراده الخصوم ، بل وأكثر من ذلك مما عجز الخصوم أنفسهم عنه ، وصاروا في البلاد الإسلامية شر خلف لشر سلف ، ورزئت بهم الأمة ، وكانوا تطبيقًا حيًّا للمخطط الأثيم الذي عبر عنه «زويمر» وهو : « أن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها »[1] .

ولقد كان من نكد الدنيا على العالم الإسلامي في عصرنا الحاضر أنه ابتلي ببعض الزعامات من الوطنيين ، كانت أقسى على الدين وأهله من خصوم الإسلام الصرحاء ، بل وكانت أحرص وأخلص في تطبيق مخططات الشياطين

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي (ص٣٠) .

من الشياطين أنفسهم .

مصطفى كمال أتاتورك :

وأكتفي في هذا المقام بمثال واحد وشاهد على هذا الذي نحن بصدده ، فأتحدث عن واحد من الوطنيين الذين لم يفسدوا جانبًا معينًا ، في بلده المسلم ، بل لم يترك صغيرة ولا كبيرة من الدين ومظاهر الحياة الإسلامية إلا وقضى عليها ما استطاع إلى ذلك سبيلًا !

هذا هو مصطفى كمال أتاتورك ، الذي خدم أعداء الإسلام خدمات لا تقدر بمال ، بما جنته يداه في حق الإسلام والمسلمين .

فلنتعرف بعض الشيء عليه وعلى أفاعيله النكراء :

« ولد مصطفى كمال باشا بن علي رضا بمدينة سيلانيك سنة (١٢٩٨هـ ، ١٨٨١م) ، وأصل أسرته من قرية بالأناضول ، والتحق بمدرسة ابتدائية تسير على النهج الأوروبي الحديث ، ثم بمدرسة أهلية ثانوية ، فمكث بها سنة ثم تركها ودخل مدرسة حربية .

ثم انتقل إلى المدرسة الحربية باستنبول وتخرج منها ضابطًا ، وكان ذلك في عهد السلطان عبد الحميد الثاني [1] ، ودخل في بعض المؤامرات ضده ، فقُبض عليه ونفي إلى دمشق وهرب منها إلى سيلانيك ، والتحق بجمعية « الاتحاد

---

(١) هو السلطان عبد الحميد الثاني ابن السلطان عبد المجيد ، ولد عام (١٨٤٢م) وتولى السلطنة عام (١٨٧٦م) ، وتنازل عن العرش لأخيه السلطان محمد رشاد في (٢٧) أبريل (١٩٠٩م) ، ونفي إلى سلانيك وانتقل إلى جوار ربه في (١٠ فبراير ١٩١٨م) ، عن ستة وسبعين عامًا ، واشترك في تشييع جنازته كل شعب إستانبول تقريبًا ، انظر : مذكرات السلطان عبد الحميد (ص١٧) وما بعدها بتلخيص وتصرف عن مقدمات المترجم .

والترقي »[١] ، والتحق بالجيش .

وعهد إليه بالإشراف على سكة حديد مقدونية ، وخلع السلطان عبد الحميد (١٣٢٧هـ ، ١٩٠٩م)[٢] .

وقد ذكر صاحب كتاب « الرجل الصنم » وهو أول كتاب عن حياة مصطفى كمال أتاتورك بالتفصيل - كما جاء على الغلاف - روايات تشير إلى أن مصطفى كمال مجهول النسب ، وأن هناك روايات عديدة حول الأب الحقيقي له ، فهناك من يقول : إنه صربي وآخر يقول : إنه بلغاري ، ويزعم أن أمه كانت عشيقته ، والنسخة الجديدة من « لاروس : القرن العشرين » تذكر بأن أباه من البوماك[٣] .

وبعد ذكره لهذه الروايات ، وتعليقه عليها ، يقول :

---

(١) الاتحاد والترقي هو أول حزب سياسي في الدولة العثمانية ، كان ظهوره عام (١٨٩٠م) ، وكان سريًا مكونًا من خلايا طلبة الحربية والطبية والعسكرية ، وكان تأسيسه يهدف إلى معارضة حكم عبد الحميد والتخلص منه ، (السابق ص٥٦ مقدمة المترجم) ، واليهود المتمسلمون المعروفون بيهود الدونما الذين هاجروا من المغرب واستوطنوا البلقان ، كانوا هم المنظمين الحقيقيين لحزب الاتحاد والترقي الذي نادى بالقومية الطورانية « وهي قومية الأتراك في جاهليتهم قبل دخول الإسلام » ورفع شعار الذئب الأغبر « وهو معبود الأتراك في جاهليتهم » كما نادى بضرورة « تتريك » الدولة أي : جعل المناصب فيها وقفًا على الأتراك وحدهم «مذاهب فكرية معاصرة » ، محمد قطب (ص٥٨١) .

(٢) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرية الغربية ، أبو الحسن علي الحسني الندوي (ص٥١) دار القلم الكويت ، دار الأنصار ، القاهرة ط٣ ، (١٣٩٧هـ ، ١٩٧٧م) .

(٣) الرجل الصنم ؛ كمال أتاتورك ، تأليف ضابط تركي سابق ، ترجمة عبد الله عبد الرحمن (ص٣٥ ـ ٤٣) ، بتصرف واختصار ، مؤسسة الرسالة ، ط الأولى (١٣٩٧هـ ، ١٩٧٧م) .

نستطيع تلخيص استدلالاتنا في خمس نقاط :

١ـ من الناحية الأنثربولوجية ، فإن كمال بشقرته الشديدة وبعينيه الزرقاوين وخاصة بجمجمته التي هي من نوع « دوليكوسفال » هو نمط سلافي وبعيد أكثر ما يكون البعد عن العنصر التركي .

٢ـ لما كان من المستحيل أن ينتج نمط « دوليكوسفال » من أبوين كلاهما من نمط « براكتيفال » ، فالصورة كافية لمعرفة نمط الرأس أو الجمجمة ، ولما كانت ناحية الأم معلومة ؛ لأنها والدته ، فإن انتسابه إلى والده يكون مشكوكًا فيه إلى درجة الاستحالة .

٣ـ إن حياة والده تظهر حرمانه المادي والمعنوي من الهدوء والألفة العائلية ، وهي تعلن بأن عدم الاستقرار هذا يعود إلى اضطراره للظهور بمظهر أب [1] لطفل ليس بابنه .

٤ـ وإن حياة والديه وشهرتها تؤيد كل الشكوك .

٥ـ وأخيرًا فإن السكوت المشبوه الذي لزمه مصطفى كمال حول والده ـ لكونه على التأكيد يعلم أمورًا ما ـ يجمع كل الشكوك والشبهات يؤيدها .

قد لا تكون كل نقطة من هذه النقاط تحمل بمفردها إثباتًا علميًا .

ولكن هذه النقاط عندما تجتمع مع بعضها تغني عن الإثبات المادي الذي يمكن تحسسه باليد أو مشاهدته بالعين ، وتدل على الأصل المشبوه لمصطفى كمال .

---

(١) كلمة أب ساقطة والتصويب من الطبعة الرابعة للكتاب (ص٥٠) .

إن النتيجة العلمية هي :

إن نسبه احتمال كونه تركيًا تقل بكثير عن نسبة الخمسين بالمائة ، أما نسبة الاحتمال في أنه لم يكن ابنًا للرجل الذي يقدمونه كأب له ، فتتجاوز نسبة التسعين بالمائة [١] .

« وقد اختلف الناس كثيرًا في شأن أتاتورك « أبو الترك » فقيل : إنه من أصل يهودي ، وأنه لم يدن بالإسلام من قبل ولا من بعد ، وقيل : مسلم ارتد وألحد ، والله أعلم بحقيقته وأعماله ضد الإسلام قريبة الشبه بأعمال الأسبانيين والنورمانديين ، وأعداء الإسلام في أوروبا كلها » [٢] .

وكما هو معروف للقاصي والداني من أهل العلم ، فإنه ألغى الخلافة الإسلامية عام (١٩٢٤م) ، وأعلن تركيا جمهورية علمانية ، واشتد في محاربة الدين وأهله حربًا شعواء ، فقد كان يضمر العداء للدين عامة وللإسلام خاصة ، كما روى أحد المعجبين بشخصيته في كتاب عنه فقال يحكي عن وجهة نظره في الدين :

« قد اقتنع بأن كفاحه يجب أن يوجه إلى الدين ، فإنه منافسه الأكبر ، وكان يعتقد من صغره أنه لا حاجة إلى الله ، إنه اسم غامض خداع مجرد عن كل حقيقة ، وكان لا يؤمن إلا بالمشاهد المحسوس ، وكان يرى أن الإسلام إنما ظل عاملًا هدامًا في الماضي ، وأنه قد جنى على تركيا جناية كبيرة وألحق بها خسائر فادحة ، وقد تناسى أن الإسلام وحده هو الذي أسس الإمبراطورية العثمانية

---

(١) السابق (ص٤٩ ــ ٥١) .

(٢) معركة التبشير والإسلام ، د/ عبد الجليل شلبي (ص٢٧٠) ، مؤسسة الخليج العربي ، القاهرة ، ط الأولى (١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩م) .

الواسعة ، وكان يرى أن الناس قد أصبحوا فريسة الأوهام والجمود بتأثير الإسلام ، وكان يبغض الرجل الذي يخضع للقضاء والقدر ويقول : « هكذا أراد الله » ، « وهذا الذي قدر لي » ، وكان يعتقد أنه لا وجود للإله ، والإنسان يصنع قدره ، وكان يقول في أكثر الأحيان : إن قوة العقل وقوة الإرادة تتغلبان على قوة الإله ، ولكن يقول المتدينون : « الله يمهل ولا يهمل » ، كان يقول : « ألم يطلع هؤلاء المتدينون على الطاقة الكهربائية التي تستغل بسرعة ؟ » ، وكان مصممًا على سن القانون لتحريم الدين في تركيا ، ولو احتاج ذلك إلى استخدام القوة وإلى الخدعة والتضليل »[1] .

وكمثل ما فعل الاستعمار حيال التعليم ، فقد بدأ بتضييق الخناق على التعليم الديني حتى الاختناق ، وإفساح المجال للتعليم اللاديني في طول البلاد وعرضها .

وقد اشتدت حملته على اللغة العربية ، فحاربها حربًا شديدة ، وعمل جاهدًا على التخلص منها .

ونقرأ من بين الأسطر التي يكتبها « عاصم أص » صاحب جريدة « الوقت » ورئيس تحريرها في كتابه « مشاهداتي ، سماعي ، مشاعري » صفحة (٩٦ ـ ٩٩) ، العداوة التي كان يشعر بها مصطفى كمال نحو المدارس الدينية ونحو العرب .

دخلنا إلى المدرسة ، كان مكانًا مربعًا بشكل قشلة عسكرية ، كانت جميع غرف المدرسة في الطابق الأرضي ، وكانت هذه الغرف الصغيرة المظلمة لا

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية (ص٥٤) ، نقلًا عن كتاب « أتاتورك ، لعرفان أوركا » (ص٢٣٧، ٢٣٨) .

تحتوي كل منها إلا على مدفأة ، دخلنا عدة غرف ، لم يكن فيها أحد ، كان معظم الذين يبيتون في هذه المدرسة من الطلاب الذين أتوا من القرى .

ما هو اسم الدرس الذي تقومون بتدريسه يا سيدنا الشيخ ؟

درس اللسان العربي .

أنت تقوم إذن بتعليم الطلبة اللغة العربية ؟ أليس كذلك ؟

نعم[١] .

على أثر هذا الجواب استدعى الغازي أحد الطلاب قائلًا :

خذ هذه الطباشيرة ، وتعال إلى السبورة ، واكتب ما سأقوله لك وترجمه إلى العربية .

وكما بقي في ذاكرتي ، فإن الغازي أعطاه الجملة التالية :

كانت توجد عدة عناصر داخل حدود الإمبراطورية العثمانية السابقة ، وكان العنصر العربي أحد هذه العناصر ، أما الآن فلا يوجد عنصر عربي داخل حدودنا القومية .

قام الغازي واقفًا ، وقمنا نحن كذلك ، والتفت إلى الشيخ قائلًا له :

يا شيخنا البلد يحارب ، وهو يحاول أن ينقذ استقلاله ووجوده ، وإن من الحرام في مثل هذا الوقت منع الشباب التركي من الذهاب إلى الجبهة ، وصرف الوقت لصب اللغة العربية في أذهانهم الفتية في مثل هذه الغرفة المظلمة ، إن أية لغة لا تدرس بهذا الشكل ؛ لأن قضية تعلم اللغة هي قضية محيط على الأكثر ،

(١) الصواب : بلى .

إن « آق شهر » مدينة تركية في الأناضول ولا يوجد هنا من يتكلم العربية ، كذلك فليس هناك أي داع لتعلمها هنا ؛ ذلك لأن العربية اليوم لم تعد لغة العلم والصناعة [١] .

« ومن أعماله أنه ألغى منصب شيخ الإسلام ، ووزارة الأوقاف ، ونادى بأن الإسلام عبادة فقط ولا علاقة له بشؤون الدنيا ، وجعل الصلاة تؤدى باللغة التركية ، حتى الأذان بها أيضًا ، وأمر بترجمة القرآن إلى اللغة التركية ، لا ليفهم معناه ، بل ليتعبد به المتعبد في هذه الترجمة ، وترجم الأحاديث النبوية ، ورصد مبالغ كبيرة لهذه الترجمة ، وهي في الواقع إفساد للإسلام ، وهو لم يبق على ما ترك من المساجد إلا اتقاء لغضبة الشعب ، وحارب كل مظهر إسلامي وحرم الملابس العربية ، ومنع أئمة الإسلام من لبس العمامة ، وسمح لهم فقط بلبس العباءات أو الجبب داخل المسجد ، وحتى اسمه منع منه كلمة « مصطفى » واكتفى بكلمة كمال » [٢] .

ولقد كان ماسونيًّا ، أما كونه أغلق المحافل الماسونية فيما بعد ، فليس إلا ذرًّا للرماد في العيون ، ثم إن إغلاقه لها لم يكن فكريًّا بل كان نفسيًّا ، ذلك أن هذه المحافل لم تعط للباشا درجة المشرف الأعظم ، وقد حقد عليهم لهذا السبب ، وهو الشخص الذي كان يرى كل شخص في الدولة وفي البلد بل حتى كبار الوزراء والحكام العثمانيين في التاريخ أقل منه بكثير ، بسبب العدد الكبير من المنافقين والمتزلفين الذين كانوا يحيطون به من الذين أتخمت بطونهم من مال

---

(١) الرجل الصنم ، (ص٣٤٩، ٣٥٠) .

(٢) معركة التبشير والإسلام ، (ص٢٧١) ، نقلًا عن الدولة العثمانية (٢/ ١٢١، ١٢٢) ، وانظر : الرجل الصنم (ص٣٥٢) وما بعدها .

الأمة ، والذين كانوا يخاطبونه بقولهم له : أنت منقذنا ! أيها العبقري الكبير ... أيها القائد العظيم ، يا أتاتورك « أي : أب الأتراك » وبهذا رفعوه إلى السماء حتى أنهم كانوا يخاطبونه بكلمات لا يخاطب بها سوى الله سبحانه وتعالى .

أمثال : أنت خلقتنا محاولين أن يوهموه بأنه يحمل قدرة إلهية ، وهذا أدى إلى زيادة غروره ، وزيادة صلفه وعنجهيته [١] .

هذا واحد من شياطين الإنس الذي زعم أنه مسلم ، وتم على يديه من الجناية في حق الدين والإسلام والمسلمين ما تعجز عن إتمامه الشياطين أنفسها .

وللأسف يُصوَّر لكثير من المسلمين على أنه بطل ومثال للعباقرة الذين يقتدى بهم في مجال الإصلاح .

محمد سياد بري :

ولقد ابتليت أقطار كثيرة من أقطار الإسلام في عصرنا الحاضر بزعامات وأنظمة مكَّنت للغزو الفكري المعادي في كل شيء ، وأفسدت على الناس صلتهم بربهم ، واجتالتهم عن دينهم ، وإلى الله المشتكى .

وكان منهم من يحاكي أتاتورك ، ويقتفي أثره ، كما فعل الهالك " محمد سياد بِرّي " الذي حكم الصومال لمدة تزيد على عشرين عامًا ، رفع خلالها الراية الماركسية اللينينية ، وكان أول خطواته إلغاء اللغة العربية ، وإعلان أن اللغة الصومالية المكتوبة بالحروف اللاتينية ، هي اللغة الرسمية للبلاد ، وغير ذلك من إعلان المساواة بين الرجل والمرأة في الإرث والزواج والطلاق ، وكل شأن من شؤون الحياة العائلية ، ولما وقف العلماء ضد هذه الخطوات كان عاقبة

---

(١) الرجل الصنم (٤٩٢، ٤٩٣) بتصرف ، الصراع بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية (٢٥٢) وما بعدها ، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، (٢/ ٧٥، ٧٦) هامش .

أمرهم الإعدام بالرصاص في ميدان عام [١] .

ثم إن هؤلاء الصنائع الغربية « الدعاة إلى أبواب جهنم » يُعَدُّون إعدادًا ، يتناسب والمهمة التي سوف يوكل إليهم القيام بها .

وهذه شهادة واحد من دعاة التخريب والإفساد في العالم هو الفيلسوف الوجودي الانحلالي «جان بول سارتر» [٢] ، تبين اهتمامهم بصناعة « المفكر المستغرب » الذي يقوم بدور دليل الطريق للاستعمار وهي شهادة واحد من أهلها ، يقول مشيرًا إلى أسلوب صناعة المفكر الشرقي في الغرب ، ومجال استخدامه :

« كنا نُحضِر رؤساء القبائل وأولاد الأشراف والأثرياء والسادة من أفريقيا وآسيا ، ونطوف بهم بضعة أيام في أمستردام ولندن والنرويج وبلجيكا وباريس ، فتتغير ملابسهم ويلتقطون بعض أنماط العلاقات الاجتماعية الجديدة ، ويتعلمون منا طريقة جديدة في الرواح والغدو ، ويتعلمون لغتنا وأساليب رقصنا ،

---

(١) مأساة العالم الإسلامي في الصومال ، مقال بمجلة منار الإسلام بقلم حسين الحسي ، (ص٦٣، ٦٤) تصدر عن وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف بدولة الإمارات العربية المتحدة ، العدد الحادي عشر ، السنة السابعة عشرة ، ذو القعدة (١٤١٢هـ ، مايو ١٩٩٢م) ، ولمعرفة المزيد من أفاعيل محمد سياد بري النكراء وجرائمه البشعة في حق الإسلام والمسلمين يراجع كتاب « الشيوعيون والشيوعية في ميزان الإسلام » ، د/ عبد الجليل شلبي (٢٣٨ــ ٢٤٠) دار الشروق ، القاهرة ، ط الأولى (١٩٧٦م) .

(٢) مفكر وأديب فرنسي ، ولد بباريس سنة (١٩٠٥) ، وتخرج من مدرسة المعلمين ، وسار في الاتجاه الفلسفي الذي رسمه من قبل «هيدغر» الفيلسوف الألماني لمذهبه الوجودي ، وانتشرت أفكاره وكتبه في عدد من اللغات ، ومنها العربية ، وأنشأ مجلة « الأزمنة الحديثة » (١٩٤٦) لبث نظرياته وتأييدها ، وقد اعتبر الممثل الأساسي والمنظر الأول للوجودية في فرنسا ، المعجم الأدبي ، تأليف جبُّور عبد النور ، (ص٥٠٣) باختصار .

وركوب عرباتنا ، وكنا ندبر لبعضهم أحيانًا زيجات أوربية ، ثم نلقنهم أسلوب الحياة الغربية ... كنا نضع في أعماق قلوبهم الرغبة في أوروبا ، ثم نرسلهم إلى بلادهم وأي بلاد !! بلاد كانت أبوابها مغلقة في وجوهنا ، ولم نكن نجد منفذًا إليها ، كنا بالنسبة إليها رجسًا ونجسًا ، لكن منذ أن أرسلنا المفكرين الذين صنعناهم إلى بلادهم كنا نصيح من أمستردام أو برلين أو باريس : « الإخاء البشري » فيرتد رجع أصواتنا من أقاصي أفريقيا أو الشرق الأوسط أو شمالي أفريقيا ، كنا نقول : « ليحل المذهب الإنساني أو دين الإنسانية محل الأديان المختلفة » وكانوا يرددون ... هذه أصواتنا من أفواههم وحين نصمت يصمتون ! إلا أننا كنا واثقين من أن هؤلاء المفكرين لا يملكون كلمة واحدة يقولونها غير ما وضعنا في أفواههم» (١) .

ولقد كان هؤلاء المستغربون أخطر على الأمة من أعدائها السافرين ، حيث إنهم مستترون خلف أقنعة ، ويندسون في صفوف الأمة ينخرون في عظامها كالسوس ، ولا يُلتفت إلى خطرهم ، أو يُفطن إليه إلا بعد حين ، شأنهم في ذلك شأن أسلافهم من المنافقين .

******

(١) شبابنا في وجه الإعصار الغربي ، بقلم عبد القادر عبار ، مجلة الأمة (ص٢١) ، تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر ، العدد الخمسون ، السنة الخامسة ، صفر (١٤٠٥هـ) ، تشرين الثاني (نوفمبر ١٩٨٤م) .

المبحث الثاني
أعمال البر والمؤسسات الاجتماعية والثقافية

١ـ أعمال البر والإحسان :

وخصوم الإسلام يستغلون كل وسيلة في الغزو الفكري ، حتى أعمال البر والإحسان ، لا يتورعون عن تسخيرها لمآربهم وأهدافهم .

ولقد استغلت مصادر الغزو الفكري ـ وخاصة المصدر النصراني ـ أعمال البر والإحسان في بث الفكر المناقض للإسلام بين المسلمين .

ومن الأمثلة على ذلك : أعمال التطبيب عن طريق المستوصفات والمستشفيات ، التي يؤمها المسلمون ، وتكون خاضعة لجهات التبشير .

فقد تواصوا وتباحثوا لكيفية جعلها وسيلة من وسائل الغزو الفكري النصراني بين المسلمين .

وفي مؤتمر القاهرة التبشيري الذي انعقد سنة (١٩٠٦م) برئاسة القسيس «زويمر» رئيس إرسالية التبشير في البحرين ، كان من برنامج المؤتمر التباحث في مسألة إرساليات التبشير الطبية .

فقام المستر « هاربر » وأبان وجوب الإكثار من الإرساليات الطبية ؛ لأن رجالها يحتكون دائماً بالجمهور ، ويكون لهم تأثير على المسلمين أكثر مما للمبشرين الآخرين .

وكان ممن تكلم في هذا الشأن في ذلك المؤتمر ؛ الدكتور « أراهاس » طبيب

إرسالية التبشير في طرابلس الشام، وختم كلامه قائلًا :

يجب على طبيب إرساليات التبشير ألَّا ينسى ولا في لحظة واحدة أنه مبشر قبل كل شيء، ثم هو طبيب بعد ذلك .

وخطب الأستاذ «سمبسون» بعد ذلك - في بيان فضل الإرساليات الطبية - ومما قاله :

إن المرْضى والذين ينازعهم الموت بوجه خاص لا بد لهم من مراجعة الطبيب، وحسن أن يكون هذا الطبيب «المبشر» في جانب المريض عندما يكون في حالة الاحتضار، التي لا بد أن يبلغها كل واحد من أفراد البشر [١] .

وقد ذكر صاحبا كتاب «التبشير، والاستعمار» حقائق رهيبة من مصادر معتمدة حول استغلال المصدر النصراني للتطبيب في التبشير بالنصرانية، والحرص على الكرازة [٢] بالدرجة الأولى، لا على المعالجة، وهذه الحقائق التي ذَكَراها تعد في نظري - وثيقة خطيرة الدلالة في هذا الشأن، فقد قالا تحت عنوان «اعترافهم بخداع المرضى» [٣] :

وإذا أنت أردت أن تعرف مبلغ اهتمام هؤلاء الأطباء بالتبشير لا بالتطبيب، فاعلم أن نفرًا منهم أنشؤوا مستوصفًا في بلدة الناصرة في السودان، وكانوا لا

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي (٢٣ - ٢٤) باختصار، المكتبة السلفية، القاهرة، ط الرابعة (١٣٩٨هـ) .

(٢) الكرازة : تعبير مسيحي معناه إلقاء النصائح على الآتين إلى الكنيسة، كرز أو خرز «بالسريانية» معناه : وعظ، التبشير والاستعمار، د/ مصطفى خالدي، د/ عمر فروخ (ص٦١) هامش .

(٣) السابق (ص٦١- ٦٣) باختصار نقلًا عن مراجع أجنبية .

يعالجون المريض أبدًا ! إلا بعد أن يحملوه على الاعتراف بأن الذي يشفيه هو المسيح .

ومثل هذا كان فعلهم في أماكن مختلفة ؛ ففي بلدة الناصرة هذه مثلًا كان التنصير والتطبيب يسيران جنبًا إلى جنب ، وفي الحبشة كانت المعالجة لا تبدأ قبل أن يركع المرضى ويسألوا المسيح أن يشفيهم .

ومن الحيل التي استعملها المبشرون في وادي النيل أنهم استخدموا ثلاثة مراكب ، وجعلوها مستوصفات نقالة على النيل ، وكانوا يعلنون عن مجيء الطبيب قبل أن يصل بوقت طويل ، فيأتي الناس من كل صوب يحملون مرضاهم ، وينتظر الجميع قدوم الطبيب ، في هذه الأثناء يقوم فيهم من يبشر فرحًا بالجموع ، من غير أن يتحرك ضميره لهذه الآلام التي يتحملها المرضى في وضح الشمس ، ومضض الانتظار عمدًا وخداعًا .

ومثل هذا كانوا يفعلون في بلدة الشيخ عثمان في اليمن ، كان الناس يأتون من مكان بعيد يحملون مرضاهم ، وكان أولئك الأطباء الذين لم يضع الله في قلوبهم شيئًا من معاني الإنسانية لا يبدؤون بعلاج المرضى إلا بعد أن يكرزوا عليهم ، وحملت أمٌّ مرة طفلها المريض ، وجاءت به إلى مستوصف الناصرة بالسودان ، ولكن الطفل مات في أثناء الطريق الطويلة ، فلم يُعزِّ الطبيب هذه الأم الثكلى ، بل جلس يكرِّز عليها .

وكان المبشرون يعلنون ذلك ولا يكتمونه ، فقد قال «رشتر» : في هذه المناسبات من التطبيب في مستوصف أو مستشفى يمكن للطبيب أن يخاطب المسلمين بكلام كثير لو سمعوا بعضه في مكان غير المستشفى ومن شخص غير

الطبيب لامتلؤوا غيظًا .

أما حيث تمتزج الصفاقة بالتدجيل ، ويمتزج الجهل بموت الضمير ؛ فكلام «إيراهاريس» ، قالت «إيراهاريس» تنصح الطبيب الذاهب بمهمة تبشيرية :

« يجب أن تنتهز الفرص لتصل إلى آذان المسلمين وقلوبهم ، فتكرز لهم بالإنجيل ، إياك أن تضيع التطبيب في المستوصفات والمستشفيات ، فإنه أثمن تلك الفرص على الإطلاق ، ولعل الشيطان يريد أن يفتنك فيقول لك : إن واجبك التطبيب فقط لا التبشير ، فلا تسمع منه » . اهـ .

بل إن المصدر الصليبي النصراني ومن يدور في فلكه يستغلون الكوارث والجوائح التي تصيب بلدًا من بلاد المسلمين في التنصير ومحاربة الثقافة الإسلامية ، بل وأكثر من هذا جُرْمًا وبشاعة وفجورًا أن الأنظمة الدولية التي تدور في فلك الصليبية العالمية ومن والاها تسعى إلى تهيئة الأسباب التي ينجم عنها إفقار الشعوب الإسلامية وامتصاص خيراتها ، وإذهاب ريحها وقوتها .

وقد جاء في قرارات مؤتمر «كولورادو» المنعقد في عام (١٩٧٨م) بالولايات المتحدة ، للبحث في موضوع تنصير المسلمين ، ما يلي :

« ولكي يكون هناك تحول فلا بد من وجود أزمات معينة ومشاكل وعوامل إعداد وتهيئة تدفع الناس أفرادًا وجماعات ، خارج حالة التوازن التي اعتادوها ، وقد تأتي هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية ، كالفقر والكوارث والحروب ، وقد تكون معنوية ، مثل التفرقة العنصرية ، والحساسية بسبب تسامح المجتمع تجاه النفاق ، أو الوضع الاجتماعي المتدني ، وفي غياب هذه الأوضاع المهيئة ، فلن تكون هناك تحولات كبيرة إلى النصرانية »[١] .

---

(١) الإسلام والتحديات الجديدة ، د/ محمد عمارة (ص٢٥٤) ، وهو دراسة لقرارات المؤتمر المشار إليه .

ويعلق الدكتور محمد عمارة على هذا النص بقوله :

« إننا ندعو إلى قراءة العبارة الأخيرة ، وتأملها ، والتفكر فيها مرات ومرات ! وفي غياب هذه الأوضاع « الكوارث » المهيئة ، فلن تكون هناك تحولات كبيرة إلى النصرانية ... ؟

أيُّ دين هذا الذي لا يتحول الناس إليه إلا إذا كانوا ضحايا الفقر والجوع والمرض والكوارث والحروب والتفرقة العنصرية والنفاق ؟!

وأيُّ رجال دين هؤلاء الذين يصنعون بالمسلمين هذه الكوارث ليحولوهم عن الإسلام إلى النصرانية »[1] ؟!!

بل لقد اتخذوا واحدا من أبحاث هذا المؤتمر عنوانًا لو اكتفينا به لكفى !

عنوان : « الغذاء والصحة وسائل لتنصير المسلمين » .

وفي هذا البحث فَرْحةٌ بما يعانيه المسلمون في هذا العصر من احتياجات ـ مادية ومعنوية ـ وبضغط هذه الاحتياجات على الحكومات الإسلامية إلى الحد الذي جعلها تفتح بلادها لإرساليات التنصير ثمنًا لتلبية هذه الاحتياجات .

نعم ! هذا ما يقوله كاتب هذا البحث ـ بل كتَّابه ـ عندما يصرحون :

« إن المسلمين في العالم اليوم يواجهون احتياجات ماسة وضرورية في عدة مجالات ، منها المياه العذبة ، والغذاء الصحي ، ومكافحة الأمراض والطفيليات ، ويحتاجون كذلك إلى جوانب روحية أساسية ، إن من إحدى معجزات عصرنا أن كثيرًا من الحكومات والشعوب الإسلامية تدرك معظم الاحتياجات ، وترغب في العمل على درئها ، وهذا الوضع ينطبق بصورة

---

(١) السابق (ص٢٥٥) .

واضحة على الباكستان والهند وبنجلاديش وأندونيسيا ، ودول أخرى فيها تجمعات إسلامية كبيرة ، ونتيجة لذلك تبدل موقف هذه الدول التي كانت تناهض العمل التنصيري ، وأصبحت أكثر تقبلًا للنصارى »[١] .

فهم يستغلون حاجة الناس وكوارثهم ، ويستترون في أعمال الخير والإحسان ، ويتذرعون بها إلى إخراج المسلمين من الإسلام ، أو زعزعة معتقداتهم الدينية .

« كتب « ألمردوغلاس » مقالًا عنوانه : « كيف نضم إلينا أطفال المسلمين في الجزائر » ، ذكر فيه أن ملاجئ قد أنشئت في عدد من أقطار الجزائر في شمال إفريقية لإطعام الأطفال الفقراء وكسائهم وإيوائهم أحيانًا ، ثم قال : إن هذه السبيل لا تجعل الأطفال نصارى ، لكنها لا تبقيهم مسلمين كآبائهم ، ومثل هذه الجهود يبذلها المبشرون في شمالي إفريقية ومصر »[٢] .

والبيوت التي ينشؤونها لإيواء المطلقات والأرامل ، ومن على شاكلتهن من النساء اللواتي تعضهن الحاجة ، إنما هي مباءة لغزو عقولهن وقلوبهن بالفكر النصراني ، وتفريغ أدمغتهن من الإسلام ما أمكن .

وقد أشار إلى هذا مؤتمر قسطنطينة (في الجزائر) بما نصه[٣] :

« إن الحاجة الملحة المستعجلة إنما هي إنشاء بيت أو بيوت للفتيات المطلقات وللأرامل الصغار ، ويجب ألا تكون هذه البيوت مؤسسات كبيرة ، بل أماكن يخيم عليها الجو العائلي ، ثم تفرق النساء فيها حسب أحوالهن وحاجاتهن ،

---

(١) السابق (ص٢٥٦) .

(٢) التبشير والاستعمار (ص١٩٤) نقلًا عن مراجع أجنبية .

(٣) السابق (ص٢٠٥) نقلًا عن مرجع أجنبي .

وكذلك مكث هؤلاء النسوة في تلك البيوت يجب أن يطول أو يقصر حسب المقتضيات الشخصية لكل واحدة منهن ، ثم إن كل فتاة يجب أن تعلم من الصناعات المحلية ما يمكنها العيش به بعد أن تغادر تلك البيوت .

وأخيرًا نرى أن أمثال هؤلاء النسوة يكن في أثناء مكثهن في هذه البيوت تحت تأثير الإنجيل ، ثم إننا نختار منهن أولئك اللواتي يرجى أن يُمَرَّنَّ أكثر من سواهن ليكن بدورهن مبشرات بين قومهن » . اهـ .

وهكذا نرى أن أعمال البر والإحسان التي يتستر خلفها المنصرون ، إنما هي في حقيقتها وسيلة لزحزحة المسلمين عن دينهم ، وإبعادهم عن شرائعه وشعائره ، والإلقاء بهم في مستنقعات الأفكار الآسنة ، والعقائد المحرفة الباطلة .

٢ ـ زرع جمعيات ونواد مقنعة في العالم الإسلامي :

ثم إن هناك مراكز أجنبية وأندية وجمعيات منبثة في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وهي تقوم بأدوار مشبوهة ، وأنشطة رهيبة مدمرة في إطار حملات الغزو الفكري ، وهذه المراكز تعد من أخطر ركائز وأدوات الغزو الفكري في البلاد الإسلامية .

وهي تستقطب لعضويتها كثيرًا من أبناء الأمة ، وخاصة من أوساط المثقفين وكبار المسؤولين .

ومن هذه الجمعيات ، على سبيل المثال : « الروتاري » .

« وهي جمعية تتظاهر بالعمل الإنساني من أجل تحسين الصلات بين مختلف الطوائف ، وتتظاهر كذلك بأنها تحصر نشاطها في المسائل الاجتماعية والثقافية والاقتصادية .

ولهذه الجمعية نواد في أكثر عواصم العالم ، انضم إليها عدد كبير من الشخصيات العالمية ، وتحقق هذه النوادي أهدافها عن طريق الحفلات الدورية والمحاضرات والندوات التي تدعو إلى التقارب بين الأديان وإلغاء الخلافات الدينية ، وبذلك يتسرب اليهود إلى المجتمعات مستغلين فكرة التسامح التي ينادي بها المخدوعون المضللون ، وينفذون أغراضهم في التجسس على البلاد التي يعيشون فيها» [١] .

ولهذه المنظمة « نواد في عدد من الدول كمصر والأردن وتونس والجزائر وليبيا والمغرب ولبنان ، وتعد بيروت مركز جمعيات الشرق الأوسط » [٢] .

ومنها كذلك « الليونز » ، وهي مثل «الروتاري» وتسير على نفس الخط .

« إنها مجموعة نوادٍ ذات طابع خيري اجتماعي في الظاهر ، ولكنها لا تعدو أن تكون واحدة من المنظمات العالمية التابعة للماسونية [٣] التي تديرها أصابع اليهود بغية إفساد العالم وإحكام السيطرة عليه » [٤] .

خطورة هذه النوادي [٥] :

وتتمثل خطورة هذه النوادي من خلال الآتي :

١ ـ نشاطاتها الخيرية الظاهرية مصيدة تخفي وراءها أهدافها الحقيقة .

---

(١) جذور البلاء (ص١٥٧، ١٥٨) ، الموسوعة الميسرة (ص٢٤٣ ، ٢٤٧) .

(٢) الموسوعة الميسرة (ص ٢٤٧) .

(٣) الماسونية : حركة يهودية هدفها القضاء على الأديان « المسيحية والإسلام » ، والمجتمعات الإنسانية ، تمهيدًا لتسلط دولة اليهود على العالم . جذور البلاء (ص ١١٦) .

(٤) الموسوعة الميسرة (ص٤٣١) .

(٥) السابق (ص٤٣٣ ، ٤٣٤) .

٢ـ يتسمون بالتخطيط الدقيق ، ويعملون على أساس من السرية في جمع المعلومات .

٣ـ يتعرفون على أسرار المهن من خلال لقاءاتهم مما يعطيهم قدرة على التحكم في السوق المحلية ، كما يعينهم على التدخل في الشؤون الاقتصادية للبلد .

٤ـ يجمعون المعلومات المتعلقة بالشؤون السياسية والدينية للبلد الذي يعملون فوق أرضه ويرسلونها إلى مركز المنظمة العالمي التي تقوم بتحليلها ووضع الخطط اللازمة والمناسبة حيالها .

٥ـ إنهم يقسمون المنطقة التي يعملون فيها ، ومن ثم يجب أن يغطي كل قسم بنشاطه القطاع المتعلق به .

٦ـ هناك غموض شديد يكتنف أسرارهم ومواردهم ووسائلهم .

٧ـ تضرب مجالس إدارات مناطق «الليونز» إجراءات أمن مشددة حولها .

٨ـ يرددون دائمًا شعار : « الدين لله والوطن للجميع » .

٩ـ الإسلام لديهم يقف على قدم المساواة مع الديانات الأخرى سماوية كانت أم بشرية ، هذا من حيث الظاهر ، أما الحقيقة فإنهم يكيدون له أكثر مما يكيدون لسواه .

١٠ـ يركزون في دعواتهم ومحاضراتهم على إبراز مكانة معينة لإسرائيل وشعبها ، كما يقومون بزراعة أفكار صهيونية في عقول أعضائها .

١١ـ لقد عقدوا دورة في نوادي ليونز مصر الجديدة بالقاهرة للحديث عن معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل .

١٢ـ إنهم يقيمون حفلات مختلطة ماجنة راقصة تحت شعار : « الحفلات الخيرية » .

١٣ـ لقد أصدر المجمع الفقهي في دورته الأولى المنعقدة في مكة المكرمة بتاريخ (١٠ رمضان ١٣٩٨هـ) قرارًا بين فيه أن مبادئ حركات الماسونية والليونز والروتاري تتناقض كليًّا مع مبادئ وقواعد الإسلام . ا هـ .

٣ـ الاستشراق والتبشير :

الاستشراق : هو ذلك التيار الفكري الذي تمثل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي ، والتي شملت حضارته وأديانه ، وآدابه ولغاته وثقافته ، ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن العالم الإسلامي معبرًا عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما [١] .

والتبشير ـ كما اصطلح عليه واشتهر بهذا الاسم ـ هو التنصير وهو يعني: قيام النصارى بدعوة غيرهم إلى النصرانية وحملهم على اعتناقها ، وقد خصصوا النصيب الأكبر من جهودهم في هذا الميدان إلى المسلمين خاصة .

وقد أثبتت البحوث أن ثمة علاقة بينهما ، لدرجة أنه يمكن القول بأنهما وجهان لعملة واحدة .

ويجمعهما من بين أهداف كثيرة ، بل على رأس أهدافهما الهدف الديني الذي يتمثل في الهجوم على الإسلام ومحاولة إضعاف شأنه ، وإيقاف نشره .

وقد استُخدِم الاستشراق والتبشير في حرب الكلمة ، أو القيام بدور فعال في الغزو الفكري ضد الإسلام .

---

(١) أيضًا (ص٣٣) .

وهما يُعدّان من وسائل الغزو الفكري المعادي للإسلام ، كما يُعدّان كذلك من مصادره .

وإنني أرى أن الأجدر أن يعدّا ضمن المصادر ؛ إذ هما في رأيي بمثابة المصنع الذي يصنع ويخرج المادة الفكرية المعادية للإسلام ، وإن كانا يعدان كذلك من وسائل نشرها ؛ ولذا أكتفي بهذه الإشارة في هذا المقام .. وبالله التوفيق .

*****

البَابُ الثَّالِثُ

صور من الغزو الفكري

الفصل الأول :

من صور الغزو الفكري في جانبي العقيدة والشريعة

الفصل الثاني :

من صور الغزو الفكري في التاريخ واللغة العربية

الفصل الأول

من صور الغزو الفكري في جانبي العقيدة والشريعة

المبحث الأول :

الدعوة إلى القوميات وإحياء النزعات العنصرية القديمة

المبحث الثاني :

حصر الدين في دائرة التعبد دون امتداده إلى شؤون الحياة

المبحث الأول
الدعوة إلى القوميات وإحياء النزعات العنصرية القديمة

لقد جاء الإسلام وبنى على التوحيد أمة متماسكة ، وربط بين هذه الأمة الإسلامية الفريدة برباط قوي لا يفِلّه شيء ، فهو من الله يستمد قوته ، وبحول الله يقوى تماسكه ، هذا الرباط هو رباط العقيدة ، وظلت أمة الإسلام مستعصية على محاولات الأعداء القضاءَ عليها ، بسبب تمسكها بهذا الرباط المتين وانضوائها تحت ظلاله .

فكان أن لجأ خصوم الإسلام إلى توهين هذا الرباط ، وإضعاف تماسكه ، ليسهل عليهم التغلب على الأمة الإسلامية ، فتفتقت أذهانهم الماكرة عن إشاعة فكرة القوميات في العالم الإسلامي ، لتعود الأمة إلى ما كانت عليه في جاهليتها من التناحر والاختلاف نتيجة التعصب للأجناس والتحيز للأقوام ، فيضرب بعضهم رقاب بعض ، وتستحوذ عليهم الشياطين ، ويصيرون كما كانوا في عذاب وضلال مبين .

ومع إشاعة القوميات كانت هناك جهود مستميتة لإحياء النزعات العنصرية الإقليمية القديمة في كل قطر ، ومحاولة بعث الحياة فيها بشتى الوسائل ، فيتفاخر الناس بمن كانوا قبل الإسلام وينتسبون إليهم ، ويجتمعون على أساس الصلة التي تصلهم بهؤلاء القدامى ، وينسون شيئًا فشيئًا صلة الإسلام وأخوة الدين ، بل وصلة العروبة ، ويصبح العربي أجنبيًا عن أخيه العربي ، فضلًا عن أخيه المسلم ؛ لأن هذا فرعوني ، وذلك بابلي ، والثالث

آشوري إلى آخره .

وأخذت تنتشر في عصرنا الحاضر الدعوات إلى القومية ، مثل القومية العربية ، والقومية الطورانية ، والقومية الفارسية ، وغيرها ، والدعوات الإقليمية مثل الدعوة إلى الفرعونية ، وما يتبعها من إحياء للتاريخ الفرعوني الوثني ، وشغل الناس به ، ونحوها من الدعوات .

وإن مثل هذه الدعوات إنما هي من الفكر المعادي للإسلام ، ويراد بها في المقام الأول القضاء على العقيدة الإسلامية التي يتجمع عليها شمل المسلمين ، من مشارق الأرض ومغاربها .

وأقف هنا مع مثالين من هذه الدعوات ، مبثوثين في غير ما وسيلة من وسائل الغزو الفكري ، وهما « القومية العربية » ، و« الفرعونية » ، لأكشف عن حقيقتهما وموقف الإسلام منهما :

القومية العربية

فأما القومية العربية فهي : « حركة سياسية فكرية متعصبة ، تدعو إلى تمجيد العرب ، وإقامة دولة موحدة لهم على أساس من رابطة الدم والقربى واللغة والتاريخ ، وإحلالها محل رابطة الدين ، وهي صدى للفكر القومي الذي سبق أن ظهر في أوربا »[1] ، فهي دعوة لا تعدو أن تكون بضاعة غربية صدَّرها لنا الغرب ، خاصة بعد أن تفشت في بلاده وظهرت آثارها الضارة عليهم .

نشأة القومية في أوربا :

ولقد كانت أوربا تعيش نوعًا من التجمع ولونًا من الوحدة بسبب ما كان للعقيدة من سلطان في نفوس المسيحيين الأوربيين ، وما كان للكنيسة البابوية

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة (ص٤٠١) .

من سلطان أيضًا .

ثم إنه قامت حركات « إصلاحية » كانت بمثابة ردود فعل لطغيان الكنيسة ، وتحد لسلطانها ، ثم حدث بعد ذلك نفور من الدين نفسه وانسلاخ منه ، لأسباب كثيرة ـ ليس لذكرها الآن مجال ـ فانفرط عقد هذا التجمع ، وانحلت روابطه .

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي : « والدين مهما تحرف وتغير لا يعرف الفروق المصطنعة بين الإنسان والإنسان ولا يفرق بين الأجناس والألوان والأوطان ، فجمعت النصرانية الأمم الأوربية تحت لواء الدين ، وجعلت من العالم النصراني عشيرة واحدة ، وأخضعت الشعوب الكثيرة للكنيسة اللاتينية ، فغلبت العصبية القومية والنعرة الوطنية ، وشغلت الأمم عنها لمدة طويلة ، ولكن لما قام «لوثر» [1] سنة ١٥٢٦م بحركته الدينية الإصلاحية الشهيرة ضد الكنيسة اللاتينية ، ورأى من مصلحة مهمته أن يستعين بالألمان جنسه ونجح في عمله نجاحًا لا يستهان بقدره ، وانهزمت الكنيسة اللاتينية في عاقبة الأمر ، فانفرط عقدها ، واستقلت الأمم وأصبحت لا تربطها رابطة ، ولم تزل كل يوم تزداد استقلالًا في شؤونها وتشتتًا ، حتى إذا اضمحلت النصرانية نفسها في أوربا قويت العصبية القومية والوطنية ، وكان الدين والقومية ككفتي ميزان

---

(١) مارتن لوثر (١٤٨٣ـ ١٥٤٦) : راهب ألماني زعيم حركة الإصلاح البروتستانتي في ألمانيا ، هاجم متاجرة الكنيسة بصكوك الغفران ، وعلق على باب كنيسة «ويتنبرغ» احتجاجه المؤلف من خمس وتسعين فقرة عام (١٥٢٧) ، حرمه البابا «ليو العاشر» من شركة المؤمنين عام (١٥٢١) ، ترجم « الكتاب المقدس » إلى الألمانية الدارجة عام (١٥٣٤) ، فكان لذلك أثر كبير في تطور الأدب الألماني ، معجم أعلام المورد (ص٣٨٩) .

كلما رجحت واحدة طاشت الأخرى ، ومعلوم أن كفة الدين لم تظل تخف كل يوم ، ولم تزل كفة منافسته راجحة ، وقد أشار إلى هذه الحقيقة التاريخية الفاضل الإنجليزي «لورد لوثين» السفير البريطاني في أمريكا في خطبته التي ألقاها في حفل جامعة «عليكرة» في يناير سنة ١٩٣٨ :

« لما قضت حركة «لوثر» التي تدعى حركة إصلاح الدين على وحدة أوربا الثقافية والدينية انقسمت هذه القارة في إمارات شعبية مختلفة ، أصبحت منازعتها ومنافستها خطرًا خالدًا على أمن العالم »[(١)] .

« وكان نتيجة الانحطاط الديني ، وانخفاض مبادئ الدين والأخلاق ، رجحان كفة الوطنية والجنسية »[(٢)] .

وهكذا « أدى ظهور القوميات الجديدة إلى تفكك الوحدة الأوربية الموروثة عن الإمبراطورية الرومانية ، هذه الوحدة التي حافظت عليها الكنيسة

(١) ولقد وقع هذا الخطر فعلًا ، حيث استعرت الحروب واشتعلت الصراعات العنيفة بين تلك القوميات الناشئة في أوربا ، وآل الأمر إلى حروب عالمية أضرت بالجميع ، وآذت العالم كله ، فكانت الحربان العالميتان في التاريخ المعاصر وبالًا وخرابًا ، كما يتضح من استعراض بعض آثارهما فيما يلي : « أما المصابون في حرب (١٩١٤ــ ١٩٤٨) الكونية ، فيبلغ عددهم على الأصح واحدًا وعشرين مليون نسمة (٢١٠٠٠٠٠٠) عدد المقتولين منهم سبعة ملايين (٧٠٠٠٠٠٠) وقدر المستر «مكستن» عضو البرلمان الإنجليزي أن المصابين في الحرب الثانية الكبرى (١٩٣٩) لا يقل عن خمسين مليون (٥٠٠٠٠٠٠٠) وقد كلف قتل رجل واحد في الحرب الأولى عشرة آلاف جنيه ، أما مجموع نفقاتها فيبلغ (٣٧٠٠٠٠٠٠٠٠٠) ، أما نفقات الحرب الثانية لساعة واحدة فمليون من الجنيهات (١٠٠٠٠٠٠) ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (ص٢٠٥) .

(٢) السابق : (ص١٩٦، ١٩٧) .

الكاثوليكية في القرون الوسطى »[١] .

نشأة القومية في العالم الإسلامي في العصر الحديث :

« وأول ما غزت هذه الفكرة القومية العالم الإسلامي في العصر الحديث كان في عهد نابليون ، حيث عانت جنوده في مصر من حرب ترفع شعار « الله أكبر » والعزة للمسلمين » .

فلم يجد نابليون خلال هذه الوحدة إلا أن يخرج على الناس بوساطة العلماء المستشرقين المصاحبين لحملته على مصر ـ بفكرة القومية ؛ ليفتت بها وحدة الأمة الإسلامية »[٢] .

ولقد كانت رغبة الغرب جامحة في القضاء على الخلافة العثمانية التي انتظم المسلمون في عقدها على ما يزيد على أربعة قرون ، وكانت حجر عثرة في وجه أطماع اليهود في فلسطين ، فرأوا أن أكبر الوسائل التي تحقق لهم هذا الأمل العريض هو نشر القوميات ، ثم تجنيد أناس ينفخون في الدعوة إلى القومية العربية على وجه الخصوص ، ولكي تسري هذه الفكرة بين المسلمين العرب بالشكل المطلوب ؛ عملوا على تهيئة الأسباب التي تحفزهم على التعصب للقومية العربية ، فكان أن قام ثلة من اليهود في دار الخلافة ـ أسلموا نفاقًا ـ بالدعوة إلى القومية الطورانية والتعصب لها ؛ ليحدث رد الفعل عند العرب ، أو بالأحرى يوجد من يحرضهم على التنادي بالقومية العربية ، ويستثير هذا

---

(١) الشعوبية الجديدة ، محمد مصطفى رمضان ، (ص٣٢) بدون تاريخ ودار نشر ، نقلًا عن : التاريخ الحديث والمعاصر ، محمد قاسم وأحمد نجيب هاشم ، دار المعارف بمصر (ص٥) .

(٢) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، د/ علي عبد الحليم محمود ، (ص١٥٦) ، الشعوبية الجديدة ، (٣٥، ٣٦) .

الأمر في نفوسهم .

وإلى هذا يشير أحد الباحثين ، فيقول : « فاليهود المتمسلمون المعروفون بيهود الدونما ، الذين هاجروا من المغرب واستوطنوا البلقان ، كانوا هم المنظمين الحقيقيين لحزب الاتحاد والترقي الذي نادى بالقومية الطورانية «وهي قومية الأتراك في جاهليتهم قبل دخولهم الإسلام » ، ورفع شعار الذئب الأغبر « وهو معبود الأتراك في جاهليتهم » كما نادى بضرورة « تتريك » الدولة ، أي : جعل المناصب فيها وقفًا على الأتراك وحدهم ، ومعنى ذلك ـ كما حدث بالفعل ـ أن يحس « العرب » أنهم مظلومون في ظل الحكم التركي ، وأنهم مهضومو الحقوق ، عندئذٍ تلقفتهم الصليبية ـ حليفة اليهود في الحرب ضد الإسلام ـ فأرسلت إليهم « لورنس »[1] ليؤجج فيهم روح « القومية العربية » ضد دولة الخلافة .

وببساطة تم الأمر ، في غفلة من « المسلمين »[2] !

ولقد جد الخصوم في نشر تلك القومية العنصرية وإلباسها ثوب الجاهلية العربية ؛ لعلمهم علم اليقين بمدى خطورتها على الإسلام وأهله ، كما جاء

---

(١) ويقال : لورنس العرب ، وهو « توماس إدوارد لرونس » : مغامر من رجالات الاستخبارات البريطانية ، اقترن اسمه بأحداث من تاريخ العرب الحديث ، ولد في تريمادوك من قرى وايلز في انكلترا ، وتخرج بجامعة أكسفورد ، وترك الخدمة الغسكرية سنة (١٩٣٥) ، وبعد أيام كان يقود دراجته النارية وسقط في خندق ، فمات بعد ستة أيام ، ودفن في مقبرة « موريتون » على أميال من مسكنه ، أشهر آثاره « أعمدة الحكمة السبعة » ، « الثورة العربية » ، راجع الأعلام للزركلي (٥/ ٢٤٧) .

(٢) مذاهب فكرية معاصرة ، محمد قطب ، (ص٥٨١) ، القومية في ميزان الإسلام ، عبد الله ناصح علوان (ص٦ــ ١٢) ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط الأولى (١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م) .

ذلك بوضوح في تقرير القس زويمر سنة ١٩٢٧ : « إن هدم الإسلام في نفوس المسلمين له أهمية كبرى في شيء واحد هو مثول الفكر الغربي كصديق دولي ، وإن أول ما يجب عمله للقضاء على الإسلام هو إيجاد القوميات »[١] .

ولقد ثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن انطلاقة هذه الدعوة المشؤومة في أواخر عمر الخلافة العثمانية ؛ كان على « يد نصارى الشام ، حتى ليعترف أحدهم وهو الدكتور فيليب حِتّي[٢] فيقول : « كان من نتيجة الاحتكاك بين العقلية السورية والنتاج الفكري الغربي أن تولدت مبادئ القومية العربية الشاملة ، واستمدت وحيها بالأكثر من النظريات السياسية الأمريكية ، والتي استمدت إلهامها من مبادئ الثورة الفرنسية .

ولقد كان ظهور مبادئ القومية العربية في العقد السابع من القرن الفائت على يد رجال الفكر السوريين ، وغالبهم من اللبنانيين المسيحيين الذين تثقفوا في المدارس الأمريكية في بلادهم »[٣] .

« ذلك هو تاريخ القومية العربية ، وتلك نشأتها ! لقد رجع بها الدكتور حِتّي إلى أصولها وجذورها ، فأوضح بما لا يدع مجالًا للشك ـ وإن لم يرد هو ذلك يقينًا ـ أن القومية العربية هي البنت الشرعية « للغزو الفكري » الذي

---

(١) معالم التاريخ الإسلامي المعاصر ، أنور الجندي ، (ص١٥١) .

(٢) لبناني مسيحي تأمرك ، كان أستاذًا بقسم الدراسات الشرقية بجامعة برنستون بأمريكا ثم رئيسًا لهذا القسم ، من ألد أعداء الإسلام ، ويتظاهر بالدفاع عن القضايا العربية في أمريكا ، وهو مستشار غير رسمي لوزارة الخارجية الأمريكية في شؤون الشرق الأوسط ، يحاول دائمًا أن ينتقص من دور الإسلام في بناء الثقافة الإنسانية ، ويكره أن ينسب للمسلمين أي فضل ، الاستشراق والمستشرقون ، د/ مصطفى السباعي (ص٣٣، ٣٤) .

(٣) الشعوبية الجديدة ، (ص٣٧) ، نقلًا عن : العرب تاريخ موجز ، فيليب حتى (ص٢٥٦) .

استهدف زحزحة العقيدة والنظام من حياة الناس وعقولهم في ذات الوقت الذي وجدت فيه بعثات التبشير ـ وهي أسلوب مباشر من أساليب الغزو الفكري ـ لتهيئ للشعارات القومية والعنصرية الظروف المناسبة ؛ كي تأخذ طريقها بين المسلمين »[1] .

ويضيف حِتِّي قائلًا : « ... ومما لا ريب فيه أن القومية إنما هي بضاعة غربية استوردها العالم ، بما فيه الشرق العربي ، من أوربا »[2] .

الفرعونية

وأما الفرعونية : فهي مثل سابقتها دعوة غربية ، يقف وراءها خصوم الإسلام ، فهم إنما أرادوا أن يخطوا خطوات أعمق في سبيل توهين عرى العقيدة ، وحل رباطها ، وتفريق المسلمين أكثر وأكثر ، فعمدوا إلى تفتيت القومية الواحدة إلى عناصر متعددة ، حتى تصير في النهاية غريبة متنافرة ، فجدوا واجتهدوا في إحياء النزعات الإقليمية ، والبحث عن آثار الحضارات القديمة في كل قطر والتنقيب عنها ، ثم العمل على ربط الناس بها ، وأخذهم بالاهتمام بها وتقديسها ، حتى يصبح كل قطر مشغولًا بأسلافه ، ويزهو بمفاخرهم ، متمسكًا بالانتساب إليهم .

ولقد نشط الغربيون في هذا الأمر أيما نشاط ، في العصر الحديث ، خاصة منذ توافدوا على بلاد المسلمين ، في إطار الاستعمار الحديث .

يقول الدكتور محمد محمد حسين ـ رحمه الله : « وأعانت الدول المحتلة ـ كل

---

(١) السابق (ص٣٧، ٣٨) .

(٢) السابق (ص٣٩) ، نقلًا عن العرب ، فيليب حتى (ص٢٥٧) .

في منطقة نفوذه ـ على تدعيم قداسة هذه الأوطان الجديدة [١] ، في نفوس الناس بأسلوب علمي منظم ، وذلك بمساعدتها على إحياء التاريخ القديم لكل قطر من هذه الأقطار ، ونشط الحفر للبحث عن آثار الحضارات القديمة السابقة على الإسلام في كل من العراق وسوريا ولبنان ، وفلسطين وشرق الأردن ومصر ، لتوهين عرى الجامعة العربية [٢] ولتشتيت القلوب التي ألف بينها الإسلام وجمعها على لغة واحدة ، فاستيقظت العصبيات الجاهلية ، وراح كل بلد يفاخر البلاد الأخرى بمجده العريق ، وشغلت الصحف بالكلام عن الكشوف الأثرية الجديدة ، وما تدل عليه من حضارات البابليين والآشوريين والكلدانيين والحيثيين والفينيقيين والفراعنة ، وكانت أصابع الغربيين واضحة في هذه الجهود ، فقد عاش المسلمون دهورًا وهم غافلون عن هذه الآثار القديمة لا يعيرونها التفاتًا ، ولا يتحدثون عنها حين يتحدثون إلا كما يتحدثون عن قوم غرباء من الكفرة أو العتاة ، لا يثير الحديث عنهم شيئًا من الحماس أو

---

(١) يقصد بالأوطان الجديدة ما تمخضت عنه مخططات الأعداء المستعمرين ، خاصة إنجلترا وفرنسا ، من إقامة خطوط وهمية ، أو ما يسمى بالحدود بين الأقطار الإسلامية ، وجعل دولة الخلافة دويلات وأوطانًا جديدة ، في معاهداتهم السرية ، خاصة تلك التي كانت على يد سيكس الإنجليزي وبيكو الفرنسي في المعاهدة السرية التي اتفقا فيها على اقتسام الغنائم بين دولتيهما في أوائل الحرب ، والتي عرفت فيما بعد باسميهما « اتفاقية سيكس بيكو » .

(٢) يقصد الجامعة العربية من وجهة نظر الداعين إليها بالمفهوم الإسلامي ، ويتصورونها تصورًا إسلاميًا يقوم على الدين الإسلامي واللغة العربية ، ويعمل على نقل الخلافة الإسلامية للعرب ، خاصة بعد أن خيب « الكماليون » آمال العالم الإسلامي بإلغائهم الخلافة وإعلان تركيا دولة علمانية عام (١٩٢٤) ، بخلاف فريق آخر من دعاة العصبية ؛ إذ إن تصورهم للفكرة العربية قائم على التعصب للجنس ، ويستبعدون عنصر الدين برمته خاصة الإسلام .

الزهو في نفوسهم ، ظل المسلمون على هذه الحال ، حتى بدأ الغربيون بالكشف عن كنوزها ، ولفت أنظارهم إليها منذ اتجهت مطامعهم إلى بلادهم »[(١)] .

« وللأوربيين في ذلك أسلوب خبيث ماكر ، فهم يبدؤون التنقيب ببعوث من علماء الآثار الغربيين ، حتى إذا حققوا ما يهدفون إليه من اهتمام كل بلد من هذه البلاد بتراثه القديم ، وتحمسه له ، وغيرته عليه ، ورأوا أن هذه الغيرة تدفعه إلى منافسة الأجانب في هذا الميدان الذي يعتبر نفسه أولى به وأحق ، بوصفه وارث هذه الحضارة ، عند ذلك يتخلون عن مهمتهم ويتركونها في رعايته ، مطمئنين إلى أنه سيوالي السير في الخطوط التي رسموها له »[(٢)] .

ولقد صرح الغربيون بحرصهم على بعث تلك الحضارات السابقة على الإسلام ، وأبانوا عما يمكن أن ينتج عن هذا العمل ، وما إليه يهدفون :

« يقول أحد المستشرقين الصرحاء في كتاب (الشرق الأدنى : مجتمعه وثقافته) :

إننا في كل بلد إسلامي دخلناه نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام ، ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد المسلم إلى عقائد ما قبل الإسلام ، ولكن يكفينا تذبذب ولائه بين الإسلام وبين تلك الحضارات »[(٣)] .

وإلى مثل هذا أشار « جب » وزملاؤه ، فقال :

« وقد كان من أهم مظاهر فرنجة [أي : تغريب] العالم الإسلامي تنمية

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (٢/ ١٣٧ــ ١٣٨) ، واقعنا المعاصر ، محمد قطب ، (ص٢٠٢) .

(٢) الاتجاهات الوطنية (٢/ ١٣٨) .

(٣) واقعنا المعاصر (ص٢٠٢) نقلًا عن مرجع أجنبي .

الاهتمام ببعث الحضارات القديمة ، التي ازدهرت في البلاد المختلفة التي يشغلها المسلمون الآن ، فمثل هذا الاهتمام موجود في تركيا وفي مصر وفي أندونيسيا وفي العراق وفي فارس ، وقد تكون أهميته محصورة الآن في تقوية شعور العداء لأوربا ، ولكن من الممكن أن يلعب في المستقبل دورًا مهمًّا في تقوية الوطنية الشعوبية وتدعيم مقوماتها »[١] .

وإننا نلاحظ من آن لآخر عطف الغربيين ـ حكومات أو أفرادًا ـ على المشاريع التي تقوم بها الحكومات في العالم الإسلامي للبحث والتنقيب ونحو هذا من الأعمال التي تسهم في بعث تلك الحضارات الوثنية من رقادها ، في الوقت الذي لا نرى فيه تعاطفًا من أحد مع مشاريع لإيواء المشردين ، أو إطعام المحرومين ، أو مشاريع الصناعات الثقيلة أو الخفيفة فيما عدا بعض المساعدات النادرة التي تقدم باليمين وتؤخذ بالشمال أو العكس .

« ومما لا تخفى دلالته في هذا الصدد أن الثريّ الأمريكيّ اليهودي الأصل روكفلر[٢] « ابن روكفلر الكبير » صاحب الملايين ، قد أعلن سنة (١٩٢٦)

---

(١) الاتجاهات الوطنية (٢/ ١٤١) ، نقلًا عن كتاب إلى أين يتجه الإسلام ، للمستشرق الإنجليزي « جب » ، وآخرين (ص٣٤٢) .

(٢) من المعروف أن نلسون روكفلر المعاصر يهودي يتستر تحت النصرانية ، فهو عضو مؤسس في اللجنة « القومية المسيحية » التي وحدت صفوف الذين اعتنقوا المسيحية ، والتي تساهم بالنصيب الأكبر في جمع النفقات التي تساعد اليهود على الهجرة من أوربا إلى فلسطين ، وجد هذه الأسرة الأول هو جوهان روكفلر اليهودي الألماني الذي نزح إلى أمريكا في أوائل القرن الثامن عشر ، وقد أنفق ابنه جون روكفلر ملايين الدولارات في تأسيس الجمعيات والمنظمات اليهودية المختلفة في أمريكا ، وكان من المتعصبين لإحياء الإمبراطورية اليهودية ، حصوننا مهددة من داخلها ، د/ محمد محمد حسين (ص٣٨) ، هامش نقلًا عن « أمريكا مستعمرة صهيونية ص١١، ١٢» .

عن تبرعه بعشرة ملايين [دولار] أمريكي « وهو ما يعادل مليونين من الجنيهات وقتذاك » ؛ لإنشاء متحف للآثار الفرعونية في مصر ، يلحق به معهد لتخريج المتخصصين في هذا الفن ، واشترط لمنح هذه الهبة أن يوضع المتحف والمعهد تحت إشراف لجنة مكونة من ثمانية أعضاء ليس فيها إلا عضوان مصريان فقط ، على أن تظل هذه اللجنة هي المسؤولة عن إدارة المتحف والمعهد لمدة ثلاث وثلاثين سنة ، وقد استرد الثري الصهيوني هبته وقتذاك بعد أن أرسل مندوبًا يمثله من علماء الآثار الأمريكيين المعروفين ـ وهو الأستاذ « برستد » ـ ومعه أحد محاميه ـ وذلك لرفض الحكومة ـ شرط إشراف الأجانب الفني على المعهد ، وقد كان واضحًا من تحديد صاحب الملايين مدة الإشراف لثلاث وثلاثين سنة أنه يهدف إلى خلق جيل من المتعصبين للفرعونية ثقافيًّا وسياسيًّا .

ومصلحة الصهيونية في ذلك ظاهرة ؛ لأنها إذا نجحت في سلخ الدول العربية من عروبتها فقد سلختها من إسلامها ، وإذا انسلخت هذه الدول من إسلامها ومن عروبتها أمن اليهود كل معارضة لاستقرارهم في فلسطين ، وعاشوا مع جيرانهم في هدوء يمكن لهم من الإعداد لوثبة جديدة يأكلون فيها جيرانهم النائمين ؛ لأن معارضة الدول العربية لمطامع اليهود في فلسطين إنما تستند إلى الإسلام والعروبة ، فإذا انسلخ المصريون مثلًا من الإسلام والعروبة ولبسوا ثوب الفرعونية مات الحافز الذي يدفعهم إلى مجاهدة اليهود ومعارضة دولتهم في فلسطين ؛ إذ يصبح اليهود والعرب لديهم عند ذلك سواء »[1] .

---

(١) الاتجاهات الوطنية (٢/ ١٣٩، ١٤٠) .

موقف الشرع من هذه الدعوات وأمثالها :

إن الدعوة إلى القوميات وإحياء النزعات العنصرية القديمة على النحو السابق تتنافى مع مبادئ الإسلام ، لما يلي [1] :

أولا : لكونها فكرة مستوردة وافدة لا تمت إلى العقيدة الإسلامية بصلة أو سبب :

والإسلام لا يسمح للمسلم بحال أن يستقي عقيدته من غير عقيدة الإسلام ، أو أن يستمد منهاج حياته من غير منهاج القرآن ، ولأن في ذلك زعزعة لعقيدته ، وتمييعًا لشخصيته ، وقتلًا لذاتيته .

ثانيا : لكونها من العصبية ودعوى الجاهلية :

والإسلام يعتبر كل دعوة إلى رابطة الجنس أو النسب أو العشيرة أو المصاهرة أو الوطنية أو المصالح المشتركة ، دعوة جاهلية عمياء ، لقوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤] .

ففي قوله تعالى : ﴿إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ إشارة إلى رابطة الجنس والنسب .

وفي قوله : ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ إشارة إلى رابطة المصالح الاقتصادية .

وفي قوله : ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ إشارة إلى رابطة الأرض والوطنية .

---

(١) القومية في ميزان الإسلام ، عبد الله ناصح علوان (ص٥٠ ـ ٧٢) بتلخيص .

وفي قوله : ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ لفتة صريحة إلى رابطة العقيدة الإسلامية .

وكأن القرآن الكريم يقول للمسلم : في حال الانسياق الأعمى وراء رابطة من روابط الجنس أو النسب أو المصاهرة أو القومية أو المصالح المشتركة أو الأرض أو الوطنية .

وفي حال اعتبار هذه الروابط أو واحدة منها فوق رابطة الإسلام ، في حال هذا الانسياق والاعتبار يخرج المسلم ـ لا شك ـ من الإسلام ، ويتخبط في دياجير الزيغ والضلال ، فليتربص حتى يأتي الله بعذابه ، والله لا يهدي القوم الفاسقين .

والنبي ﷺ وصم الأوس والخزرج بالجاهلية ، لما تعصبوا لأقوامهم ، وتنادوا إلى السلاح ، وقال : « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ، بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به ، وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر ، وألف بينكم ؛ ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض ؟ »[١] .

والرسول عليه الصلاة والسلام اعتبر كل دعوة إلى عصبية الجنس عودة إلى الجاهلية الأولى .

قال عليه الصلاة والسلام : « من خرج من الطاعة وفارق الجماعة ، فمات مات ميتة جاهلية ، ومن قاتل تحت راية يغضب لعصبة ، أو يدعو إلى عصبة ، أو ينصر عصبة ، فقتل فقتلة جاهلية ، ومن خرج على أمتي يضرب برها

(١) سبق إيراد القصة التي ورد فيها هذا الحديث وما نزل بشأنها من آيات .

وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها ، و يفي لذي عهد عهده فليس مني ولست منه » (١) .

ثالثا : لكونها جاحدة أخوة الإسلام :

والإسلام يعتبر رابطة الأخوة الإسلامية فوق رابطة الدم وآصرة العشيرة ، لقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات:١٠] ، وقال عليه الصلاة والسلام : « **المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى هاهنا** ويشير إلى صدره ثلاث مرات **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه** » (٢) .

ولقد تبرأ القرآن من أبي لهب العربي عم النبي ﷺ لكونه اتبع سبيل الضلال ، على حين يعتبر الرسول ﷺ سلمان الفارسي ﷺ من أهل البيت لكونه اتبع الحق

---

(١) رواه مسلم في ك الإمارة ، ب وجوب ملازمة جماعة المسلمين ، مسلم بشرح النووي (١٢/ ٢٣٨، ٢٣٩) ، رقم (١٨٤٨) ، والنسائي في ك تحريم الدم ، ب التغليظ فيمن قاتل تحت راية عمية ٧ / ١٢٣، وابن ماجه ك الفتن ، ب العصبية ٢ / ١٣٠٢ رقم ٣٩٤٨ ، وقوله : « عمِّية » هي بضم العين وكسرها لغتان مشهورتان والميم مكسورة مشددة والياء مشددة أيضًا ، قالوا : هي الأمر الأعمى لا يستبين وجهه ، كذا قاله أحمد بن حنبل والجمهور ، وقال إسحاق بن راهويه: هذا كتقاتل القوم للعصبية ، مسلم بشرح النووي ١٢/ ٢٣٨، والمعنى: أنه قاتل تحت راية اجتمع أهلها على أمر مجهول لا يعرف أنه حق أو باطل يدعون إليه ويقاتلون من أجله من غير بصيرة ولا حجة عليه .

(٢) رواه مسلم ، ك البر ، ب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ، شرح النووي ١٦ / ١٢٠، ١٢١ رقم ٢٥٦٤، والبخاري ، باب لا يظلم المسلمُ المسلمَ ٣ / ٩٨ ، وأبو داود ك الأدب ، ب في الغيبة ٤/ ٢٧٠ رقم ٤٨٨٢ ، والترمذي ، ك الحدود ، ب ما جاء في الستر على المسلم ٤ / ٣٤ ، ٣٥، رقم ١٤٢٦، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب ، ورواه أيضًا في ك البر ، ب في شفقة المسلم على المسلم ٥/ ٣٢٥ رقم ١٩٢٧، وأحمد في الفتح الرباني ، ك الكبائر ١٩ / ٢٤٦، وروى صدره ابن ماجه في ك التجارات ، ب من باع عيبًا فليبينه ٢ / ٧٥٥ رقم ٢٢٤٦ .

والنور المبين .

رابعا : لكونها جاحدة حاكمية الإسلام :

والقوميون ينادون صراحة بالعلمانية ، ومعناها فصل الدين عن الدولة وإبعاد الشريعة الإسلامية عن واقع الحياة ، وأين لهم الاحتكام إلى الإسلام وهم يعتبرون كل دعوة لا تلتقي مع فكرة القومية هي دعوة رجعية أو استعمارية دعاتها مأجورون للأجنبي ولو كانت دعوة ربانية خالصة لله رب العالمين ؟

خامسا : لكونها جاحدة حضارة الإسلام :

والإسلام يعتبر كل مسلم قدم للحضارة يدًا سواء أكان عربيًا أم عجميًا ، أبيض أم أسود ، مساهمًا في بناء الحضارة الإسلامية حيثما وجد ، وأينما كان ، لكونه ينتمي إلى هذا الإسلام العظيم .

أما دعاة القومية العربية فإنهم يحصرون الحضارة الإسلامية في العرب ، وحينما يتحدثون عن الحضارة التي شادها الأسلاف المؤمنون في بلاد العرب يزورون التاريخ بقولهم : إن أبناء العرب هم الذين خلقوا الحضارة وأوجدوها في عالم الواقع ودنيا الناس .

ما هذا التزوير ؟ وما هذا التحريف ؟ هل المفاخر والمآثر مقصورة على العرب وحدهم دون غيرهم من الأجناس والألوان والشعوب ؟

ثم إن هذه الدعوات تقوم على موالاة أعداء الله ، ولو على حساب المسلمين الذي لا ينتمون إلى هذه القومية أو تلك العنصرية ، وفي هذا مخالفة صريحة لأحكام الإسلام ونصوص القرآن .

يقول تعالى : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المائدة:٥٥] ، ويقول سبحانه :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٤٤] ، والنصوص في هذا المعنى كثيرة وصريحة . اهـ .

إن الذين يدعون بمثل هذه الدعوات لهم عند الله عذاب أليم ، ينبئ عنه رسول الله ﷺ في قوله : « **ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثا جهنم** »[١] ، فقال رجل : يا رسول الله ، وإن صام وصلى ؟ قال : « **وإن صلى وصام ، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله** »[٢] .

موقف العقل منها :

ثم إن العقل والواقع يحكمان بفساد هذه الدعوات القومية والإقليمية الضيقة :

« فالرابطة القومية فاسدة عقلًا لهذه الأسباب :

أولًا : رابطة عقلية ، وليس للإنسان خيار في قبولها أو رفضها ، بل هي مفروضة عليه فرضًا ، حيث إن الإنسان لم يختر لنفسه نسبه أو جنسه أو شعبه ، ولذلك فهي لا تصلح لتوحيد بني البشر المختلفي الأجناس والأوطان والألوان للسير بالجنس البشري في طريق الرقي ، فهي بذلك لا تعتبر رابطة إنسانية .

---

(١) جثا جهنم : يقال : بالحاء المهملة من حثا : إذا غرف وضم ، ويقال : بالجيم من جثا : جمع جثوة وهي الجماعة المحكوم عليها بالنار ، السنن للترمذي ٥ / ١٤٩. هامش (شرح المحقق) .

(٢) جزء من حديث طويل رواه الترمذي في السنن ، كتاب الأمثال ، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدق ، من حديث الحارث الأشعري ٥ / ١٤٨، ١٤٩ رقم ٢٨٦٣، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب .

ثانيًا : رابطة مؤقتة تظهر عند الاعتداء على القوم والوطن ، أما في حالة الاستقرار والطمأنينة فتختفي لانشغال أهلها بالنزاع والخصومة فيما بينهم كما هو مشاهد ، ولذلك فهي عرضة باستمرار للتغيير والتبديل ولا تصلح لربط البشر ؛ لأن الرابطة الصحيحة ينبغي أن تكون دائمية لا تنفصم عراها ، سواء في حال الاضطراب أو الاستقرار .

ثالثًا : رابطة تؤدي إلى التطاحن بين الجماعات البشرية بهدف سيادة جنس على آخر أو جماعة على أخرى بغير سبب ، وبغير أن توجد إمكانية لتوحيد تلك الأجناس أو الجماعات باعتناقها عقيدة واحدة ، وانضوائها تحت لواء واحد كما يحصل في الروابط العقلية التي يعتنقها الإنسان باختياره .

رابعًا : رابطة لا تحمل أنظمة للحياة منبثقة عنها ، ولذلك يحصل التطاحن بين أتباعها عند معالجة مشاكل الحياة ، فلا يعرفون نظامًا يجتمعون عليه في الحكم أو الاقتصاد أو الاجتماع أو غير ذلك ، فأنظمة كالثوب المرقع بالألوان المختلفة ، ويصبح الناس تحت دعاة القومية ، كحيوانات المعامل تجري عليهم التجارب المختلفة في كل يوم ، والمتأمل لحال بلاد المسلمين منذ أن تولى قيادتهم هؤلاء يجد هذا واضحًا ، حيث يجد أنظمة مهلهلة متنافرة ، فهذا قومي اشتراكي ، وهذا رأسمالي وذاك علماني ، مع أنهم جميعًا يدعون إلى القومية كرابطة فيما بينهم »[1] .

وإذا ما جئنا إلى الواقع فماذا نرى ؟

« لقد ابتلى العالم العربي بدعوة القومية العربية ، كبديل للوحدة الإسلامية ،

---

(١) القومية في الميزان (ص٦، ٧) ، من منشورات مجلة التحرير ، نيويورك ، مذاهب فكرية معاصرة (ص٥٦١، ٥٦٢) .

فهل توحد العالم العربي ؟ على العكس ازداد تفككًا وتدهورًا ، ألم يمزق اليمن إلى شمال وجنوب ؟ ألم يقاتل الرفاق في اليمن الجنوبية ، ألم يقاتل المصري أخاه اليمني ؟ ألم يسعَ " قرنق "[١] السوداني إلى تمزيق السودان ؟ ألم يتقاتل الأردني مع الفلسطيني ؟ ألم يتطاحن الماروني والكتائبي والدرزي والنصيري والفلسطيني وجميعهم يزعم أنه ينتسب إلى العروبة ؟

ماذا جنت أمتنا من وراء دعوى القومية العربية ؟

ألم تُنفِّر منا أصحابَ القومياتِ الأخرى، كالأكراد والبربر وكلهم مسلمون ؟ ألم يغتصب اليهود فلسطين ، وفُتِحت أمامهم كثير من الحدود العربية في ظل شعار القومية العربية ؟

ولا يعني ذلك أننا ندعو إلى مقت العرب ، حاشا لله ، فالعرب هم مادة الإسلام ، والقرآن عربي ، وخاتم الأنبياء من خيار العرب »[٢] .

والواقع أن كل الأمم تسعى للتكتل والتجمع والتوحد ، ونبذ العنصريات والقوميات ، وهؤلاء يريدون أن يفرقوا الأمة شيعًا وأحزابًا ، مخالفين بذلك شرع الله ، وشاذين عن الصراط السوي الذي لا يشذ عنه إلا هالك .

وأقرب مثال اليوم هم اليهود الذين ينادون بالتجمع في فلسطين على أساس واحد فقط ، وعبر رابطة واحدة دون ما عداها ، وذلك الأساس وتلك الرابطة ، هي أنهم يهود ، أصحاب دين يهودي .

---

(١) صليبي حاقد على الإسلام والعروبة كان يقود التمرد في جنوب السودان ؛ لفصله عن الشمال وإقامة دولة نصرانية عليه . ولا يخفى أن الانفصال قد صار أمرا وقعا ، وأصبح الجنوب دولة مستقلة .

(٢) التاريخ بين الحقيقة والتضليل ، د/ جمال عبد الهادي وزميلاه ، ص ٢٣ .

ألسنا أولى منهم بنبذ تلك الدعاوى الجاهلية والتمسك بالإسلام ، وأن ندعو بدعوى الله الذي سمانا مسلمين .

ألا ليت أولئك النفر من بني قومنا يعودون إلى صوابهم ، ويثوبون إلى رشدهم ، ويدعون إلى تجمع الأمة الإسلامية قاطبة على الرابطة الإسلامية ، وأن يحذوا حذو أناس من أسلافهم كانوا ينفخون في أبواق هذه النعرات ، ثم لم يلبثوا أن هداهم الله إلى الحق ، وصاروا دعاة إلى جمع الأمة على الإسلام ، معترفين بخطأ ما كانوا يدعون إليه وخَطَلِه وخطورته ، كما كان من أمر الدكتور محمد حسين هيكل ، حيث كان في أول الأمر متعصبًا لمثل تلك الدعوات الجاهلية ، ثم عاد إلى الصواب وأعلن عن ذلك في مقدمة كتابه « في منزل الوحي » ، ولا بأس بأن أنقل طرفًا من كلامه في هذا الخصوص ، لعلَّ فيه تتميمًا للفائدة فيما يلي :

« ولقد طالما التمسنا في شرقنا الأدنى أسباب النهوض بعملنا ؛ لنقف إلى جانب الإنسانية المهذبة ، لا ينكس الخجل رؤوسنا ، ولا يحز في نفوسنا ذلك الشعور الممض ، بأنا دون الغرب مكانًا ، ولقد خيِّل إليَّ زمانًا كما لا يزال يخيل إلى أصحابي ، أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى هذا النهوض ، وما أزال أشارك أصحابي في أنَّا ما نزال في حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب الفعلية كل ما نستطيع نقله ، لكني أصبحت أخالفهم في الحياة الروحية ، وأرى أن ما في الغرب منها غير صالح لأن ننقله ، فتاريخنا الروحي غير تاريخ الغرب ، وثقافتنا الروحية غير ثقافته »[1] .

---

(١) في منزل الوحي ، د/ محمد حسين هيكل (ص٢٢) ، دار المعارف بمصر ، ط السابعة .

وبعد لمحة خاطفة في التاريخ وإشارة إلى ما بينهما من فروق وسمات ؛ قال :

« كيف نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق ، وبيننا وبين الغرب في التاريخ وفي الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم ! لا مفر إذًا من أن نلتمس في تاريخنا وفي ثقافتنا وفي أعماق قلوبنا وفي أطواء ماضينا هذه الحياة الروحية نحيي بها ما فتر من أذهاننا وخمد من قرائحنا وجمد من قلوبنا .

هذا كلام واضح بيِّن ، ومن عجب أن يخفى على أصحابي فلا يرونه ، وأن يكون خفاؤه سبب تثريبهم عليَّ ، ولكن لا عجب ، فقد خفي هذا الكلام عني سنوات كما لا يزال خفيًّا عن كثيرين منهم ، وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية ؛ لتتخذها جميعًا هدى ونبراسًا ، ولكنني أدركت بعد رأي أنني أضع البذر في غير منبته ، فإذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه ، وانقلبت ألتمس في تاريخنا البعيد في عهد الفراعين موئلًا لوحي هذا العصر ينشئ فيه نشأة جديدة ، فإذا الزمن وإذا الركود العقلي قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذرًا لنهضة جديدة ، ورؤأت فرأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر ، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو ، ولأبناء هذا الجيل في الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة ؛ لتؤتي ثمرها بعد حين .

والفكرة الإسلامية المبنية على التوحيد في الإيمان بالله تنزع في ظلال حرية الفكر إلى وحدة الإنسانية ، وحدة أساسها الإخاء والمحبة ، فالمؤمنون في مشارق الأرض ومغاربها إخوة يتحابون بنور الله بينهم ، وهم لذلك أمة واحدة تحيتها السلام وغايتها السلام ، وهذه الفكرة الإسلامية تخالف ما يدعو إليه عالمنا الحاضر من تقديس القوميات ، وتصوير الأمم وحدات متنافسة

بحكم السيف ، وتحكم أسباب الدمار بينها فيما تنافس عليه ، ولقد تأثرنا معشر أمم الشرق بهذه الفكرة القومية واندفعنا ننفخ فيها روح القوة نحسب أنا نستطيع أن نقف بها في وجه الغرب الذي طغى علينا وأذلنا ، وخيِّل إلينا في سذاجتنا أنَّا قادرون بها وحدها على أن نعيد مجد آبائنا وأن نسترد ما غصب الغرب من حريتنا وما أهدر بذلك من كرامتنا الإنسانية ، ولقد أنسانا بريق حضارة الغرب ما تنطوي هذه الفكرة القومية عليه من جراثيم فتاكة بالحضارة التي تقوم على أساسها وحدها ، وزادنا ما خيم علينا من سجف الجهل إمعانًا في هذا النسيان ، على أن التوحيد الذي أضاء بنوره أرواح آبائنا قد أورثنا من فضل الله سلامة في الفطرة ، هدتنا إلى تصور الخطر فيما يدعو الغرب إليه ، وإلى أن أمة لا يتصل حاضرها بماضيها خليقة أن تضل السبيل ، وإلى أن الأمة التي لا ماضي لها لا مستقبل لها »[١] .

*****

(١) السابق ، (ص٢٣، ٢٤) .

المبحث الثاني
حصر الدين في دائرة التعبد
دون امتداده إلى شؤون الحياة

ولقد جاء الدين الإسلامي ليأخذ بيد البشرية الحائرة إلى بر النجاة ، ويوصلهم إلى أسباب السعادة ومراقي الفلاح في الدنيا والآخرة ، فجاء بما ينظم معايش الناس ومعادهم ، وألزمهم بتطبيق مبادئه كافة ، من غير تفريق بين جانب وآخر ، وخص المنتسبين إليه بالأمر بتطبيق منهجه والتمسك بتعاليمه ، وإلا لحقهم إثم التقصير ، والعصيان لله ﷻ ، فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [1] [البقرة:٢٠٨] ، وقال سبحانه : ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [البقرة:٨٥] .

وغير خافٍ أن الإسلام ينقسم إلى عقيدة وشريعة فهو ليس دينًا روحيًّا محضًا لا علاقة له بحياة الأفراد وسائر نظمهم المعايشة ، بل يشمل أمور المعاش والمعاد .

---

(١) السلم هنا بمعنى الإسلام ، قاله مجاهد ، ورواه أبو مالك عن ابن عباس ، ومنه قول الشاعر الكندي :

دعوت عشيرتي للسلم لما   رأيتهم تولوا مدبرينا

أي : إلى الإسلام ، لما ارتدت كندة بعد وفاة النبي ﷺ مع الأشعث بن قيس الكندي ، الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٧) .

وقد لاحظت من استقرائي لوسائل الثقافة المنبثة في أكثر من قطر من الأقطار الإسلامية ، رواج فكرة غريبة علينا نحن المسلمين ، وهي بلا ريب من مظاهر الغزو الفكري المعادي الذي يهب علينا تارة من الشرق ، وتارة أخرى من الغرب ، كالريح السموم ، وهذه الفكرة ـ مع اختلاف أساليب عروضها ـ مفادها أن الدين إنما هو محصور في دائرة العلاقة بين الفرد وربه ، لا يتجاوز حدود التعبد ، والتقرب إلى الله في صورة طقوس وأشكال من العبادات والشعائر ، يقوم الأفراد بها في دور العبادة ، وتنحصر في خاصة أنفسهم بينهم وبين ربهم ، وأما جوانب الحياة الأخرى فيجب ألَّا يكون للدين بها دخل ، وأن يدع الناس وشأنهم في هذا الصدد ، يشرعون لأنفسهم ما يتلاءم معهم ، ويوافق ظروفهم ، يخترعون ما يشاؤون ، ويستوردون عن غيرهم ما يشاؤون ، يحسنون ما يشاؤون ، ويقبحون ما يشاؤون ، ويمحون ما يشاؤون ، ويثبتون ما يشاؤون ، كل هذا وأمثاله ، من حقهم وحدهم ولا دخل لدين فيه !

وهذه الدعوة كما هو واضح تستهدف إقصاء الشريعة الإسلامية ، عن التطبيق في مجتمعات المسلمين ، وهو ما اصطلح على تسميته في وقتنا هذا «بالعلمانية» .

ولقد ظل المسلمون أكثر من اثنتي عشر قرنًا من الزمان لا يعرفون هذا الفكر ، ولم يكن له وجود في حياتهم ، لا نظريًّا ولا تطبيقيًّا .

وهذه الدعوة التي يراد منها إقصاء الشريعة الإسلامية عن التطبيق في البلاد الإسلامية ، ولا سيما الناطقة بالعربية ، وجدتها مبثوثة في كثير من وسائل الثقافة ، كما أشرت ، وأحيانًا يكون نشرها وعرضها على المسلم واضحًا صريحًا مثل الترويج لشعار « الدين لله والوطن للجميع » وتزيينه في عقله ، كتقديمه له

على أنه الطريق الوحيد لسعادة الشعوب العربية ، وصمام الأمان لها من التفرق والتمزق ـ زعموا ـ ومن هذا القبيل شعار : « لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين » الذي جاهر به فترة من الزمن أحد الحكام ، وكانت تتناقله وسائل الثقافة دائمًا ، على اختلافها ، وتابعه في هذا كثيرون من أضرابه .

وفي أحيان أخرى لا يُعمد إلى الحديث في هذه الدعوة مباشرة ، وإنما بطرق أخرى ، مثل عرض مشكلات معاصرة للمجتمعات الإسلامية بشكل خاص ، وتقديم الحلول المقترحة لها ، مزينة متكاملة ، ولا يُذكر أن للشريعة الإسلامية رأيًا ، أو أن عندها حلًّا للمشكلة المعروضة ، ومع تكرار هذه الطريقة يترسخ في ذهن المسلم مبدأ أن الإسلام هو دين روحي فقط ، ولا علاقة له بشؤون الحياة ، اجتماعية كانت أم اقتصادية ، أم سياسية ، أم غيرها .

ويتصل بهذا أيضًا تبني مبادئ أو مذاهب غير إسلامية ، والدعوة إليها وتقديمها على أنها هي الحل لهذه المشكلة أو تلك ، مع تجاهل النظم الإسلامية ، مثل الدعوة إلى الأخذ بالاشتراكية في المجال الاقتصادي في كثير من مناهج التعليم المختلفة ، في غير ما بلد من البلاد الإسلامية ، مع الزعم بأن في الأخذ بها خروجًا من الأزمات الاقتصادية ، ووصولًا إلى الاقتصاد المثالي ، فيتولد من خلال هذا عند الفرد أن ليس للشريعة الإسلامية ما تدلي به في هذا المجال الاقتصادي « مثلًا » ، وإلا ، لو كان لديها نظام أمثل لما عُدل عنه ، فهي إذن لا علاقة لها بهذه المجالات المعاشية وأمثالها .

ومن مظاهر تبني العلمانية كذلك ـ خاصة في مناهج التعليم ـ في كثير من الأقطار ، حصر مادة « الدين » في كتاب معين ، لا تتعدى مباحثه الجوانب التعبدية ، بشكل عام ، وبقية المواد منفصلة تمامًا ، وعارية عما يربطها بالإسلام ،

خاصة المواد العلمية « المعملية » ، والمواد المتعلقة بالاجتماع والاقتصاد والسياسة ونحوها ، في حين لا يخلو الأمر من آن لآخر ، من ربط هذه المواد ومبادئها ونظرياتها بآراء الغربيين ، ونظريات غير المسلمين .

والإسلام أعم وأكبر من أن يحصر في زاوية ضيقة ، كما يدرس بهذه الطريقة ، وقد كان الأولى أن يعرض بشموله ، وكافة نظمه ، ومبادئه المختلفة .

هذا ، ولأصحاب هذه الفكرة « العلمانية » شبهات يتعلقون لها ، ويملؤون بها الدنيا صياحًا وضجيجًا ، يحسبونها حججًا ، وما هي كذلك ، ولا تقوى على الثبات أمام الحقائق والأدلة الدامغة ـ بفضل الله ـ وما صخبهم وطنينهم في كل واد وناد ؛ إلا من قبيل الزبد الذي لا يلبث أن يتلاشى تاركًا المجال لما ينفع الناس ويمكث في الأرض .

حكم هذه الدعوة في ميزان الشرع :

ولست هنا في معرض تناول هذه الشبهات وتفنيدها ـ وإن ورد في كلامي عرض شيء من هذا ؛ إذ إن لهذا مقامًا آخر ، ولكن الذي يعنيني هنا ، أن أبين تعارض هذه الدعوة مع الإسلام ، وإنها مرفوضة شرعًا ، وهذا كائن من وجوه على النحو التالي :

الوجه الأول : إنها دعوة وافدة ، ومن نتاج غير المسلمين ، نبتت في بيئة غير إسلامية ، بسبب ظروف ومبررات ، ليس عندنا ما يشبهها ، أو يدعو إليها ، فقد « نشأت هذه الدعوة في أوروبا ، وعمت أقطار العالم بتأثير الاستعمار والتبشير والشيوعية »[١] .

وقد مر بنا موقف الإسلام من الأفكار غير الإسلامية بشيء من التفصيل .

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، (ص٣٦٧) .

وقد كان أهم الأسباب والظروف التي أحدثت هذه الدعوة وأفرزتها في أوروبا ، تسلط رجال الدين ، والكنيسة في القرون الوسطى ، ومواقفهم المعادية من العلم والعلماء ، الذين يخرجون على مقرراتهم ، وآرائهم المتعلقة بالنظريات العلمية ، التي أودعوها في كتبهم ، وجعلوها من الثوابت الدينية التي يجب ألَّا تمس ، أو تخالف ، والويل والثبور لمن خرج عليها ، أو جهر بمخالفتها .

وأدع المجال لراصد خبير ؛ ليصور لنا تلك الظروف المأساوية ، فيقول : ولكن من أعظم أخطاء رجال الدين في أوروبا ، ومن أكبر جناياتهم على أنفسهم وعلى الدين الذي كانوا يمثلونه ؛ أنهم دسوا في كتبهم المقدسة معلومات بشرية ومسلمات عصرية عن التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية ، ربما كانت أقصى ما وصل إليه العلم في ذلك العصر ، وكانت حقائق راهنة لا يشك فيها رجال ذلك العصر ، ولكنها ليست أقصى ما وصل إليه العلم الإنساني ، وإذا كان ذلك في عصر من العصور أقصى ما وصل إليه علم البشر فإنه لا يؤمن عليه بالتحول والتعارض ؛ فإن العلم الإنساني متدرج مترق ، فمن بنى عليه دينه ، فقد بنى قصرًا على كثيب مهيل من الرمل ، ولعلهم فعلوا ذلك بنية حسنة ، ولكن كان أكبر جناية على أنفسهم وعلى الدين ، فإن ذلك ، كان سببًا للكفاح المشؤوم بين الدين والعقل والعلم الذي انهزم فيه الدين ، المختلط بعلم البشر الذي فيه الحق والباطل والخالص والزائف هزيمة منكرة ، وسقط رجال الدين سقوطًا لم ينهضوا بعده ، وشر من ذلك كله وأشأم أن أوروبا أصبحت لا دينية .

ولم يكتف رجال الدين بما أدخلوه في كتبهم المقدسة ، بل قدسوا كل ما تناقله الألسن واشتهر بين الناس ، وذكره بعض شراح التوراة والإنجيل

ومفسريها من معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية ، وصبغوها صبغة دينية وعدوها من تعاليم الدين وأصوله التي يجب الاعتقاد بها ونبذ كل ما يعارضها ، وألفوا في ذلك كتبًا وتآليف ، وسموا هذه الجغرافية التي ما أنزل الله بها من سلطان الجغرافية المسيحية ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وكفروا كل من لم يدن بها .

وكان ذلك في عصر انفجر فيه بركان العقلية في أوروبا وحطم علماء الطبيعة والعلوم سلاسل التقليد الديني ، فزيفوا هذه النظريات الجغرافية التي اشتملت عليها هذه الكتب وانتقدوها في صراحة وصرامة ، واعتذروا عن عدم اعتقادها والإيمان بها بالغيب ، وأعلنوا اكتشافاتهم العلمية واختباراتهم ، فقامت قيامة الكنيسة ، وقام رجالها المتصرفون بزمام الأمور في أوروبا وكفروهم واستحلوا دماءهم وأموالهم في سبيل الدين المسيحي ، وأنشؤوا محاكم التفتيش التي تعاقب ـ كما يقول البابا ـ أولئك الملحدين والزنادقة الذين هم منتشرون في المدن والبيوت والأسراب والغابات والمغارات والحقول والزنادقة الذين هم منتشرون في المدن والبيوت والأسراب والغابات والمغارات والحقول واجتهدت وسهرت على عملها ، واجتهدت ألا تدع في العالم النصراني عرقًا نابضًا ضد الكنيسة ، انبثت عيونها في طول البلاد وعرضها ، وأحصت على الناس الأنفاس ، وناقشت عليهم الخواطر حتى يقول عالم نصراني : « لا يمكن لرجل أن يكون مسيحيًا ويموت حتف أنفه » ، ويقدر أن من عاقبت هذه المحاكم يبلغ عددهم ثلثمائة ألف ، أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفًا أحياء ، كان منهم العالم الطبيعي المعروف برنو [1] ، نقمت منه

(١) هو جيور دانوبرنو (١٥٤٨ ــ ١٦٠٠) : فيلسوف وعالم رياضيات وفلك إيطالي ، بدأ حياته راهبًا دومينيكانيا في نابولي ، ثم درس في باريس واكسفورد ، تبنى نظرية كوبرنيكوس الجديدة في الفلك ، وضع كتبًا في السحر وفي التكوين الذري للمادة ، اتهم بالزندقة ، وأعدم في رومة إحراقًا بالنار ، معجم أعلام المورد ، (ص١٠٣) .

الكنيسة آراء من أشدها قوله بتعدد العوالم ، وحكمت عليه بالقتل ، واقترحت بأن لا تراق قطرة من دمه ، وكان ذلك يعني أن يُحرَق حيًا ، وكذلك كان .

وهكذا عوقب العالم الشهير غاليليو [١] بالقتل ؛ لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس [٢] .

ذلك كان موقف رجال الدين في أوروبا من العلم ، والنظر في الكون لاستكناه معالمه ، وعوالمه ، ذلك الموقف الذي ألصقوه بالدين زورًا وبهتانًا إلا أن يكون دينًا آخر غير الذي أنزله الله على المسيح ﷺ الأمر الذي أحدث ردة من الدين ونفورًا منه ، واشمئزازًا لدى الأوربيين ، على الأقل لأحقاب متوالية من الزمن ، لا تزال آثارها السيئة ممتدة إلى الآن .

فهل هذا الموقف له ما يشابهه عندنا في الإسلام ؟

إن الحقيقة والواقع ، هي النفي القاطع ، بل العكس هو الصحيح ، فالإسلام يحث على العلم ، ويرفع قدر العلماء ، ويستحث الهمم للنظر في الكون ، والبحث في آفاق المعرفة ، ومختلف جوانبها ، ويعد بالثواب العظيم ، والأجر الكبير للعالمين والمتعلمين ، ويحض على نشر العلم ، ويحذر من كتمانه ، في نصوص كثيرة صريحة منها على سبيل المثال ما يلي :

قال تعالى : ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:١١] ،

---

(١) جاليليو (١٨١٣ ـ ١٨٧٣) : عالم إيطالي ، اشتغل بالفلك والرياضة والطبيعة ، اتجه أولًا للدراسة الطبية ، ثم تغلبت عليه رغبة البحث في الرياضة والطبيعة ، وفي سنة (١٦٠٩) ، صنع أول منظار فلكي أظهر به أن سطح القمر جبلي ، وأن الطريق اللبنية بها عدد لا يحصى من النجوم ، وأيد نظرية كوبر نيكوس في دوران الأرض حول الشمس فحوكم ، وأُرغم على نبذها ، الموسوعة الميسرة (١/ ٥٩٧) .

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين أبو الحسن الندوي ، (ص١٧٤ـ ١٧٦) .

وقال سبحانه : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، وقال عز من قائل : ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١] ، وقال جل شأنه : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٥٩، ١٦٠] ، وقد ختمت بعض آيات القرآن بمثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل:١٢]، وقوله : ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم:٢٢]، وقوله سبحانه : ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:٢١] .

وعن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **من خرج في طلب العلم كان في سبيل الله حتى يرجع** »[1] .

وعن أبي أمامة الباهلي ﷺ قال : ذكر لرسول الله ﷺ رجلان : أحدهما عابد والآخر عالم ، فقال رسول الله ﷺ : « **إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرضين حتى النملة في جحرها ، وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير** »[2] .

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب العلم ، باب فضل طلب العلم (جـ٥) (ص٢٩ رقم ٢٦٤٧) ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ، ورواه بعضهم فلم يرفعه ، وأورده في كنز العمال (جـ١٠) (ص١٥٨ برقم ٢٨٨١٩) ، وعزاه إلى الترمذي والضياء المقدسي في المختارة ، وقد ذكر السيوطي أن العزو إلى الضياء في المختارة مُعلِم بالصحة (الكنز ١/ ٩) .

(٢) رواه الترمذي ، كتاب العلم ، باب فضل الفقه على العبادة (جـ٥) (ص٥٠ برقم ٢٦٨٥) ، وقال : هذا حديث غريب ، وأورده المنذري في الترغيب والترهيب (جـ١) (ص٥٩ ، ٦٠) ، وصدره بلفظه : « عن » التي تشير إلى أن الحديث في دائرة الصحة =

وعن أبي الدرداء ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سلك الله له طرقًا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم ، وإن العالم يستغفر له من في السماوات ، ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظٍ وافر** »[(1)] .

« ولم يفرق القرآن بين علم الدنيا وعلم الدين ، بل أوصى بهما جميعًا ، وجمع علوم الكون في آية واحدة ، وحث عليها ، وجعل العلم بها سبيل خشيته وطريق معرفته فذلك قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وفي ذلك إشارة إلى الهيئة والفلك وارتباط السماء بالأرض ، ثم قال تعالى : ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ وفي ذلك الإشارة إلى علم النبات وغرائبه وعجائبه وكيميائه .

= أو الحسن أو ما قاربهما ، وقد أورد الهيثمي رواية مختصرة له عن جابر مرفوعًا بلفظ : « معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحار » ، وقال : رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه إسماعيل بن عبد الله بن زرارة وثقه ابن حبان ، وقال الأزدي منكر الحديث ، ولا يلتفت إلى قول الأزدي في مثله ، وبقية رجاله رجال الصحيح ، مجمع الزوائد (جـ ١ ص١٢٤) ، قلت : وللحديث شواهد أخرى تقويه .

(١) أخرجه الترمذي في كتاب العلم ، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة (جـ٥) (ص ٤٨، ٤٩ رقم ٢٦٨٢) ، وأحمد في المسند ، الفتح الرباني (جـ١ ص٤٩) ، كتاب العلم ، باب في الرحلة في طلب العلم ، وأبو داود في كتاب العلم ، باب الحث على طلب العلم (جـ٣) (ص٣١٧ رقم ٣٦٤١) ، والدارمي في المقدمة ، باب في فضل العلم والعالم (جـ١) (ص١١٠ رقم ٢٤١) ، وروى الحاكم في المستدرك ، كتاب العلم (ص٨٨، ٨٩) ، وابن ماجه في المقدمة ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (جـ١) (ص٨١ رقم ٢٢٣٠) ، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (جـ٢) (ص١٠٧٩، رقم٦٢٩٧، ورقم ٦٢٩٨) .

﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ (١) بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ (٢) سُودٌ﴾ وفي ذلك الإشارة إلى علم الجيولوجيا وطبقات الأرض وأدوارها وأطوارها : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ وفيها الإشارة إلى علم البيولوجيا والحيوان بأقسامه من إنسان وحشرات وبهائم ، فهل ترى هذه الآية غادرت شيئًا من علوم الكون ؟ ثم يردف ذلك كله بقوله : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨] .

أفلست ترى من هذا التركيب العجيب أن الله يأمر الناس بدراسة الكون ويحضّهم على ذلك ، ويجعل العارفين منهم بدقائقه وأسراره هم أهل معرفته وخشيته (٣) .

ولقد كان من نتيجة هذا الترحيب الإسلامي بالعلم والحفاوة بأهله أن نبغ علماء كثيرون ، وبرزوا في شتى ميادين المعرفة ومختلف العلوم ، فكان في ظل الحضارة الإسلامية علماء فحول في الفقه والتفسير والحديث والتاريخ والطب والصيدلة والجغرافيا ، والكيمياء والفلك والجبر ، والاجتماع والعمران ، والفلسفة والأدب والتربية وغيرها ، ونشروا علمهم في كل مكان ، وتتلمذت على أيديهم أوروبا ، ولم يضنوا على أحد بعلومهم ، بزعم أنها « أسرار » بل علموا القاصي والداني ابتغاء مرضات الله ، ولولا أن الإسلام دين علم ورقي وباعث أمجاد ، لما كانت تلك الثورة العلمية الضخمة ، فهل يمكن بعد هذا أن يقال : بأن للظروف التي نشأت فيها الدعوة إلى فصل الدين عن الحياة ، وعزله

(١) جدد : الخطط والطرائق .
(٢) أي : شديد السواد .
(٣) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ، رسالة نحو النور ، (ص٦٦، ٦٧) .

عن شئونها ؛ ما يماثلها في رحاب الإسلام ؟!

الوجه الثاني من وجوه تعارض هذه الدعوة مع الإسلام : أن جحود تطبيق الشريعة الإسلامية ، والمناداة بعزلها عن كل ما يتصل بشئون الحياة المختلفة ـ وهذا ما تقوم عليه هذه الدعوة العلمانية ـ أمر يتصادم ويتعارض صراحة مع نصوص القرآن الكريم ، الداعية في صراحة إلى وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية في كافة نواحي الحياة ، من سياسية واقتصادية واجتماعية ، وحربية وقضائية ونحوها ، وهي نصوص كثيرة ، منها على سبيل المثال :

قوله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥] ، وقوله سبحانه : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة:٥٠] ، وقوله جل شأنه : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤] ، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة:٤٥] ، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة:٤٧] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٨] ، وقوله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة:٢٧٨] ، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران:١٥٩] ، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى:٣٨] ، وقوله عز من قائل : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٧٩] ، وقوله تعالى : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ [البقرة:٢٢٩] ، وقوله تعالى :

﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١٩٠] .

فهذه النصوص ، وأمثالها كثير ، تخاطب المسلمين ، وتلزمهم بتنفيذ ما تأمر به ، والمسلمون لا يسعهم إلا المسارعة في الاستجابة والتنفيذ ، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور:٥١] ، بل إن من أنكر وجوب تطبيق الشريعة في أحد هذه الجوانب ، وجحده ؛ كان كافرًا وخارجًا عن الملة ، فكيف بمن ينكر الشريعة جميعًا ، ويزعم اقتصار الإسلام على الناحية التعبدية فقط ؟

الوجه الثالث : أن هذه الدعوة تتعارض مع التطبيق العملي لرسول الله ﷺ ، والخلفاء الراشدين المهديين من بعده ، ومن سار على نهجهم على مرّ العصور ، بل إنه في بعض العصور التي صاحبها انحراف ، ما كان للحاكم أن يجرؤ على مخالفة شرع الله جهرة ، بل كان الحاكم يحسّن صورته أمام الناس بأنه ملتزم بتطبيق شرع الله ، وسائر على منهجه ووفق أحكامه .

فقد عقد النبي ﷺ المعاهدات ، وجمع الزكاة ، وسير الجيوش ، وأرسل الرسل « السفراء » وأقام الحدود ، وقضى بين الناس ، وغير هذا من شؤون ، وكذلك الذين جاؤوا من بعده ﷺ ، كل هذا بجانب قيام المسلمين بالشعائر التعبدية أو الروحية ، مما يدل على أن حصر الدين في زاوية العبادة فقط ، وعزله عن شؤون الحياة ، دعوة ليست من الإسلام في شيء .

فهل يسوغ لنا ، بعد أن ظهر بطلان هذه الدعوة ، وأنها مرفوضة شرعًا ؛ أن نسمح بعرضها ، أو عرض ما يتصل بها على أطفالنا ، ومن هم أكبر منهم ، لنهدم في نفوسهم شريعة الله ، ونعطيهم صورة ناقصة شائهة عن دين الله

«الإسلام » ؟

وختامًا ، أقول : إن الأسى ليعتصر قلب المسلم وهو يرى الترويج لمثل هذه الدعوات في بلاد المسلمين ، بينما يرى اليهود لا يفتأون يعلنون في كل واد ونادٍ بأنهم أصحاب دين ، لا فصل بين الدين عندهم ، وبين شؤون الحياة ، ويستطيع المرء أن يلاحظ هذا من خلال شواهد وأحداث كثيرة ، منها ما يلي :

أن اليهود ، أقاموا دولة ، واختاروا لها اسمًا دينيًّا ، وسموها إسرائيل .

« و« إسرائيل » اسم أعجمي ، وقد ذكروا أنه مركب من ــ إيل ــ اسم من أسمائه تعالى ، و« إسرا » وهو العبد ، أو الصفوة أو الإنسان أو المهاجر ــ وهو لقب سيدنا يعقوب عليه السلام »[1] .

« ولقد كان من تأثير القيم الروحية والدينية في الشعب اليهودي أن توصلوا إلى الأمور التالية :

« فالدولة اسمها إسرائيل .

والذي يعمل يوم السبت يرمى بالحجارة .

والذي يتزوج زواجًا مدنيًّا لا تعترف به الدولة .

والمطاعم التي لا تطبخ على الطريقة اليهودية تقفل أبوابها .

وعلى كل يهودي أن يختار له اسمًا يهوديًّا مأخوذًا من التوراة .

ومنذ مدة قصيرة طالب « نسيم » أكبر حاخامات إسرائيل ، بجعل «التلمود» شريعة إسرائيل ، وكان قبله وزير الشؤون الاجتماعية في الدولة

(١) روح المعاني (١/ ٢٤١) .

العنصرية قد حاول الاعتراف بالتوراة ككتاب تسير إسرائيل على مبادئه .

وآخر ما سمعناه : « وكان هذا في الستينات من هذا القرن » من أخبار أن حزبًا كبيرًا من أحزابهم لم يصوت بجانب « غولد مائير » رئيسة وزراء إسرائيل ، بحجة أن الديانة اليهودية لا تبيح أن تترأس الدولة امرأة من النساء »[(١)] .

وقد انعقدت في جامعة تل أبيب ندوة حول دعم « علاقة السلام » بين مصر وإسرائيل ، بتاريخ ١٩/ ١٢/ ١٩٨٠ ، وشارك فيها عن الجانب المصري ؛ مصطفى خليل رئيس وزراء مصر الأسبق ، وبطرس غالي وزير خارجية مصر ، وعن الجانب اليهودي : حاييم بن شاهار معيد جامعة تل أبيب ، وشيمون شامير أستاذ تاريخ الشرق الأوسط ، ودافيد فيتال أستاذ العلوم السياسية ، وتفي يافوت أستاذ التاريخ ، ويوران دينشتاين أستاذ الأدب العربي ، وساسون سوينج أستاذ الأدب العربي .

وكان مما جاء على لسان المشاركين في الندوة ، مما له صلة بموضوعنا ما يلي :

مصطفى خليل :

أود أن أطمئنكم أننا في مصر نفرق بين الدين والقومية ، ولا نقبل أبدًا أن تكون قيادتنا السياسية مرتكزة إلى معتقداتنا الدينية .

وما أن أنهى كلامه حتى قال دافيد فيتال يرد عليه قائلًا :

إنكم أيها المصريون أحرار في أن تفصلوا بين الدين والسياسة ، ولكنني

(١) قصة الهداية ، عبد الله ناصح علوان ٢/ ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة . ط الثانية ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، نقلًا عن مجلة الحوادث (٩ شباط العدد ٥٨٧ ـ ١٩٦٨).

أحب أن أقول لكم : أننا في إسرائيل نرفض أن نقول : إن اليهودية مجرد دين فقط ، بل إننا نؤكد لكم أن اليهودية دين وشعب ووطن .

تفي ياقوت :

أود أن أقول للدكتور مصطفى خليل : إنه يكون على خطأ كبير إذا أصرَّ على التفريق بين الدين والقومية ، وأننا نرفض أن يعتبرنا الدكتور خليل مجرد أصحاب دين لا قومية له ، فنحن نعتبر اليهودية ديننا وشعبنا ووطننا ، وأحب أن أذكر الدكتور خليل بأن الشرق كان موطن الديانات السماوية المسيحية والإسلام واليهودية ، ولم يكن موطن قوميات [١] .

وأخيرًا : تناقلت وسائل الإعلام في منتصف العام (١٩٩٣م) ، أنه حدثت ضجة كادت أن تعصف بالائتلاف الحاكم في الكيان اليهودي ، والسبب ــ كما ذكرت الأنباء ــ إذ ذاك ، أن وزير الداخلية « وهو في الأصل زعيم أحد الأحزاب الدينية المتطرفة هناك » في الكيان هدد بالاستقالة ، والخروج من الائتلاف الحاكم ، احتجاجًا على ما ادعاه من أن وزيرة التعليم في الكيان تعمل على صبغ التعليم بالصبغة العلمانية .

فهل آن للقائمين على أمر الثقافة في البلاد الإسلامية عامة ؛ أن يقلعوا عن تبني هذه الدعوة التي تقصر الدين على الجوانب الروحية ، وتعزله عن تنظيم شؤون الشعوب والأوطان ، وأن تتبنى بدلًا منها الدعوة إلى تطبيق شرع الله في أوطاننا ؛ لنفوز بسعادة الأبد ، ونظفر بعز الدارين ؟

---

(١) عداء اليهود للحركة الإسلامية ، إعداد : زياد محمود علي ، (ص٩٥ــ ٩٨) باختصار وتصرف ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمان ، ط الأولى (١٤٠٢هـ ١٩٨٢م) .

الفصل الثاني

من صور الغزو الفكري في التاريخ واللغة العربية

المبحث الأول :

تشويه تاريخ العرب في إفريقيا واتهامهم بأنهم استعبدوا أهلها

المبحث الثاني :

نشر اللهجات العامية وإحلالها محل الفصحى

المبحث الأول

تشويه تاريخ العرب في إفريقيا واتهامهم بأنهم استعبدوا أهلها

امتدادًا لتشويه التاريخ العربي الإسلامي ، قمت حملات مكثفة ، تولى كبرها خصوم الإسلام ومن سار في فلكهم ، تنعت التاريخ العربي في إفريقيا ، بأقبح النعوت ، وتلصق به كل نقيصة ، وقد ركز الخصوم كثيرًا على ما يزعمونه ظلم الأفارقة وانتهاك حقوقهم ، وامتهان إنسانيتهم على يد العرب ، وقد نشروا في ذلك كتبًا كثيرة تعج « بالكذب والافتراء على العرب وعلى العرب فقط ، ففي مجموعة (Arab slave Trade)[١] سجلوا ما جرّد العربيّ المسلم من إنسانيته تجاه نظر الإفريقي ، وفي كتاب الجمعية التبشيرية المسيحية بكينيا ـ الساحل بين (١٨٤٤ ـ ١٩٤٤م) ، وصموا العرب والإسلام بما يجعلنا نرفع أنفسنا ونحتفظ لها بحق الكرامة التي سفت بها من الأفلام والنزعات ما خبثت ، كما قامت غيرها من الجمعيات والهيئات المسيحية بإعداد فيلم سينمائي أسموه « عرب زنجبار » .

ويقصدون بالذات ممباسا التي أسموها بالمدينة المحمدية ، وقد اختلق هذا الفيلم من المفتريات ما جعل من العرب وقسوتهم في معاملة الرقيق أمة وحشية يقرها في ذلك دينها الإسلامي .

وفي متحف كليوا ـ المدينة الإسلامية العتيقة بتنجنيقا ـ قسم خاص لتجارة العرب بالرقيق ، وهناك في الغرفة الخاصة تشاهد السلاسل والسيوف والحبال

(١) أي : تجارة العبيد العربية ، أو تجارة العرب بالعبيد .

بأيد عربية ، وهو « أي : العربي » يقود الأفريقيين كالسوائم والسيف على هاماتهم زرافات ووحدانا ، كما نجد نشرات الجمعيات التعاونية التنجنيقية ، والتي أنشأتها الشركات اليهودية والمسماة باختصار الأحرف الإنجليزية (cosata) الشيء الكثير والكثير بتشنيع التاريخ العربي الإسلامي» (١) .

وكذاك « في كتاب التاريخ الذي يدرس في الصف السادس ، والصفوف الأولى المتوسطة والذي ألفه « جورج ديوارد » مدير مدرسة ابتدائية في الكونغو ، تلفت انتباهنا هذه الفقرات المترجمة عن الدرس التاسع من الكتاب :

لكن قوانين دولية حرمت تجارة الرقيق ، حيث انتهت عبر الشاطئ الأطلنطي على أن العرب استمروا في ذلك ، بل وضخموا هذه التجارة ، لقد كانوا يصطادون ضحاياهم من الشواطئ الأفريقية الواقعة على البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وعندما وصلوا إلى زنجبار سنة ١٨٣٠ سيطروا على البلاد المجاورة ، وتقدموا إلى داخل أفريقيا ، ثم توغلوا في الكونغو حوالي سنة ١٨٦٣ وأسسوا سوقًا للرقيق في بدة « نيانغويه» ومنها تشعبوا في جميع الاتجاهات ويسيطرون على ما يقرب من نصف الأرض الكونغوية ، ينهبون القرى ويبيدون كل من يجرب أن يقاومهم ، ويقودون الأسرى بالألوف من أطفال ورجال ونساء وشابات ، لكن كيف كان يفعل العرب ؟ هل كانوا كثيرين ؟ الحق لا ، فلقد كانوا المنظمين فقط ، كانوا رؤساء هذه الصفقات ، وكان في خدمتهم ألوف من الأفريقيين المسلمين الذين استأجروهم من السودان ومن بقية بلدان الشمال الشرقي الأفريقي المستعربة ، كان كل هؤلاء الاستعباديين

---

(١) حقائق تاريخية عن العرب والإسلام في إفريقيا الشرقية ، محمد أحمد مشهور الحداد ، (ص١٣٥) ، دار الفتح ، بيروت ، ط الأولى (١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م) .

الغلاظ مسلحين بالسيوف والبنادق ، بينما لم تكن ضحاياهم تستطيع الدفاع عن نفسها إلا بأسلحة ابتدائية ، كان صيادو التعبيد يتبعون دائمًا نفس الأسلوب : يحاصرون القرية ، يقتلون قسمًا كبيرًا من الرجال ، ثم ينسحبون سائقين أمامهم بقية السكان حيث يقتلون في الطريق كل من لا يستطيع التقدم .

وذكر المستكشف « ليفينغستون »[1] أنه من إحدى القرى أتوا بأربعمائة شخص قتلوهم بالرصاص وأخذوا الباقي للبيع ، وأن هذا الجيش مع العرب والمستعمرين قضوا على ٢٧ قرية في يومين ، كان العبيد الكونغويون يُصدَّرون إلى مصر والجزيرة العربية وتركيا وإيران ، وحسب تخمينات الدكتور « شاربونييه » ، فقد قتل العرب في مدة أربعين سنة وباعوا أكثر من خمسة عشر ألفًا من الكونغويين ، لكن شيئًا فشيئًا ، وبواسطة المقالات التي نشرها أوائل المكتشفين ، عرف الأوربيون هذا الوضع واهتم بذلك كثيرًا الكاردينال

---

(١) دايفيد لفينغستون (١٨١٧ ــ ١٨٧٣) طبيب ومستكشف اسكتلندي عمل في أفريقيا . اتخذ من الخدمة الطبية وسيلة للتبشير بالكتاب المقدس ، اكتشف بحيرة نغامى ١٨٤٩ ، ثم اكتشف شلالات فكتوريا عام ١٨٥٥ ، وأطلق عليها هذا الاسم تكريمًا للملكة فيكتوريا ، التي كانت متربعة على العرش البريطاني آنذاك ، معجم أعلام المورد (ص٣٩٩) ، وهو زوج ابنة المبشر الكبير روبرت موفات (١٧٩٥ ــ ١٨٨٣) ، وقدم إلى إفريقية ١٨٤١ ليعمل في إرسالية إنجليكانية ــ من جمعية لندن المسيحية ــ ولكن حماسه ورغبته الجامحة في تعليم المسيحية ، وما طبع عليه من مغامرة دفعت به إلى التنقل بين القرى الصغيرة النائية التي لم تكن تعرف شيئًا عن المسيح ولا رأت إرسالية مبشرة من قبل ، وترك مذكرات تنم عن إخلاصه وتفانيه في دعوته ، وفي سنة ١٨٥٧ ألقى محاضرة في كمبردج مليئة بالأفكار والعبارات الموحية دعا فيها إلى التوجه نحو أفريقية لبث المسيحية في ربوعها ، رغبة في إنقاذها من الضلال والجهل ، وإلى هذين الرجلين ــ موفات وليفنجستون ــ يرجع الفضل في فتح باب التبشير في جوف القارة الأفريقية ، وتعتبر كل إرسالية مدينة لهما ، معركة التبشير والإسلام ، د/ عبد الجليل شلبي (ص١٧٢ ــ ١٧٩) باختصار .

« لافيجري »[(١)] .

وملك بلجيكا « ليوبولد » الثاني[(٢)] واندفعا للعمل بقوة .

سبعة دروس تسير على هذا المنوال عدا المتفرقات هنا وهناك للذكرى ، ثم يذكر المؤلف في مكان آخر استجابة الملك « ليوبولد » الثاني لنداء الباب وإساله الجيوش لتخليص الكونغويين من العرب المستعبدين ، وطردهم بعد سنتين من الكفاح ، ثم تأسيس أول دولة كونغوية مستقلة عاصمتها بروكسل «عاصمة بلجيكا ! » وملكها « ليوبولد » الثاني « ملك بلجيكا ! »[(٣)] .

والواقع أن هذه الافتراءات وأمثالها ؛ مبعثها أحقاد وعداوات كامنة في صدور أولئك الخصوم ، وثائرة متأججة لم تطفئها الأيام ، ولذا فليس بمستغرب أن يصدر مثل ذلك وأكثر .

وأن ما يثيرونه من غبار وينسجونه من أباطيل وخرافات حول معاملة المسلمين العرب للأفارقة ونظرتهم إليهم ، لا يمكن أن يشوه وجه الحقيقة

---

(١) لافيجري : منصر متحامل على الإسلام حاقد عليه ، بدأ حياته مبشرًا في شمالي أفريقية والسودان ، كلفه بذلك البابا بيوس التاسع (١٨٤٦ ــ ١٨٧٨) نفسه ، قضى دهرًا طويلًا من حياته في خدمة الاستعمار الفرنسي ؛ إذ بقي نحو أربعين عامًا في منصب الأسقفية في الجزائر ، كان رئيس أساقفة ، ثم أصبح كاردينالًا ثم صاحب الولاية على جميع أساقفة أفريقية ، ويمكن أن توجز سياسته في أنه أراد أن يحبب فرنسا إلى الناس باسم المسيح ، التبشير والاستعمار (ص ٤٤ ــ ١٢٦) بتصرف .

(٢) ليوبولد الثاني (١٨٣٥ ــ ١٩٠٩) كان حكمه (١٨٦٥ ــ ١٩٠٩) عصر توسع اقتصادي واستعماري كبير ، اشتهر بجشعه المفرط غير الخلقي ، وبحياته المنحلة ، الموسوعة العربية الميسرة (٢/ ١٦٠٢) .

(٣) مأساتنا في أفريقيا . عماد الدين خليل (ص٧٦ــ ٧٨) ، نقلًا عن محمود القاسم ، سنوات في الكونغو حضارة الإسلام ، السنة السابعة ، العدد (٥) .

الناصع ، وإن ما يقومون به من تشويه للتاريخ ، وطمس لحقائقه ، ما كان لينطلي على أحد لولا أنهم وجدوا شعوبًا غافلة ، وأجيالًا جاهلة ، وهم أيضًا الذين جَهَّلوها ، وملؤوها بأباطيلهم .

وإن العرب المسلمين لم يخرجوا من ديارهم أشَرًا ولا بطرًا ، ولا رياء ولا سمعة ، وإنما خرجوا اتقاء سخط الله وابتغاء مرضاته ، يوصلون للبشرية حقها الذي حملهم الله أمانة توصيله وتبليغه ؛ يدعون إلى الله ، ويهدون إلى صراطه المستقيم ، يعلمون الجاهل ، ويرشدون الحائر ، ويطبون العليل بشرع الله الذي أوحاه إلى رسوله الأمين ﷺ ، فكانوا كالغيث أينما وقع نفع .

وأما في أفريقيا ـ خاصة ـ فقد اهتدى على أيديهم ألوف من البشر ، وأنقذهم الله بالإيمان على أيدي المسلمين الفاتحين ، وقد ترك المسلمون فيها آثارًا حضارية رائعة تدل دلالة بالغة على ما كانوا يتسمون به من تطلع البناء والإعمار ، لا إلى الهدم والإفساد ، وما كانوا يحتلون به من أخلاق عالية ، وكيف لا يكونون كذلك ، وهم أهل رسالة سامية ، وأصحاب أهداف راقية ، وتجرد لله رب العالمين .

« ويعتبر دخول الإسلام في أفريقيا بأسرها أحد المنعطفات التاريخية الحاسمة في حياة ، ويعتبر دخول الإسلام في أفريقيا بأسرها أحد المنعطفات التاريخية الحاسمة في حياة القارة على حد قول مؤلف كتاب « **تاريخ استعمار أفريقيا** » السير « **هاري جنتسون** » فقد تغير تاريخها واتخذت ملامحها شكلًا جديدًا لم يكن كأي شيء حديث من ذي قبل ، كل ذلك ؛ لأن العرب وبفضل عقيدة التساوي في الإسلام لم يؤمنوا يومًا ما بنظرية تفوق الأجناس ووجود

جنس نقي ـ بل تزاوجوا واختلطوا بجميع الشعوب والقبائل الأفريقية »[١] .

ولقد قيض الله بعض المؤرخين من الغرب فأنصفوا التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية في أفريقيا ، وشهدوا بأن الإسلام قد أمدها بمشاعل الحضارة ، وأسباب الرقي، وتحدثوا عن كثير من مظاهر الازدهار والتقدم ، الذي نعمت به القارة السوداء في ظل الفاتحين المسلمين .

وهذا واحد من كبار الباحثين الذين عُنُوا عناية كبيرة بالتحقيق والبحث عن أثر الإسلام في أفريقيا وهو « بريمنجهام » ، يقول في بعض كتاباته :

« كانت الجماعة الأفريقية تؤسس حياتها على أساس : القبيلة والأرض التي تعيش فيها.

وكانت العصبية القبلية على أشدها ، فلما جاء الإسلام غير هذين الأساسين فحلت الأخوة في الإسلام محل العصبية القبلية وارتبط الأفريقي بالمسلمين جميعًا بعد أن كان رباطه محدودًا بأفراد قبيلته وذلك طبقًا للآية الكريمة : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات:١٠] . وساعد على ذلك ما خلفه الإسلام من ظروف تؤكد هذه الأخوة ، فالمسلمون جميعًا يحتفلون بعيد واحد ، ويعبدون إلهًا واحدًا في اتجاه وحدوي ، ويتخذون يوم الجمعة عيدًا أسبوعيًّا، وشهر رمضان صومًا، كما يتبعون نوعًا واحدًا من التشريع ، وكانت من قبل أعيادهم مختلفة وشرائعهم متباينة ، واتجه نظام الأخوة في الإسلام إلى إفساح المجالس أوسع نطاقًا ، وبعبارة أخرى إلى اندماج القبائل بعضها في بعض لتصير أممًا، وبازدياد النشاط والمعرفة أصبحت الأمم امبروطوريات »[٢] .

---

(١) حقائق تاريخية عن العرب والإسلام في إفريقيا الشرقية (ص٢٤) .
(٢) حقائق تاريخية « السابق » (ص٣٧) ، نقلاً عن الباحث « بريمنجهام » .

وإن المرء ليتساءل :

هل إذا اعترى بعض المسلمين في بعض الأزمان ما يعتري البشر من ضعف ، فاحترفوا بالنخاسة ، يصبح هذا السلوك عامًا يرمي به جميع المسلمين في جميع الأزمان ويعزي ذلك إلى دينهم ، ويقال : بأنه يقرهم ويشجعهم على هذا ؟ .

إن هذا لشيء عجيب !

وهل هذا هو منهج كتابة التاريخ ، وتسجيل وقائعه ، وصياغة حوادثه ؟

أيكون من الإنصاف التعامي عن مبادئ شريعة الإسلام التي سمت بالرقيق نفسيًّا وماديًّا إلى مرتبة يحرم من الوصول إليها كثير من الأحرار في ظل غيرها من الشرائع ، ثم تسليط الضوء على سلوكيات فردية ـ إن صحّ أنها وقعت ـ لا صلة لها بمبادئ الإسلام السمحة ، ولا بما اشتهر عن المسلمين من تطبيقات عملية وسلوكيات حضارية راقية عبر العصور ؟

إن أولئك الذين يتقممون الزلات والهفوات فيضخمونها ، ويبحثون عن نقطة سوداء ، فيجعلونها هي التي تملأ الصفحة ويريدون أن ينسجوا من مخيلتهم تاريخًا شائها للمسلمين في أفريقيا ، إن هم في حقيقة الأمر إلا عَوَنة للاستعمار وجند من جنوده ، وما كان لهم أن يسطروا شيئًا من ذاك الاختلاق لولا أنهم كذلك ، وما كتاباتهم وأفكارهم تلك إلا صورة من صور محاربة الإسلام وجزء من محاولة طرده من أفريقية ، بل ومن كان مكان حل به ثم التمكين للاستعمار ، وإقامة مملكة مسيحية في القارة السوداء ، وبذر بذور الكراهية بين الأفارقة وبين العرب المسلمين ، وهم مع هذا كله جادون في إخفاء الوجه الكالح والتاريخ الأسود للأوروبيين في أفريقيا .

أجل ؛ إن اتهام العرب بأنهم « **صيادو العبيد** » في أفريقيا حري بأن يوجه إلى الأوروبيين ؛ إذ إنهم به أخلق ، وهم به أليق ، فهم لم يقوموا فقط بصيد العبيد واختطافهم وترحيلهم إلى أوروبا واستنزافهم في مختلف الأعمال المضنية ؛ بل كانوا في هذا مسرفين إلى حد بعيد .

« فإذا حدث ما فعله بعض العرب من المساومة ببيع الرقيق ، وكان ذلك جد قديم ، وقديم جدًّا ؛ فقد فعل الغربيون ، ولا فرق بينهم جميعًا أكثر بكثير مما فعله بعض العرب .

فهذا أحد كتاب الغرب يقول فيما أسماه « **موجز من تاريخ ساحل شرقي أفريقيا** » : إن تاريخ بيع الرقيق هو في قدمه كقدم تاريخ الساحل نفسه .

واستطرد قائلاً : وعندما بدأ الغربيون بمختلف أجناسهم يأتون إلى أفريقيا ، كانوا هم بدورهم قد لعبوا دورًا فعالاً في هذه التجارة المربحة ، وأتجر الأوروبيون في الرقيق وعلى نطاق واسع على الساحل الغربي من أفريقيا ، وكذلك في الأخير على امتداد الساحل الشرقي لأفريقيا .

إلى قوله : وإن من أحد الأسباب التي دفعت البرتغاليين إلى التغلغل للاستكشاف في الساحل الغربي من أفريقيا في القرن الخامس عشر ، إنما هو رغبتهم في استخدام العبيد ـ على حد تعبيره ـ للأعمال الشاقة مقابل أجور زهيدة .

وفي منتصف القرن السادس عشر بدأ الإنكليز أيضًا يأخذون نصيبهم من بيع الرقيق في غرب أفريقيا لمدة مائتي سنة ، ولقد كانوا يعتبرونها تجارة مربحة جدًّا تنتجها القارة الأفريقية ، وإن الزنوج الذين يأخذونهم من غرب أفريقيا يحملونهم عبر المحيط الأطلنطي ليستخدموهم في مناجم الذهب والفضة في

أمريكا الوسطى أو أمريكا الجنوبية أو في حقول السكر في جزر الهند الغربية .

وهذا كاتب آخر من كتابهم وهو المستر : **جاك ، ودوديس** يقول في كتابه : «Africa The Roots of Revoit»[(١)] من الفصل الثاني « **بالقمع فقط** » ما نصه: إن المسلك العام من جانب أغلبية أصحاب الأعمال الأوروبيين في القارة الأفريقية في بداية القرن العشرين ، إنما يمتثل في كلمات « **إبوارت جروجان** » الذي أصبح فيما بعد مدافعًا عن سياسة الشنق الجماعي خلال فترة الطوارئ في كينيا عام ١٩٥٥م ، فقد كتب جروجان يقول في كتابه « **من الكاب للقاهرة** » : إن الشيء المطلوب إنما هو إقامة نظام سليم من العمل الإجباري ، وإنه يجب أن يرغم الأفريقيون على العمل شهورًا كثيرة في السنة ، ثم أضاف في تهكم إن هذه السخرة يجب أن تسمى التعليم الإجباري ، ومضى جروجان يقول : وقد نحى شتى الاعتبارات الإنسانية .

عندما سخر وتهكم من الاقتراح الخاص بأن أي أوروبي يشرف على إقليم ما في أفريقيا يجب ألا يعطي الأفريقي الوطني أكثر من خمسة وعشرين جلدة[(٢)] .

بل إن المرء ليستبد به الذهول ، ويتملكه العجب حينما يرى أشهر المفكرين الغربيين لم ينكروا على قومهم مسلكهم الأثيم تجاه استرقاق الأفارقة ، بل تجاوزوا مرحلة الرضا بهذا العمل ، إلى تبريره ، بما ينم عن نفوس شريرة ، وقلوب تطفح بالعنصرية والبغضاء لكل من ليس أوروبيًّا !

فقد كتب الكاتب المفكر المعروف « **منتسكيو** » في كتابه « **روح القوانين** » ،

---

(١) أي : أفريقيا جذور الثورة .

(٢) السابق ، (ص١٣٤،١٣٣) .

الذي ذاع صيته وعرف بأنه أساس من أسس الفكر الأوروبي الحديث .

وشريعة من الشرائع التي تفتق عنها ذلك الفكر الأوروبي لترسم طريق المعاملات بين الشعوب والأمم .

فقد جاء في أحد فصوله نص يظهر منه مبلغ الحقد الدفين والتشفي الظاهر وهو قوله: «إذا كان عليّ أن أدافع عن حقنا المكتسب في اتخاذ الزنوج ذوي البشرة السوداء عبيدًا ، فإنني أقول : إن شعوب أوروبا ، قد أفنت سكان أمريكا الأصليين لم يكن أمامها إلا أن تستعبد شعوب أفريقية ؛ لكي تستخدمها في استصلاح أرجاء أمريكا الشاسعة .

وما شعوب أفريقية إلا جماعات سوداوات البشرة من أخمص القدم إلى قمة الرأس ، ذات أنوف فطساء إلى درجة يكاد من المستحيل أن ترثى لها ، وحاشا لله ذي الحكمة البالغة أن يكون قد أودع روحًا . أو على الأخص روحًا طيبة في جسد حالك السواد [1] .

وأود أن أسوق هنا طائفة من الحقائق المذهلة ، تعتبر خلاصة عن مسلك الاستعمار الصليبي في البلاد التي نزل بها ، لا سيما في أفريقيا ، وهي موجز من كتاب « **الصحو الأفريقي** » تأليف : « **بازل دافسون** » فيما يلي [2] :

لقد توجه المؤلف بهذه الصيحة في مقدمته قائلاً :

إلى هؤلاء الذين أقول : تريثوا وسائلوا أنفسكم :

(١) المستشرقون والإسلام . زكريا هاشم زكريا (ص٣٥) المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م .

(٢) نقلاً عن : كتاب « مع الله » ، محمد الغزالي ، (ص١٥٠ــ١٥٣) ، حقائق تاريخية (مرجع سابق) ، (ص٤٧ ــ ٤٩) .

هل في مقدور شعب منحط أن يتحمل ما تحمله شعب أفريقيا ؟

ليس العجب في أفريقيا أن تكون شعوبها متأخرة ، ولكن العجب العجاب أن تبقى كل هذه الشعوب حية برغم المهازل والمآسي التي نزلت بها .

وفي أثناء الكتابة عن حال السكان البؤساء في وصايا الجنس الأبيض «الأبيض الراقي» يتسائل المؤلف :

ما الذي يراه المسافر إلى أفريقية ؟

إنه يحسب ـ لأول وهلة ـ أن ليس لهذا الشعب ماض ولا مستقبل .

الكآبة تخيم عليه وسط جو تسوده الحرارة ، وأرض تمتد فوقها الغابات لكن المتأمل الباحث سرعان ما تصدمه الحقيقة .

إن ثروة « أفريقيا » ينقلها المستعمرون إلى أوروبا ، تاركين أصحاب البلاد الأصلاء في فقر مدقع .

والناس هناك يحسون هذه المرارة ، ويستعيدون ـ في سبيل استرداد حقوقهم ـ قصص الكفاح الذي بدأه أجدادهم من سنين طوال .

بدأ استعمار « أفريقيا » في أوائل القرن الخامس عشر عندما بدأت حركات الاستكشاف الكبرى .

وسنة ١٤٤٤ شرع البرتغاليون يستوردون العبيد من ساحل الذهب «غانة» وما كاد القرن السادس عشر يحل حتى كان عدد العبيد في بعض مناطق البرتغال أكثر من عدد البرتغاليين أنفسهم .

وبهذا صار الكشف الجغرافي سرقة ثم تحولت السرقة إلى استعباد عام .

قال : إن أوروبا لا تنظر إلى أفريقيا « إلا في ضوء منافعها الخاصة ، وما تمليه مصالحها فحسب ، لذلك استبعدت الأفريقيين واستغلتهم أسوأ استغلال .

إن « ناسو سبينور » وصف شركة أفريقيا التي تأسست سنة ١٥٦٧ بأنها وجدت لكي تختطف أو تشتري أهالي « أفريقيا » ، ثم تسخرهم في العمل حتى الموت .

والإنجليز والهولنديون سواء في هذا الأمر ، فهم يسخرون الأفريقيين تسخيرهم للخيل، وهم ـ مع ذلك ـ أكثر أمم أوروبا تدينًا ، وأعمقهم إيمانًا . . !!

ثم قال تحت عنوان « خلف المسيحية » :

ومع الاستعمار جاءت أفواج المبشرين تدعوا للنصرانية التي دخل فيها كثير من أبناء القارة «المظلمة» ألا ما أكثر الأطماع التي صحبت هؤلاء المبشرين .

وراء مثالية المسيح قدم اللصوص ، كما يقول المونسيور «كوخير» ولقد أبحر اللصوص من بلادهم تحت علم المثالية أيضًا ، وجلبت رحلاتهم إلى الشرق ثروات ضخمة من الحرير والتوابل .

ويكفي أن نعرف أن سفينة « الجلدن هند » عندما عادت سنة ١٥٨٠ إلى لندن ربح فيها أصحابها ١٦٠٠٠٠٠ جنيه إنجليزي ، مع أن رأس المال كان ٥٠٠٠ جنيه .

وكان الأوروبيون يسعون ـ أول الأمر ـ خلف العبيد يختطفونهم لمآربهم ثم خلف العاج والفضة والنحاس بعد ذلك .

كان المستعمرون في القارة الأمريكية بحاجة ماسة إلى العبيد ، وكانت

أوروبا أيضًا فقيرة إليهم بعد تطورها السريع نحو الصناعة ، وهجرة الفلاحين إلى المدن الكبرى ، تاركين الأرض تتطلب العاملين فيها .

ومن هنا استورد الأوروبيون الملايين من أهل أفريقيا ، وليس يعلم أحد العدد الحقيقي للعبيد الذين تم جلبهم .

ولقد قدر أحد المؤرخين البرتغاليين ـ استنادًا إلى الوثائق المحفوظة بخزائن الحكومة البرتغالية ـ عدد الأفريقيين المختطفين من « **أنجولا** » وحدها بـ ٣.١٨٩١٠٠٠ وبين سنتي ١٤٨٦:١٦٤١ ، وزادت تجارة الرقيق في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، ويقدرها الأب «**جادين**» بمعدل سنوي قدره ٢٥٠٠٠ عبد ، خلال سني القرن الثامن عشر ، و٣٠٠٠٠ عبد خلال سني القرن التاسع عشر ، أسهمت هذه المجموعة الغفيرة ـ بكدها وجدها ـ في بناء الحضارة الأوروبية ، في نقلها إلى ربوع الأمريكتين .

ويقول المؤرخ الكبير « جلبر نوربار » :

إن الدور الذي قام به العبد الأفريقي في البرازيل لهو أخطر من الدور الذي قام به الأوروبي المستعمر ، صاحب المزاعم الطولى في بناء الحضارة !!

وكان تجارة الرقيق ـ أو النخاسون ـ ينصبون شباكهم في أدغال الغابات ويوقعون فيها الزنوج الأبرياء على غفلة منهم ثم يسوقونهم بالسياط ، ويكبلونهم بالأغلال ، كما كانوا أحيانًا يدفعونهم بالحديد المكوي ويشحنونهم في سفن مكتظة تعبر بهم ، الأطلنطي إلى أوروبا وأمريكا ، ولم تكن الكنيسة الأوروبية تعترض على هذه التجارة السوداء ، بل كانت راضية بنصيبها من الأسلاب .

وقد بزّت إنجلترا البرتغال في تجارة الرقيق واعتمدت عليها اقتصاديًا اعتمادًا كبيرًا وأنشأت لها مرفأً خاصًا، ولو سألت الأوروبي اليوم ما هي الأسباب التي أنشئ من أجلها ميناء ليفربول؟ لتواري بوجهه كاشحًا منك، أو قائلاً لك - إذا أدرك أنك عارف: إن هذا كله كذب وافتراء.

ولكنه لا يستطيع أن ينكر ما سجله تاريخه الغربي .. فاللورد دارتموث - وزير المستعمرات الإنجليزي عام ١٧٧٥م - اعترض على أي حركة تقف في سبيل تجارة الرقيق بقوله: إننا لا نستطيع أن نسمح للمستعمرات بأن تعترض سبيل أو نقص أطراف تجارة تعود على الأمة بمثل هذه المنافع.

وكانت « **ليفربول** »: هي بورصة هذه التجارة التي تعود على الأمة الإنجليزية بالمنافع، فقد احتكرت خمس التجارة البريطانية من العبيد .. وثلاثة أسباع التجارة العالمية كلها، وقد قدر أن بين سنتي ١٦٨٠ و ١٧٨٠ حملت سفن ليفربول وحدها مجموعة من الرقيق قدرها ٢.٠٠٠.٠٠٠ زنجيًا، كما ثبت أنه خلال إحدى عشرة سنة فيها بين عامي ١٧٨٣، ١٧٩٣م استخدمت ليفربول ٩٣١ سفينة في نقل ٣١٣.٧٣٧ عبدًا، قيمتهم الإجمالية ١٥.١٨٦.٨٥٠ جنيهًا إسترلينيًا، ناهيك عن الأحوال البشعة التي كان يتعرض لها هؤلاء المظلومين في الرحلات البحرية ... ويقول « **ويلبر فورس** » - المصلح الاجتماعي في القرن التاسع عشر - إنه لا يمكن للعين أن تقع على شقاء أشد هؤلاء وتركيزًا ما تراه على مثل تلك البقعة الصغيرة .. « **سفينة الرقيق** » المسافرة إلى الدول الغربية.

ويقدر المؤرخ الزنجي، البروفسور « **دوبوا** » عدد الزنوج الذين وقعوا في

أسر القناصلة خلال هذه القرون [١] بما لا يقل عن مائة مليون من أفريقيا ، وقد انتهت هذه المأساة رسميًّا في بداية القرن التاسع عشر ، ورغم ذلك فقد بقيت بعض الدول الأوروبية طيلة القرن التاسع عشر تتعاطي هذه التجارة في الخفاء حتى حرمها مؤتمر برلين عام ١٨٨٥م تحريمًا مطلقًا [٢] . اهـ .

وتقول دائرة المعارف البريطانية جـ٢ ص٧٧٩ :

إن اصطياد الرقيق من قراهم المحاطة بالأدغال كان يتم بإيقاد النار في الهشيم الذي صنعت منه الحظائر المحيطة بالقرى ، حتى إذا نفر أهالى القرية إلى الخلاء تصيدهم الإنجليز بما أعدوا لهم من وسائل وشراك .

وعدا من كانوا يموتون من هذا القنص الآدمي في الرحلة إلى الشاطئ الذي ترسو عليه مراكب الشركة الإنجليزية وغيرها كان ثلث الباقين يموتون بسبب تغير الطقس ، ويموتون في أثناء الشحن حوالي ٤.٥٪ منهم و ١٢٪ في أثناء الرحلة .

أما من كانوا يموتون في المستعمرات فلا حصر لهم ، فإن مستعمرة جمايكا البريطانية وحدها قد دخلها سنة ١٨٢٠م ما لا يقل عن ثمانمائة ألف رقيق ، ولم

---

(١) يقصد القرون التي ظلت فيها تجارة الرقيق قائمة ، وهي زهاء أربعة قرون ما بين القرن الخامس عشر والتاسع عشر .

(٢) لم يُلْغِ الأوروبيون الرق بدافع اخلاقي ، وإنما لأسباب سياسية واقتصادية ، منها رأوا أن يبقى الأفارقة في بلادهم ، ليظلوا مستهلكين للسلع والصناعات الأوروبية بعد أن آتت الثورة الصناعية أكلها وفاض الإنتاج ، ومنها أن إنتاج الرقيق بدأ يضعف لسوء المعيشة ، وأن تكاليف العبد من إعاشة وحراسة ونحوها صارت كثيرة ، فأصبح المكسب والحالة هذه قليلاً ، ونحو ذلك مما ذكره الباحثون .

يبق في تلك السنة منهم سوى ثلاثمائة وأربعين ألفًا [١] .

ولقد ذكر العالمان « جاك آلان . جورج ، وهيرالد » في تقرير : رتب في مائتي صفحة وقدم إلى لجنة حقوق الإنسان بهيئة الأمم المتحدة ــ بعد أن قاما برحلة بدأها من مراكش مارين بنيجيريا والكونغو والسودان . شاهدا حظائر الرقيق في تاوا ، طورا ، طبورا ، سواكن ورأيا وحشية القناصة وسوء معاملة المخطوفين المساكين .

ذكر هذان العالمان أن ثلث الرقيق يموت في الطريق ، وخمسه يموت مريضًا في المعتقل والباقي يباع بعد ذلك ، وقد صادفا في بعض البلاد سودانيين مسلمين بعثهما شيخ من دارفور لشراء بعض الرقيق وإعتاقهم ، ورأيا كثيرا من المسلمين يفعل مثل ذلك ، كما شاهدا في " سواكن " رئيس عملية الشحن للخارج « والتركر ومهولتر » الألماني الذي احترف تجارة الرقيق بعد أن أُطلق من أَسْر الإنجليز ، وعندما كان جاويشًا في الحملة الألمانية الأفريقية وله دراية وخبرة بهذه التجارة في جميع أنحاء أفريقيا [٢] .

وأما ما زعم من أن إنقاذ الأفارقة المظلومين إنما كان على يد الأوروبيين الذين تنبهوا للمظالم البشعة التي أوقعها العرب عليهم ـ كما يزعمون ــ وأنهم هبوا للعمل بقوة من أجل رفع الظلم ، إلى آخر هذه المزاعم ، فيكفي لرد ذلك وإبطاله ، ما سبق من الحقائق التي أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك بأن أيديهم ملطخة بدماء الأبرياء الأفارقة ، وليس للعرب من هذه التهم نصيب ، ولكن

(١) مجتمع بلا فوارق ، دراسة موضوعية عن موقف الإسلام من الفقر والرق ، عبد الودود شلبي (ص١٠١) . الأوقاف والشؤون الإسلامية . الشارقة . ط الأولى .
(٢) السابق (ص١٩٠ــ١١٠) .

زيادة في الإنصاف للتاريخ والحقيقة، ورغبة في كبح جماح هؤلاء المفترين، وإلجامهم بالحجة تلو الأخرى، أسوق كلام أحد الغربيين، يُدعى « جاك ودیس » ليكون شهادة على قومه، فيما يلي [1]:

قال في فصله الأول من الكتاب: ومن الشائع هذه الأيام بين الدول الاستعمارية زعمها أن فوز الشعوب الأفريقية بالاستقلال السياسي، إنما يرجع إلى الدول الأوروبية وتشجيعها وتقديمها مثلا يحتذى.

ويستطرد قائلاً: إن الشعوب الأفريقية التي ظلت قرونًا طويلة تتجرع كأس المرارة حتى الثمالة لن تقبل هذا التزييف لحقائق التاريخ، بل إننا لو نحينا جانبًا تلك الأيام الرهيبة من الرق والعبودية التي سلبت القارة الأفريقية ستين مليونًا من الأرواح، وستين مليونًا من الأجسام، وستين مليونا من المواهب ومن ثم أعاقت وشوهت النمو الطبيعي للقارة.. فإن الخمس والسبعين سنة الأخيرة، وهي الفترة الأخيرة التي خضعت فيها أفريقيا لدول أوروبا الصناعية الحديثة كانت مملوئة بعمليات القتل والذبح الجماعية التي ما زلنا نشهد أمثلة منها في الجرائم التي ترتكبها البرتغال في أنغولا، وفي كل من موزمبيق وجنوب أفريقيا والكونغو!

ويكفينا أن نشير إلى انخفاض عدد الكونغو البلجيكي من عشرين مليون نسمة.

في عام ١٩٠٠ إلى ١٢.٥ مليون في عام ١٩٦٠م وإبادة ٨٠.٠٠٠ بطل رجالًا ونساء وأطفالًا في أفريقيا الجنوبية الغربية على أيدي القوات الاستعمارية

---

(١) كلام جاك ودیس الآتي، منقول عن: حقائق تاريخية، مرجع سابق، ص١٣٦ــ١٣٧.

الألمانية عام ١٩٠٦م ، وقتل ما لا يقل عن ١٢٠ ألف أفريقي خلال ثورة «Maji Maji» ضد الحكم الألماني في تنجنيقا في العام نفسه .

وذبح ما يزيد عن ٣.٠٠٠ أفريقي في ثورة المانشونا والماطابيلي في روديسيا عام ١٨٩٦م ، بأيدي القوات البريطانية ، وقتل ما لا يقل عن ٤٠.٠٠٠ مالافاسي في ثورة مدغشقر الكبرى عام ١٩٤٧م ، وسفك دماء ١١.٠٠٠ نسمة خلال فترة الطوارئ في كينيا بعد عام ١٩٥٢م .

كل هذا عدا المذابح اللاإنسانية في كل من كينيا البرتغالية ، وساوتوم ، وأنغولا ، وفي سيراليون ، ونياسالند ، وشارفيل ، وفي يوندولند ، بجنوب أفريقيا .

وفي إينوجو بنيجيريا ، وعند الحزام النحاسي في روديسيا الشمالية ، وفي بولاوابوا ، وسالزبيوري ، وهاراري بروديسيا الجنوبية وغيرها من المناطق مما لا نهاية له . اهـ .

أفبعد هذه الحقائق الدامغة ـ وهذا قليل من كثير ـ يسوغ لأحد أن يزوِّر التاريخ ، ويفتريَ الكذب على الإسلام وأهله ؟

حقًا إن أولئك الخصومَ يتوهمون القشة في وجوه غيرهم ، ولا يرون الخشبة في عيونهم !!

******

المبحث الثاني
نشر اللهجات العامية
وإحلالها محل الفصحى

وهناك مخططات منذ فترة طويلة من الزمن ، ودعوة روج لها أعداء الإسلام ، ترمي إلى القضاء على اللغة العربية الفصحى ـ لغة القرآن الكريم ـ وإحلال اللهجات العامية في الأقطار الإسلامية محلها ، وقد صاحب هذه المخططات جهود جبارة ، ودعاوي مزيفة ، تبناها كثير من الغربيين ، وكثير من المستغربين ، وظاهرهم كثير من أبناء المسلمين ومشوا في ركابهم .

وإن المرء ليلاحظ صورًا ووجوهًا لهذه الدعوة إلى العامية ، لا تزال قائمة إلى اليوم في وسائل الثقافة في المجتمعات الإسلامية ؛ فهناك الأعمال الإعلامية الكثيرة في وسائل الإعلام ، تدعم هذا الاتجاه الخطير ؛ إذ تعرض هذه الوسائل إنتاجًا فكريًّا عديدًا ، باللهجات العامية ، التي تحاصر الفصحى ، وتضعف من قيمتها في نظر الأجيال .

بل هناك الأفلام السينمائية والتلفزيونية قد أعدت على نهج يحقر من شأن الفصحى ، ويغض من قيمتها ، مثل فيلم يدعى غزل البنات لنجيب الريحاني[1] .

« حيث يسخر فيه من مدرس اللغة العربية ومن اللغة العربية سخرية ماكرة ـ مقصودة بلا شك ـ فيصور مدرس اللغة العربية بائسًا مسكينًا ، تبعث كل مواقفه على السخرية منه ، ولا يثير الاحترام عند أحد ، ويجعل فتاة مائعة

---

(١) ممثل فكاهي نصراني .

تحاول أن تقرأ نصًا عربيًا في دروس المطالعة ، فتخطئ أخطاء مضحكة ـ يضحك لها الجمهور الغافل ـ ولكنها تقدَّم في سياق الأحداث بالصورة التي توحي للمشاهد أن البنت معذورة ، فاللغة هكذا صعبة على الأفهام ! لا يمكن للمتعلم أن يستوعبها مهما بذل المعلم من الجهد» [١] .

وقد أشارت بعض الدراسات إلى أن « بعض برامج الإذاعة والتلفزيون في العالم العربي تصل في فترات معينة إلى استعمال العامية بنسبة ٩٠٪ ، وأكثر البلاد العربية التزامًا لا تستعمل الفصحى بأكثر من ٤٠٪ حتى الآن » [٢] .

وكذلك « دلت دراسة قامت بها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم على أن وحدتنا اللغوية لا تقوم إلا على ٧٪ تقريبًا من مجموع الكلمات العربية التي نستعملها بيننا ، بينما نحن مختلفون بنسبة تتجاوز ٩٣٪ من المادة اللغوية ؛ إذ تشكل اللهجات الدارجة بمستوياتها المهذبة والمبتذلة الجانب الأعظم من لغة الحوار في برامج الإذاعة والتلفزيون والسينما والمسرح » [٣] .

ولقد قام الاستعمار طيلة وجوده في البلاد الإسلامية على رعاية مخططات محاربة الفصحى وحصارها ، خاصة في المجالات التعليمية ، فعمل على إضعاف شأنها ماديًا ومعنويًا ، بل إنه استطاع أن يقضي عليها ، ويطردها من بعض البلاد التي كانت تتحدث بها ، كما حدث في بعض دول أفريقيا .

ثم إن هناك وسيلة خطيرة تهدد اللغة العربية بالزوال لدى قطاعات عريضة من النشء المسلم في بعض البلاد الإسلامية ، تتمثل في الخادمات الأجنبيات

---

(١) واقعنا المعاصر (ص٢٩٢) .

(٢) التلفزيون السم اللذيذ ، (ص٥٤) .

(٣) النظام الإعلامي الجديد ، د/ مصطفى المصمودي (ص٢٦٩) .

المتشرات في تلك البلاد ، وقد أكدت البحوث أن نسبة كبيرة منهن ليس لديهم إلمام باللغة العربية ، وأن السواد الأعظم يتحدثن لغات أجنبية ، وقد اضطر الأهالي وأطفالهم إلى التحدث معهن بما يفهمن من لغة ركيكة جدًّا عبارة عن مزيج من اللغة العربية الدارجة بلغة البلدة التي هم فيها ، ومزيج من لغات أجنبية شتى ، فلا هم يتحدثون معهن بالعربية الخالصة ولا باللغة الأخرى الخالصة ، وهكذا تنشأ تعبيرات ومصطلحات كثيرة غريبة عن اللغة العربية ، بل وعن اللهجة المحلية أيضًا ، وللأسف تفشو تلك الألفاظ والتراكيب الغريبة ، ويتخاطب الناس بها على مختلف المستويات ، وقد شاهدت هذا الوضع بنفسي في منطقة الخليج التي يكثر فيها استخدام الأجنبيات خادمات ومربيات ، الأمر الذي ينذر بعواقب وخيمة ، والحقيقة أن هذا الغزو الذي تتعرض له اللغة العربية ، وتلك المحاولات الدؤوبة للقضاء عليها ومحاربتها ، خاصة تلك المحاولات الرامية إلى استبدال اللهجات المحلية العامية بها ؛ إنما هو تخطيط ماكر خبيث ، له أهداف خطيرة ، ويترتب عليه آثار تضر بنا في الحال والمآل ، وتهدد حاضرنا ومستقبلنا ؛ إذ هو امتداد لمحاربة القرآن نفسه ، والعمل على إقصاء المسلمين عنه ، وقطع صلة الأجيال بالعلوم والآداب العربية عامة ، وعلوم الشريعة الإسلامية خاصة ، وامتداد كذلك لمحاولات الخصوم الدائبة من أجل تقطيع أوصال الأمة الإسلامية ، وتفريقها ، وإيجاد صعوبة ـ بل استحالة ـ التفاهم بين شعوبها .

ولقد قال « وليم جيفور بلجراف » في كلمته المشهورة : « متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب ، يمكننا أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة (يعني : الحضارة المسيحية) التي لم يبعده إلا محمد وكتابه ، فكما بينا أنه لا

يمكن أن يتوارى القرآن حتى تتوارى لغته »[١] .

وإن لمحة سريعة في تاريخ الدعوة إلى العامية في البلاد العربية والإسلامية في العصر الحاضر ؛ تبين بوضوح أن الاستعمار وأعوانه من خصوم الإسلام هم الذين يقفون وراءها ، وتابعهم فيها بعض العلمانيين من المسلمين .

وهذه سطور تلقي الضوء على تاريخها في مصر ، مقتبسة بإيجاز مما كتبه صاحب كتاب « الاتجاهات الوطنية »[٢] بهذا الخصوص ، فيما يلي :

بدأت هذه الدعوة في أواخر سنة ١٨٨١م حين اقترح « المقتطف »[٣] كتابةَ العلوم باللغة التي يتكلمها الناس في حياتهم العامة ، ودعا رجال الفكر إلى بحث اقتراحه ومناقشته .

ثم هاجت المسألة مرة أخرى في أوائل سنة ١٩٠٢م حين ألف أحد قضاة محكمة الاستئناف والأهلية من الإنجليز ـ وهو القاضي ولمور ـ كتابًا عما سماه لغة القاهرة ، وضع لها فيه قواعد ، واقترح اتخاذها لغة العلم والأدب ، كما اقترح كتابتها بالحروف اللاتينية ، وتنبه الناس للكتاب حين أشاد به

---

(١) أباطيل وأسمار (ص١٥٨) .

(٢) ٢/ ٣٥٩ وما بعدها ، وانظر : أباطيل وأسمار (ص١٥١) وما بعدها .

(٣) « المقتطف » صحيفة كانت تصدر أيام الاحتلال الإنجليزي لمصر ، وكانت دائبة على تعريف المذاهب الغربية في الفلسفة والأدب وسائر دروب الثقافة ، لا تكاد تشير إلى شيء من قديم الشرق وتراثه الفكري ، وكانت تترجم لعظماء الرجال من الغربيين ، ولا تكاد تجد فيها ترجمة لرجل من رجال الإسلام ، أو الشرق أو مصر في تاريخها الحافل الطويل ، كما كانت تعمل من طريق خفي على إضعاف النعرة الدينية والوطنية ، بما تنشر من آراء تشكك في العقيدة ، وبما تدعو إليه من نزعات عالمية لا يراد بها في حقيقة الأمر إلا تقريب الفوارق بين المصريين وبين أعدائهم الذين يمتصون دماءهم والذين يحتلون ديارهم ؛ لكي يسكنوا إليهم ويألفوهم ، الاتجاهات الوطنية (١/ ٢٥٦، ٢٥٧) .

« المقتطف » في «باب التقريظ والانتقاد » فحملت عليه الصحف مشيرة إلى موضع الخطر من هذه الدعوة التي لا تقصد إلا محاربة الإسلام في لغته .

وثارت المسألة من جديد حين دعا إنجليزي آخر ، كان مهندسًا للري في مصر - وهو السير وليم ولكوكس - سنة ١٩٢٦م إلى هجر اللغة العربية ، وخطا بهذا الاقتراح خطوة عملية ، فترجم أجزاء من الإنجيل إلى ما أسماه «اللغة المصرية» ونوه سلامة موسى [(١)] بالسير وليم ولكوكس وأيده ، فثارت لذلك ثائرة الناس من جديد ، وعادوا لمهاجمة الفكرة ، والتنديد بما يكمن وراءها من الدوافع السياسية ، ولكن الدعوة استطاعت أن تجذب نفرًا من دعاة الجديد في هذه المرة ، فاتخذوا القومية والشعبية ستارًا لدعوتهم ، حين كان لمثل هذه الكلمات رواج ، وكان لها بريق خداع يغشي الأبصار ، وحين كان الناس مفتونين بكل ما يحمل هذا العنوان في أعقاب ثورة شعبية تمخضت عن «الفرعونية» وحين كانوا يتحدثون بما صنع الكماليون من استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، وترجمة القرآن للغة التركية ، وإلزام الناس بالتعبد به ، وتحريم تدريس العربية في غير معاهد دينية محدودة وضعت تحت الرقابة

---

(١) سلامة موسى : مسيحي معاصر ، كان سافر الهجوم على الإسلام والثقافة الإسلامية ، ومن أبرز الداعين إلى نبذ التراث الإسلامي والعربي ، ولا يرى الدين إلا خرافة ، ويهدم التدين جملة ، وقد عرض صاحب « الاتجاهات الوطنية » (٢/ ٢٢١، ٢٢٨) ، لفكره من خلال كتابه « اليوم والغد » ومقالاته في مجلة « الهلال » ومما نقله عنه قوله تحت عنوان « الجامعة الدينية وقاحة » : إذا كانت الرابطة الشرقية سخافة ؛ لأنها تقوم على أصل كاذب ، فإن الرابطة الدينية وقاحة ، فإننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا ، وكان يطالب بإغلاق الأزهر ؛ لأنه لا ينشر إلا الجهل والجهالة ولا يقدم إلا وجبات عفنة مضى عليها ثلاثة عشر قرنًا ، وسائل مقاومة الغزو الفكري د/ حسان محمد حسان (ص٥٦) .

الشديدة، وقد مضوا من بعد في مطاردة الكلمات العربية الأصل ينفونها من اللغة التركية كلمة بعد كلمة.

ثم تسللت الدعوة إلى مجمع اللغة العربية، فتبناها عضو من أعضائها، وهو عيسى إسكندر المعلوف [(١)]، حيث كتب سلسلة مقالات في مجلة مجمع اللغة العربية عن «اللهجة العربية العامية».

ثم تقدم عضو آخر من أبرز أعضاء المجمع وهو عبد العزيز فهمي [(٢)] باقتراح كتابة العربية بالحروف اللاتينية، وشغل المجمع ببحث اقتراحه عدة جلسات امتدت خلال ثلاث سنوات، ونشر في الصحف، وأرسل إلى الهيئات العلمية المختلفة، وخصصت الحكومة جائزة مقدارها ألف جنية لأحسن اقتراح في تيسير الكتابة العربية. اهـ.

وكان الحال هكذا في كل قطر، وقد نشط المستشرقون في دراسة اللهجات المختلفة في أفريقيا وبلاد المغرب والشام وغيرها، ومحاولة الوصول إلى إيجاد قواعد لها حتى تحل محل الفصحى.

ولقد أبانت بعض كتابات الداعين إلى العامية، والناقمين على الفصحى عن مآربهم الخبيثة، كما نلمس ذلك في ما كتبه أحد هؤلاء وهو أنيس فريحه «أحد أساتذة التاريخ واللغات السامية في الجامعة الأمريكية في بيروت» في بعض

---

(١) وإن مما يدعو للعجب حقًا أن يختار المجمع لعضويته رجلًا معروفًا بعدائه الصريح للغة العربية، وهو عداء عريق ورثه عن أبيه الذي أعلنه، وجهر به حين سجله في مقال له نشرته «الهلال» سنة ١٩٠٢م دافع فيه عن اللهجات السوقية وقال: إنه يشتغل بضبط أحوالها وتقييد شواردها لاستخدامها في كتابةِ العلوم، الاتجاهات الوطنية (٢/ ٦٢٦).

(٢) حدثنا أحد الدعاة المعاصرين المعروفين أن عبد العزيز فهمي باشا كان مقتنعًا جدًا بكل ما فعله أتاتورك، مما يفسر دعوته هذه إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية.

كتبه التي وضعها بهذا الشأن .

وقد عرض صاحبا كتاب « التبشير والاستعمار » لآراء « فريحة » من خلال بعض كتبه فقالا [١] :

ولقد فضح الدكتور فريحه نفسه لما ألقى السؤال الذي يقبع وراء دراساته وتعليلاته واقتراحاته ، ذلك السؤال الذي يفسر نقمته على اللغة الفصحى ويعلل حقده على الحرف وعلى الأدب القديم ، وبعد أن دعا الدكتور أنيس فريحه للهجات العامية وللحرف اللاتيني ما شاءت له الدعوى قال « نحو عربية ميسرة ١٩٨، ١٩٩» :

ولكن للناس « يقصد المسلمين » أن يسألوا : ماذا سيحل بالقرآن الكريم ؟ وجوابنا هو أن القرآن الكريم سيخلد على ما هو عليه كما بقيت كتب دينية عديدة رغم انحراف لغة الناس عن لغة هذه الكتب ، ورغم انحراف لغة الناس عن لغة هذه الكتب ، فإن « لغة هذه الكتب » حافظت على روعتها وجلالها ومقامها الديني ، هاك لغة التوراة الإنجليزية المعروفة بترجمة الملك جايمس [٢] ، فإنها على قدمها تعتبر في الإنجليزية ، وإلى جانب مقامها الديني ، قطعة أدبية رائعة ، ولكنها تخالف لغة الناس ، وقل مثل هذا في لغة شكسبير [٣] فإنها حافظت

---

(١) في (ص٢٣٠، ٢٣١) .

(٢) أوائل القرن السابع عشر للميلاد .

(٣) شكسبير شاعر مسرحي إنكليزي (١٥٦٤ ــ ١٦١٦) مجهول النشأة ، كل ما يعرف عنه بالتدقيق أنه تزوج في التاسعة عشرة من عمره (١٥٨٢) وأنه ابتدأ من عام ١٥٨٨ ، كان في لندن يعمل في أحد المسارح ، استمرت إقامته في العاصمة إلى عام ١٩٥٢ حين أقفلت أبواب المسرح لتفشي مرض الطاعون في العاصمة ، ثم عاد إليها بعد مرور عامين واستقر فيها إلى عام ١٦١٣م ، المعجم الأدبي ، جبور عبد النور (ص٣٥٩ ، ٣٦٠) باختصار .

على كيانها ومقامها ، وفي لندن اليوم مسرح مشهور يعرف بـold vic لا يمثل فيه إلا روايات شكسبير بلغتها القديمة وبشعرها القديم وبتعبيرها القديم ، وأنك إذا قست هذه اللغة بلغة جرائد لندن أو إذا قستها بلغة الشارع في أكسفورد أو كمبيريدج وجدت فروقًا شاسعة ، وها هي الكنيسة الكاثوليكية ، فإنها تعتبر الترجمة اللاتينية للتوراة لغة الكنيسة الرسمية ، ولا يكون القداس إلا باللغة اللاتينية ، وقل مثل هذا في الكنيسة الأرثوذكسية التي حافظت على اللغة اليونانية التقليدية .

والكنيسة المارونية التي احتفظت باللغة السريانية ، والكنيسة المسيحية الحبشية التي احتفظت باللغة السامية القديمة المعروفة بلغة الجعز ، « على أن الفارق بين هذه الكنائس التي احتفظت بلغاتها القديمة وبين الإسلام عظيم جدًّا ، ذلك لأن العامية المهذبة المحكية لا تختلف عن لغة القرآن الكريم اختلاف السريانية عن العربية أو الإغريقية عن العربية أو اللاتينية عن الفرنسية ، فلن تكون لغة القرآن الكريم غريبة عن أفهام الناس .

وسيظل الناس يتعلمونه ويحفظونه غيبًا ، ويدرسون صرفه ونحوه وسحر بيانه كما يفعلون اليوم ، وسيظلون يقرؤونه ويستظهرونه تبركًا ، هذا فيما يتعلق بالمستقبل القريب ، ولكن ماذا سيحدث في المستقبل البعيد ، بعد مئات السنين ؟ هنا ندخل في نطاق الحدس والتخمين ، ولكن يتراءى لي أن في ذلك الزمن لن تكون الحياة الروحية وقفًا على الكلمة ولفظ الكلمة وشكل كتابة الكلمة ، عندها يكون للناس الحرية أن ينظروا إلى الدين من خلال نظاراتهم لا من خلال نظراتنا نحن ، نحن زائلون والحياة للأجيال القادمة ، لا تحرص أن تفرض على ابنك عقائدك وعاداتك ومقاييسك وذوقك ونظرك إلى الحياة ،

وقد يسايرك « ابنك » بعض الطريق ، ولكنه في قرارة نفسه يضحك من حرصك هذا ويسير في طريقه الخاص » .

وهكذا نجد بوضوح أن الحملة على العربية الفصحى إنما هي في حقيقتها حملة على اللغة التي تجمع بين العرب والمسلمين ، وحملة على العروبة والإسلام وأمنية في أن يصبح القرآن كتاب دين لا صلة له بالحياة : يستطيع نفر من المسلمين أن يقرؤوه من غير أن يفهموا منه شيئًا ومن غير أن يشعروا بما فيه ! إلا كما يشعر الوثني إذا نظر إلى صورة معلقة في الجدار ، أو إلى وثن قائم على قاعدة من الحجارة . اهـ .

فيجب أن يتنبه القائمون على أمر وسائل الثقافة في بلادنا إلى مغبة تماديهم في تشجيع العاميات المبتذلة ؛ إذ إنهم بهذا يخدمون مخططات الخصوم من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، وإذا كنَّا نتنادى في هذا الوقت بالوحدة والتماسك ـ وهو أمر مفروض ـ فبدهي أن تتلاشى اللغة الفصحى ، وانتشار العاميات يعد شرخًا واسعًا في جدار هذه الوحدة المنشودة ، وعاملًا كبيرًا في تأخيرها بالإضافة إلى ما يحدثه هذا المخطط الماكر من هوة سحيقة بيننا وبين ماضينا « وإذا انقطعت صلتنا بقديمنا أمكن أن نقاد إلى حيث يراد بنا وإلى حيث لا تجمعنا بعد ذلك جامعة تجعل منا قوة تخيف الكائدين وتأبى على الطامعين »[(١)] .

والناظر إلى أمم الأرض يجدها تذود عن لغاتها ، وتتخذ كافة السبل لحمايتها مثل العديد من الدول الصناعية شرقًا وغربًا « من ذلك أن هذه الدول تمنع عرض الأفلام الأجنبية في التلفزة إذا لم تكن مترجمة صوتيًا « فرنسا ألمانيا » وذلك بالإضافة إلى تحديد نسبة هذه البرامج وكل البرامج الأخرى الواردة من

---

(١) الاتجاهات الوطنية (٢/ ٢٧٣) .

الخارج حتى وإن كانت في اللغة الوطنية « بريطانيا »[(١)] .

وهذا هو الكيان اليهودي عمل جاهدًا على إحياء اللغة العبرية من موات ، وجعلها لغة رسمية مع أن اليهود النازحين إلى فلسطين جاؤوا من بقاع شتى ، ولا يتحدث بها إلا القليل منهم .

ولقد حدث في أواخر القرن التاسع عشر حادثة ذات دلالة بالغة ، فيما نحن بصدده ؛ فقد « اضطرت المدرسة الألمانية بالقاهرة سنة ١٨٧٦م ـ ولسنوات محددة ـ للاهتمام باللغة الفرنسية ، ولم تمر هذه الحادثة ـ منذ مائة سنة ـ بسلام فقد اعترضت الجالية الألمانية بمصر ، وتدخلت الحكومة الألمانية فقطعت إعانتها عن المدرسة ؛ لأنه من غير المعقول أن تخصص ميزانية وزارة الخارجية الألمانية لمدرسة لم تعد في جوهرها ونظامها ذات طابع ألماني »[(٢)] .

والألمان من أكثر الناس تحيزًا وتعصبًا للغتهم ، يلمس هذا من ذهب إلى هناك ـ كما حدثني بهذا بعض من زاروها .

هذا ، وللداعين إلى هجر الفصحى شبهات كثيرة ، كالزعم بصعوبتها ، وعدم قدرتها على مسايرة العلوم ، ونحو هذا من المفتريات ، وكلها مردود عليها ، أو مردودة على أصحابها ، والذي يظهر أن المسألة ـ في أساسها ـ ليست صعوبة ولا جمودًا ـ كما يزعمون ـ وإنما هي رغبة جامحة في إبعاد المسلمين عن دينهم ، وكتاب ربهم ، وتقطيع أواصرهم ، وتمزيق وحدتهم ، كما سبقت الإشارة ـ ليسهل بعد ذلك ابتلاعهم ، فإنه ما دامت أمة الإسلام قلبًا واحدًا بالقرآن ، ولسانًا واحدًا بالعربية ، فإن استغلالها موقوت وإن طال ، واستقلالها

(١) النظام الإعلامي الجديد (ص٢٧٠) .

(٢) وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي (ص٦٥) .

آت وإن تأخر .

ولسوف تبوء كل هذه المخططات بالفشل ـ إن شاء الله ـ وتبقى اللغة العربية خالدة وباقية ، ببقاء القرآن وخلوده ، الذي تعهد الله بحفظه ، فقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:٩] .

ولسوف يقيض الله دائمًا من يذود عن اللغة العربية ، ويحميها من مخططات الأعداء الماكرة ، كما قيض الأزهر الشريف لحراستها ، فكان ـ ولا يزال ـ الحارس الأمين لها ، بالإضافة إلى أمثاله من المؤسسات والهيئات الإسلامية : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠] .

*****

الباب الرابع

نحو مواجهة فعالة للغزو الفكري

تمهيد

الفصل الأول :

وسائل وأساليب مواجهة الغزو الفكري

الفصل الثاني :

مواجهة الغزو الفكري بين العقبات والمبشرات

تمهيد

قد اتضح لنا من خلال ما سبق كيف أن الغزو الفكري مصدر تهديد لوجودنا ، وكل حياتنا ، فما موقفنا منه ، وكيف نتصرف حياله ؟

والإجابة ـ بداهة ـ وبدون تردد ، هي ضرورة المقاومة له حتى ينحدر ، وتستأصل من حياتنا جذوره ، وتزول كل أشكاله ومظاهره ، ويبرأ المسلمون من بلائه .

ثم لا يجب أن يتوقف الأمر عند هذا الحد ، وإنما ينبغي أن يتجاوزه إلى موقف الهجوم ، والغزو الفكري الإسلامي المعاكس ، والمضاد لخصوم الإسلام في عقر دارهم ، حتى يعم الإسلام الأرض قاطبة ، بفكره ومبادئه ، ويكون الدين كله لله .

ومما يؤسف له أن يكون المسلمون الآن في موقف الدفاع والمواجهة والمقاومة ، وهو في الغالب موقف الضعيف أو المغلوب الذي صبحه عدوه أو مساه ، وغزاه في عقر داره ، ولكننا لا نملك إلا أن ننهض لنواجه ذلك الغزو ، ونحمي منه المسلمين عامة .

وجدير بالذكر أن مجابهة الغزو الفكري أكبر من أن يتصدى لبحثها والخوض في شؤونها فرد أو أفراد ، بل إن هذا الأمر لخليق بأن تشارك فيه وتتصدى له فرق عمل متناسقة متكاملة ، تضم النخب الممتازة من مفكري الأمة وعلمائها وقادتها ، من مختلف التخصصات والمواقع والمستويات ، ولا عجب ، فإنه غزو قد اشتركت فيه قوى الكفر ومصادره مجتمعة ، واندفعت كالإعصار المدمر ، تبغي اجتثاث الإسلام وذويه من الجذور .

أجل ، « إن هذه المصادر الكثيرة الجياشة بالبغضاء ضد الإسلام وأمته تلاقت جميعًا في هذه الأيام لتبت في مصيره !

وهذه المصادر تتحول ترابًا تذروه الرياح يوم يصحو المسلمون من رقادهم العميق ! أما آن لهذه الصحوة المرتقبة ؟ إن كل ساعة تمر دون يقظة منا ندفع ثمنها باهظًا ، وتحقق لخصومنا انتصارات رخيصة » [(١)] .

هذا وليس ما قدمته في هذا الباب حول كيفية مواجهة الغزو الفكري ، وما يتصل بهذا الأمر ، هو القول الفصل ، أو أنه كافٍ شافٍ ، وإنما هو جهد متواضع ، حاولت من خلاله إبراز خطوط عريضة تشكل تصورًا لكيفية المواجهة ، مستفيدًا ـ ولا شك ـ من جهود من سبقوا محورًا يرتكز عليه في درء ذلك الخطر الماحق ، وقد رأيت أن من تمام الحديث عن مواجهة العقبات التي تعترض سبيل مواجهة الغزو الفكري ، أن أتكلم عن بعض العقبات التي تعترض سبيل مواجهة فعالة ، ثم أشير إلى بعض الخطوات العملية التي تحققت بفضل الله تعالى ، فكانت بمثابة مبشرات على طريق المواجهة .

وإنني إذ أعترف مقدَّمًا بأن ما هُديت إليه من أمور تتعلق بمواجهة الغزو الفكري ؛ ليست هي فصل الخطاب في هذا الجانب الخطير ؛ فإنني على ثقة من أنه لو قدر لها أن ترى نور الحياة العملية ، أو تخرج إلى حيز التطبيق مع نظائر لها من التصورات والخطط ؛ لكان إنجازا عظيما وفعالا في مواجهة الغزو الفكري ، فنسأل الله أن يوفقنا لأن نكون قومًا عمليين ، وأن يهدينا سبيل الرشاد ، وينصرنا على أعدائنا .

***

(١) هموم داعية ، محمد الغزالي (ص٩١) .

الفصل الأول

وسائل وأساليب مواجهة الغزو الفكري

المبحث الأول :

بين يدي الحديث عن المواجهة

المبحث الثاني :

دور الأسرة المسلمة

المبحث الثاني :

دور الحكومات الإسلامية

المبحث الثاني :

دور الدعوة الإسلامية

المبحث الثاني :

دور المسلمين عامة في المجتمع المسلم

المبحث الأول

بين يدي الحديث عن المواجهة

إن هناك أمورًا مهمة بمثابة أسس لا بد منها، كي نصل إلى مواجهة ناجحة وفعالة للغزو الفكري، أشير إلى بعضها بإيجاز على النحو التالي:

أ- الإخلاص لله ﷻ:

وغير خاف على أحد أهمية الإخلاص في ديننا الإسلامي، إذ إنه من الأعمال بمنزلة الروح من الجسد، فمثل العمل الذي يكون خالصًا لله، والعمل الذي ليس خالصًا لله، كمثل الحي والميت، وإن أي عمل يقوم به المسلم يجب أن يكون لله ﷻ خالصًا: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣].

وعن ابن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ قال: « **ثلاث لا يُغِلُّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن الدعوة تحيط من ورائهم** »[1].

---

(١) جزء من حديث مطلعه: « نضر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها ... » إلخ، أخرجه الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع (جـ٥ ص٣٤، ٣٥ رقم ٢٦٥٨)، وابن ماجه في المقدمة، باب من بلغ علمًا (جـ١ ص٨٤ رقم ٢٣٠)، وأحمد. الفتح الرباني، كتاب العلم، باب في فضل تبليغ الحديث عن رسول الله ﷺ (ج ١ ص١٦٤، ١٦٥)، والدارمي في المقدمة، باب الاقتداء بالعلماء (جـ١ ص٨٦، ٨٧ رقم ٢٢٨)، والحاكم في كتاب العلم (جـ١ ص٨٧، ٨٨)، من غير رواية ابن مسعود، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال الإمام إسماعيل بن محمد العجلوني في كشف الخفاء (جـ٢ص٤٢٣): رواه أصحاب السنن وغيرهم بطرق كثيرة وألفاظ مختلفة عن ابن مسعود ﷺ وغيره، وذكره السيوطي في الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة، =

ونحن في مواجهتنا للغزو الفكري يجب أن نبتغي بهذا العمل وجه الله ، وننوي به الذود عن الإسلام ، وإظهار الحق ، ونحو هذا من المقاصد والنوايا ، وأن نحذر النوايا الفاسدة التي يقع فيها البعض لدى التصدي للفكر الدخيل ، كالمواجهة بدافع العصبية أو القومية أو الجنسية أو الوطنية ، ومثل هذه الدوافع ثم إن مكافحة الغزو الفكري ضرب من ضروب الجهاد ، فيجب أن يكون جهادًا في سبيل الله وابتغاء مرضاته ؛ كي ننال على ذلك الأجر ، ونظفر بتأييد الله الذي يقود حتمًا إلى النصر .

ب ـ التحلي بالصبر والتقوى :

وهذه المواجهة إنما هي معركة ، وهي ليست كالمعارك العسكرية التي يمكن أن تحسم بعد جولة فاصلة لصالح أحد المتحاربين بل هي معركة مستمرة بين مد وجزر ، وصراع متواصل ، ولذلك يجب أن نتحلى فيها بالصبر ، وطول النفس مع التقوى واللجوء الدائم إلى الله ، والاستعانة به سبحانه وتعالى ، خاصة وأننا نواجه كيدًا عالميًا ، وحربًا من مصادر شتى : ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

= وانظر : كنز العمال (جـ١٠ص٢٢٠) ، وما بعدها ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ١١٤٥، رقم ٦٦ ، وقوله ﷺ : « لا يُغِلُّ » هو من الإغلال : الخيانة في كل شيء ، ويروى « يَغِلُّ » بفتح الياء من الغل وهو الحقد والشحناء : أي : لا يدخله حقد يزيله عن الحق ، وروى « يغلُ » بالتخفيف ، من الوغول : الدخول في الشر ، والمعنى أن هذه الخلال الثلاث تستصلح بها القلوب ، فمن تمسك بها طهر قلبه من الخيانة والدغل والشر ، النهاية في غريب الحديث والأثر (جـ٣) (ص٣٨١) ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « فإن الدعوة تحيط من ورائهم » أي : تحوطهم وتكنفهم وتحفظهم .

يريد أهل السنة دون أهل البدعة ، والدعوة : المرة الواحدة من الدعاء ، السابق (جـ٢) (ص١٢٢) .

﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ [آل عمران : ١٧٣، ١٧٤] .

والله سبحانه وتعالى عندما أشار إلى كراهية الخصوم ، وما تنطوي عليه قلوبهم من الحقد ، والكيد للمسلمين ، قال : ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران:١٢٠] .

قال في الكشاف : « ﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ على عداوتهم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ ما نهيتم عنه من موالاتهم ، أو إن تصبروا على تكاليف الدين ومشاقه وتتقوا الله في اجتنابكم محارمه كنتم في كنف الله فلا يضركم كيدهم ، وهذا تعليم من الله وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى »[(١)] .

ج ـ التخطيط الواعي والتنظيم المحكم :

وإن الغزو الفكري المعادي يدبر له في أعتى عواصم العالم ، وتوضع له أحكم الخطط المبنية على دراسات وتقارير عن كل بيئة ، وكل بقعة من بقاع العالم الإسلامي المراد اختراقها أو غزوها ، وإذا لم نكن أكثر منهم تخطيطًا وتنظيمًا ، فلا أقل من أن نكون مثلهم ، فتكون مواجهتنا مدروسة ومنظمة ، وملائمة لأحوال من نبغي حمايتهم ، ونذب أخطار الغزو الفكري عنهم .

وعند التخطيط والتنظيم والدراسة ، سوف تتضح لنا أمور غاية في الأهمية مثل عدم الاكتفاء بوسيلة واحدة في المواجهة ، وإنما ضرورة التنويع ، والاستعانة بكل الوسائل ؛ لأن ما يناسب بيئة ما من الطرق والوسائل ، قد لا يناسب الأخرى .

وعلى سبيل المثال : فإن هناك من يظن أن مواجهة الغزو الفكري يكفي فيها

---

(١) الكشاف للزمخشري (جـ١ ص٤٦٠) .

الطرق « النظرية » فقط ، أي : من خلال التوعية الفكرية النظرية ، بواسطة كتاب أو صحيفة ، أو مجلة ، أو محطة إذاعية أو تلفزيونية ، ونحو هذه الوسائط .

ولكن هذا ـ مع أهميته ـ لا يكفي وحده ، فهو إن كان يناسب بيئة ، فليس يجدي في البعض الآخر من البيئات التي لا تسمح ظروفها بأن تكون المواجهة كلامية ، فقط « بلا عملًا يعمل ، وإذا كان التبشير يعمل من خلال إنشاء الملاجئ والمدارس والمستشفيات ، ووكالات الإغاثة ، والأطباء ، فلنكن أكثر منهم إنشاء لهذه الأعمال الإنسانية التي يحتاج إليها الناس في مجتمعات مختلفة .

وليس من الكياسة أن نكتفيَ بإنشاء مراكز أو جمعيات للدعوة هنا أو هناك تكون مهمتها الكلام في قوم ليسوا في حاجة إلى الكلام ، وقد لا يفهمون لغة الكلام ، إنما يفهمون فقط [لغة] المساعدات ومن يساعدهم »[1] .

وبتعبير آخر : فإن وسائل الغزو وأسلحته متنوعة ، فيجب أن تكون المواجهة كذلك ، فنحاربهم بنفس الأسلحة التي يحاربوننا بها ، ونعمل على تجسيد الفكرة الإسلامية من خلال وسائل متنوعة ، يستغلها الخصوم في تجسيد الفكرة المعادية .

فمثلًا : في مقابل انتشار المدارس التنصيرية ، يجب التوسع في إنشاء المدارس الإسلامية ، وفي مقابل انتشار الجامعات التغريبية ، يجب التوسع في نشر الجامعات الإسلامية ، وفي مقابل استغلال الخصوم لأعمال البر والتطبيب ، والجمعيات الخيرية ، يجب التوسع في إنشاء مثل هذه الجمعيات من قبل المسلمين ، خاصة في أفريقيا والمناطق الفقيرة ، وهكذا حتى نقطع الطريق على

---

(١) التنصير .. التحدي والمواجهة ، د/ أحمد عبد الرحيم السايح ، منار الإسلام (ص٨٢) ، العدد التاسع ، السنة السابعة عشرة ، رمضان (١٤١٢هـ مايو ١٩٩٢م) .

مؤسسات الغزو الفكري ، التي تتسلل من خلال تلك المنافذ وأشباهها .

د ـ ضرورة العمل على تحصين كل فئات المجتمع ضد أخطار الغزو الفكري :

وكذلك فإننا يجب أن نضع في الاعتبار أن تلك المواجهة لا يجوز أن تتوقف عند حد تحصين فئة ما من فئات المجتمع ، بل لا بد من أن تمتد لتدرأ الغزو على كل الجبهات ، وتحصّن منه كل القطاعات والفئات ، فيشمل العمال والفلاحين والمتعلمين وأنصاف المتعلمين والرجال والنساء ، ونحوهم ، وكذا كل الأعمار ، فيشمل الطفولة كما يشمل الشباب والشيخوخة وهكذا .

« وقد يتصور البعض وببساطة وسذاجة أن مقاومة الغزو يمكن تركيزها في مرحلة عمرية معينة ، ولتكن الرجولة أو الشباب مثلًا .

بيد أن هذا التصور تعوزه الدقة ، ويفتقد الرؤية الصحيحة ، فالغزو أصلًا جهد متواصل ، متواكب الحلقات ، متكامل الفصول ، ومقاومته ينبغي ألا تقل عن ذلك بل تتجاوزه وتتحداه .

فما معنى أن نحاول تحصين الشاب المسلم والمسلمة بينما الغزو استهدفه منذ ميلاده ، وحاصره إعلاميًا وثقافيًا وتعليميًا؟ »[١] .

هـ ـ ضرورة أن تكون المواجهة جماعية :

ومن الأسس اللازمة لنجاح مواجهة الغزو الفكري ، أن تكون المواجهة جماعية وعامة على مستوى العالم الإسلامي ، فتتعاون فيها الأقطار الإسلامية جميعًا ، وكذا الحكومات كلها ، والمؤسسات الرسمية والشعبية في المجتمع ، والعلماء والأفراد والبيت ، مع ضرورة التنسيق في الجهود لتتكامل في أداء مهمتها .

---

(١) وسائل مقاومة الغزو الفكري (ص٨٩) .

ومن الواضح أن العالم الإسلامي كله مستهدف ، فلا معنى والحالة هذه لأن تواجه حكومة أو قطر ما الغزو الفكري ، بينما تفتح أخرى له الأبواب ، ولا جدوى من أن تتصدى الأسرة مثلًا للغزو وتحصن منه أبناءها ، في حين تكون أجهزة أخرى كالإعلام والتعليم ـ مثلًا ـ وسيلة من وسائله ، أو بوقًا من أبواقه ، ينعق بالفكر المعادي صباح مساء ، كنعيق البوم في الخرائب ؛ إذ يصبح الأمر حينئذٍ كمدينة أراد أهلها تحصينها ضد هجمات الأعداء ، فسدوا كل الثغور ، وأوصدوا كل الأبواب والمنافذ ، ما عدا بعضها تركوه دون إغلاق أو حراسة ، حتى إذا رام أعداؤها اقتحامها لم يجدوا مانعًا يمنعهم من الولوج إليها ، والتغلغل فيها عبر تلك المنافذ المهملة ، أفترى أن تحصينهم لباقي الثغور ، وسدَّهم لباقي الأبواب أغنى عنهم شيئًا إذ أهملوا بعضها ؟!

هذا ، وبالإضافة إلى ما سبق ؛ فإن المواجهة الفعالة تتمثل أكثر ما تتمثل في أن يعرف كل منًّا دوره وواجبه في المواجهة ، ووسائل وأساليب أدائه والقيام به ، ثم ينهض فيؤدي ما هو مطلوب منه دون كسل أو تواكل ، ويعد نفسه أنه يقف على ثغرة من ثغور الإسلام ، فلا يؤتين من قلبه وهذا ما سأحاول توضيحه بتوفيق الله في المباحث التالية .

*****

المبحث الثاني
دور الأسرة المسلمة

لقد اقتضت سنة الله ﷻ في خلقه ، وشرعه الحكيم ؛ أن يولد الإنسان لأبوين ، يعطفان عليه ، ويمنحانه كل الحب والحنان ، ويوفران له كل ما يحتاج إليه ويحوطانه برعاية شاملة ، ومع ذلك العطف وتلك الرعاية يتلقى الطفل في طفولته ويعلم من المعارف والخبرات والمعتقدات ، ما يظل ثابتًا ومحفورًا في أعماقه أبد الدهر ، ويكون له السهم الوافر والنصيب الأكبر في تحديد ملامح شخصيته .

هذه البيئة التي تتكون من أب وأم ، ويعيش في حضنهما الطفل هي الأسرة ، وهي لها دور فعال في توجيه الطفل يفوق دور أي مؤسسة توجيهية أخرى ، وهي كذلك ، أقدم مؤسسة توجيهية ، ولا يمكن الاستغناء عنها ، أو إغفال دورها بحالٍ من الأحوال ، « ولن تغني عن الأسرة في توجيه الأفراد أي مؤسسة اجتماعية كائنة ما تكون ، وكائنًا ما يكون شأن المشرفين عليها ، وليست تجارب إهمال الأسرة وإقصائها عن توجيه الأفراد ببعيدة عن الأذهان ، فقد مارستها بعض الدول الشيوعية ، ثم تراجعت عنها في خزي وفشل ذريعين »[(١)] .

ويمكن أن نلمس الإشارة إلى ذلك الدور التوجيهي للأسرة في حديث رسول الله ﷺ ، الذي يرويه عنه أبو هريرة ﷺ ، وهو : « **كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصّرانه أو يمجّسانه** »[(٢)] .

---

(١) المسجد وأثره في المجتمع الإسلامي ، د/علي عبد الحليم محمود (ص٢٢) ، دار المنار الحديثة ، القاهرة ، ط الرابعة (١٤١٢هـ / ١٩٩١م) .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه ، باب ما قيل في أولاد المشركين (جـ٢) (ص٩٧، ١٠٤) ، كتاب التفسير تفسير سورة الروم ،=

هذا ، والأسرة المسلمة يمكن أن تقوم بدور فعَّال في مواجهة الغزو الفكري ، وهذا الدور يمكن أن يتلخص في عنصرين أساسيين ، تتدرج تحتهما تفصيلات على النحو التالي :

الأول : التربية الإسلامية للفرد :

والتربية الإسلامية حينما تتحقق على أسس صالحة ، وتمارس بطرق صحيحة ، فإنها تكون أكبر تحصين للفرد ضد الغزو ، وتظل آثارها في حمايته منه ممتدة عبر مراحل العمر المتتالية .

والتربية الإسلامية التي نرجو أن تُسهم في مواجهة الغزو الفكري ؛ يجب أن تكون شاملة ، بحيث تراعي الجوانب الأساسية في بناء الفرد ، وعلى رأسها الجوانب الآتية :

أ ـ جانب العقيدة .

ب ـ جانب العبادة .

ج ـ جانب الأخلاق .

وإذا أردنا نموذجًا تربويًا يشمل هذه الجوانب الأساسية ، فإننا نجده متمثلًا في تربية لقمان [1] لولده ، كما حكى ذلك القرآن الكريم ؛ إذ يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ

= باب لا تبديل لخلق الله (جـ٦) (ص٢٠) ، ومسلم كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ، شرح النووي (جـ١٦) (ص٢٠٧ رقم ٢٦٥٨) ، وأبو داود ، كتاب السنة ، باب في ذراري المشركين (جـ٤) (ص٢٢٩ رقم ٤٧١٤) ، والترمذي كتاب القدر ، باب ما جاء كل مولود يولد على الفطرة (جـ٤) (ص٤٤٧ رقم ١٢٣٨) ، ومالك ، كتاب الجنائز ، باب جامع الجنائز ، (جـ١) (ص٢٣٩) ، وأحمد ، الفتح الرباني ، كتاب الفتن وعلامات الساعة ، باب كل مولود على الفطرة (جـ٢٤) (ص١٧٩) .

(١) هو لقمان بن باعورا ابن أخت أيوب أو ابن خالته ، وقيل : كان من أولاد آزر ، وعاش ألف سنة وأدرك داود ﷺ ، وأخذ منه العلم ، وكان يفتي قبل مبعث داود ﷺ ، =

قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٣ ـ ١٩].

ويصاحب تربيةَ الفرد على هذه الجوانب؛ تزويدهُ دائمًا بالمعارف الإسلامية، والثقافة التي تعطيه التصور الصحيح عن كل أساس منها، حتى لا يكونَ الأمر مجرد تقليد منه لمن يربيه، وإنما يكون لديه علم وعمل، وفهم وتطبيق، ثم يُزوَّد بما يناسبه من المعلومات والمعرفة عن تاريخ الإسلام، وخاصة سيرة الرسول ﷺ، وبهذا نسدّ الطريق على أجهزة الغزو الفكري التي تستغل نقص التربية الإسلامية أو انعدامها والجهل لدى الفرد المسلم، فتفسد حياته، وتملأ

= فلما بعث قطع الفتوى، فقيل له، فقال: ألا أكتفي إذا كفيت؟ وقيل: كان قاضيًا في بني إسرائيل، وأكثر الأقاويل أنه كان حكيمًا ولم يكن نبيًا، وعن ابن عباس: لقمان لم يكن نبيًا ولا ملكًا ولكن كان راعيًا أسود، فرزقه الله العتق ورضي قوله ووصيته، فقَصّ أمره في القرآن لتتمسكوا بوصيته.

وقال عكرمة والشعبي: كان نبيًا، وقيل: خُيِّر بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة، وعن ابن المسيب: كان أسود من سودان مصر خياطًا، وعن مجاهد: كان عبدًا أسود غليظ الشفتين متشقق القدمين وقيل: كان نجارًا، وقيل: كان راعيًا، وقيل: كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة، الكشاف (٣/ ٢٣٠)، الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٤١، ٤٢)، روح المعاني (٢١/ ٨٢ ـ ٨٤).

عقله بما تشاء من أباطيل .

« والمنزل الإسلامي يمكنه القيام بأدوار غاية في الأهمية شريطة :

١ـ أن يفهم كل من فيه الإسلام فهمًا قائمًا على التعمق ، خاليًا من البدع ، مدركًا للأهداف والمرامي .

٢ـ أن يكون كل فرد فيه قدوة للطفل في الكلمة والسلوك والمعاملة والعبادة ، والمظهر والجوهر ، والسر والعلن .

٣ـ أن يشيع فيه جو الروحانية الصافية التي يبدو فيها الارتباط بالله في أوضح صوره وأقوى مظاهره ، كالحرص على الصلاة جماعة ، والمشاركة في توزيع الزكاة ، واحترام القيم الدينية ، والتمسك بالفضيلة والأمانة ، والصدق والإخلاص .

٤ـ أن تقدم فيه المعلومات الدينية بالأسلوب لإدراك الأطفال ، الملائم لمستوى نموهم ، فتفسير القرآن الكريم ، وشرح سيرة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، والحديث عن صحابته والتابعين ، وتناول قصص الأئمة والقادة ينبغي أن يتناسب مع إدراك الأطفال ، ويثير اهتمامهم ويحرك مشاعرهم .

٥ـ أن تكون الدعوة فيه قائمة على الموعظة الحسنة ، والكلمة الطيبة ، والقدوة الصالحة ، من هنا قال رب العزة : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ [النحل:١٢٥] .

٦ـ أن تكون الأخلاق فيه إسلامية أصيلة دون تقليد أو ادعاء ، أو مظهرية أو تمثيل [١] .

---

(١) وسائل مقاومة الغزو الفكري (ص١٥٨ ــ ١٥٩) .

هذا ، والحديث عن منهج التربية الإسلامية ، ومسؤولية البيت المسلم فيها ، له تفاصيله ، ومجالاته ، التي لا يتسع المقام لذكرها ، ولذا أكتفي الآن بالإحالة إلى بعض الدراسات التي عُنِيت بهذا الموضوع (١) ، وما أريد التأكيد عليه هنا ؛ هو أن قيام الأسرة بتربية الفرد تربية إسلامية هو خير وسيلة لمواجهة الغزو الفكري المعادي .

الثاني : حماية الفرد من وسائل الغزو الفكري :

« والعنصر الثاني في دور الأسرة المسلمة في مواجهة الغزو ؛ هو أن تقوم بحماية الفرد المسلم من الوقوع تحت تأثير وسائل الغزو ، خاصة تلك التي تغلغلت في أكثر المجتمعات الإسلامية ، وصارت صوت إضلال ، وسوط عذاب » .

ومن أمثلة تلك الوسائل والروافد التي يجب على الأسرة أن تقي أبناءها غوائلها المحاضن أو المدارس الأجنبية ، أو التبشيرية ، حيث ينبغي أن تتنبه لأخطار تلك المدارس ، ودورها في خدمة الغزو ، فتقاطعها مقاطعة تامة ، ولا تسمح بأن يؤمها النشء بأي حال من الأحوال .

وقد جاء في توصيات المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي ، المنعقد في مكة المكرمة ، عام ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م ، بهذا الخصوص ما يلي :

ويوصي المؤتمر جميع المسلمين في البلاد الإسلامية ، بعدم إرسال أبنائهم

---

(١) منها على سبيل المثال : تربية الأولاد في الإسلام للدكتور عبد الله ناصح علوان رحمه الله ، مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة. إعداد : عدنان حسن صالح باحارث ، تربية الأولاد في ظل الإسلام ، د/ محمود محمد عمارة ، دار التراث العربي ، ط الثانية (١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م) دور البيت في تربية الطفل المسلم ، خالد أحمد الشنتوت .

وبناتهم إلى المدارس التبشيرية ، والأجنبية مهما كانت المغريات التي تقدمها تلك المدارس ومَن وراءَها من الهيئات والمؤسسات ، نظرًا للنتائج المدمرة التي تصيب الدارسين في هذه المدارس من ناحية عقيدتهم وولائهم للإسلام والوطن الإسلامي ، واتخاذ أعداء الإسلام لهم جنودًا يحاربون بهم الإسلام من داخل المجتمع الإسلامي ذاته [١] .

ومن تلك الوسائل التي يجب وقاية النشء منها أيضًا ؛ كثير من وسائل الإعلام المسخرة للغزو الفكري ، مثل التلفزيون ، وكثير من مجلات الأطفال ، حيث تتبنى تيارات فكرية ، وأنماطا ثقافية غير إسلامية ، وغيرها من الوسائل المسلطة لاختراق البيئات والمجتمعات الإسلامية ، حتى إن بعضها ـ مثل التليفزيون ـ أمسى يقتحم على الناس خلواتهم ، ويحِل زائرًا ثقيلًا ـ بلا استئذان ـ في مخادع الناس ومضاجعهم ، الأمر الذي يحتم على الأسرة المسلمة الحيلولة بين أولادها وبين ما ينفثه من سموم بشتى الأسباب .

فالأسرة المسلمة اليوم مدعوة إلى ترشيد التلفزيون في بيتها ؛ لأنه ـ كما لا يخفى ـ لا يناسب أبدًا أن يُتْرَكَ الأولاد فريسة له على الدوام ، يشاهدون ويتلقون أي شيء يقدمه ، فيجب إبعاد الطفل عما لا يتوافق مع الإسلام ـ وما أكثره ـ وانتقاء ما لا يتعارض معه ، ويسمح به فقط ، وينبغي للوالدين أن يكونا قدوة صالحة أمام الطفل في علاقتهما مع التلفزيون ، فلا يسمحان لنفسيهما إلا بمشاهدة ما لا يخالف الإسلام ، وإلا ستكون العواقب غير محمودة .

ويجب كذلك الحيلولة بين النشء وبين قراءة أو اقتناء أيّ من المجلات أو

---

(١) غزو في الصميم ، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (ص٢٣٥) .

الكتب التغريبية التي تعد من روافد الغزو الثقافي ، ويا حبذا لو حرص الوالدان على أن يتم هذا مع الطفل بالترغيب ، والأسلوب الحسن والحوار الهادئ ، لا سيما إذا كان في مرحلة الطفولة المتوسطة أو المتأخرة .

ومن الوسائل التي يجب حماية الطفل منها كذلك ؛ الخادمات والمربيات الأجنبيات غير المسلمات ، كما هو كائن من تواجدهن في كثير من أقطار الخليج وغيرها ، فتعمل الأسرة جاهدة على عدم إتاحة الفرصة لأن يتلقى الطفل أي فكر أو توجيه منهن ، وأولى من هذا عدم اجتلابهن أو إحضارهن من الأصل ، واستبدال مربيات مسلمات بهن ، إذا كان ثمة داع إلى هذا .

وهكذا تحرص الأسرة المسلمة ـ قدر استطاعتها ـ على وقاية الفرد من أي وسيلة من وسائل الغزو الفكري ، بالإضافة إلى تربيته وتنشئته على الإسلام ، فهذان أمران عظيمان جديران بأن يُسهما بحظ وافر في دحر الغزو الفكري ، ودرء أخطاره ، إذا أُخذا بعين الاعتبار .

*****

المبحث الثالث
دور الحكومات الإسلامية

إن الحكومات في البلاد الإسلامية يمكن أن تقوم بدور فعال في مواجهة الغزو الفكري حيث إنها تمتلك من الوسائل ما لا يملكه غيرها، وتقدر على فعل ما لا يفعله سواها من المؤسسات أو الأفراد، كالأسرة والعلماء وغيرهم، ومن هنا تنعقد عليها أكبر الآمال في الاضطلاع بالدور الأكبر.

وأما دور الحكومات في البلاد الإسلامية في المواجهة، فهو يتمثل في أن تقوم بتطبيق الشريعة الإسلامية في كل الميادين، وخاصة في نواحي التعليم والإعلام والثقافة، وأزيد الأمر إيضاحًا على النحو التالي:

الحاجة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية:

ولست هنا في معرض الحديث عن خصائص الشريعة الإسلامية، وحيثيات وجوب تطبيقها، وما يعود علينا من خير إذا طبقناها، ونحو هذه المباحث، فإن لها مناسبة غير هذه، بيد أنني أود الإشارة فقط إلى أن بعض المسلمين قد بعدوا عن تطبيق الشريعة دهرًا من الزمن، وفي تلك الفترة عمد بعض الحكام إلى استيراد مناهج وضعية وغربية تارة وشرقية أخرى، فما أغنت عنهم شيئًا، وما نفعت لا هنا ولا هناك ولا هنالك، بل تفاقمت الأمور، وتردت الأوضاع، وأسنت الحياة، وعاش الناس في شقاء، ولا غرو؛ فهذا قانون الله الذي عبَّر عنه قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾.

[طه:١٢٣، ١٢٤]

ثـم إننـا الآن نبحـث عـن عـلاج ومخـرج ، فهـلا عـدنا إلى شرع الله الـذي لا يصلحنا سواه ؟ والذي صرنا في أمس الحاجة إليه ، أو سـنظل نتخبط ونـشقى في دياجير المناهج الأرضية ؟

« إن أفضل أنوع العلاج هو ما جربه المريض ، فحسم داءه ، وعجل شفاءه ، والأحمق من الناس هو الذي يدع الدواء المجرب الموفور عنده ، ليبحث عن دواء جديد عند الأجانب عنه ، بل عند خصومه وألد أعداء دينه وأمته ، مع أن هذا الدواء الذي يلتمسه لا يشفي أصحابه ، ولم يهيئ لهم العافية ، ولم يزدهم إلا خبالًا »[١] .

ولقد طبق المسلمون الشريعة الإسلامية قرونًا طويلة ، فسعدوا وعزوا وسادوا ونالوا شرف الدارين ، ولن ينفعنا الاستشفاء من عللنا التي أصابتنا إلا بها .

و« لقد ذاق الغرب الويل على يدي الرأسمالية الفاجرة ، والماركسية الكافرة ، ومن المحال أن تفشل هذه المذاهب والأنظمة في بلادها ، وتفلح عندنا نحن ، وهي غريبة عنا كل الغربة : عن ديننا وقيمنا وشريعتنا وتراثنا وتاريخنا »[٢] .

« وربما كان لهذه المناهج الأجنبية مجالها حيث نبتت في عقول رجالها هناك ، لكنها تصبح هنا مشكلة تضاف إلى مشاكلنا .

ومثل ذلك ـ على حد تعبير بعض العلماء ـ كمثل رجل رأى شخصًا معلقًا في أعلى نخلة ، فنصح أهله بجذبه بحبل طويل يُسلَّم إليه طرفه ، فوقع على

---

(١) الحل الإسلامي فريضة وضرورة ، د/ يوسف القرضاوي (ص١٤٢، ١٤٣) ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط الثالثة (١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م) .
(٢) السابق (ص١٤٥) .

الأرض محطمًا ، أو كذلك الصقر الذي نجا من الطوفان ، واعتلى شجرة ، ثم أشفق على السمكة بين الأمواج الهائجة فأخرجها ، فماتت السمكة !!

إن الحبل لإنقاذ غريق من بين الأمواج .

لا لجذب متسلق نخلة .

والسمكة بعيدًا عن الماء لا تعيش .

وكذلك الصبي المسلم .

لا يصلح أمره إلا بما صلح به أمر إخوة له من قبل ، عاشوا على منهج الإسلام بين أسرة تلتزم به ، ومجتمع يسير على هداه ، فاستوى عوده في تربة صالحة مصلحة »[١] .

أسلمة التعليم والإعلام :

وامتداد لمبدأ وجوب تطبيق الشريعة ، فإنه يجب أسلمة التعليم والإعلام ، أي : أن يكون الإسلام أساسًا لنظم التربية والتعليم والإعلام والثقافة ، وأن تخضع هذه النظم للإسلام ومبادئه ، وتنبثق عنه ، وألا يسمح للمناهج أو الفلسفات الوافدة والمتعارضة مع الإسلام بأن تستمد منها نظم التعليم والإعلام ، وإلا فإن هذا يكون منافيًا لما نادي به من تطبيق الشريعة .

ولقد أصبح من المألوف أن نسمع من يستهجن الدعوة إلى أسلمة التعليم والإعلام ، ويستنكر إدخال الإسلام في مثل هذه المجالات ، ويقول بلسان الحال تارة ، أو المقال أخرى : ما دخل الإسلام بها ؟!

والواقع أن هذا الصنف وأمثاله ، يخادعون الأمة ويخدعون أنفسهم ؛ لأنهم

---

(١) تربية الأولاد في ظل الإسلام ، د/ محمود محمد محمد عمارة ، (ص١٨٣) .

يعرفـون أن أي أمـة أو جماعـة تحرص على أن تكـون ثقافتهـا وفكرهـا ونظمهـا التربوية والتعليمية ؛ نابعة من عقائدها وفلسفتها التي توارثتها عبر الأجيال ، وهذا الأمر نراه واضحًا في سياسة الـدول التعليميـة ، ويعترفـون بـه ويطبقونـه دون خجـل أو تـردد ، فلـماذا تكـون الدهـشة والاسـتنكار إذا دعـي إلى أسـلمة التعليم والإعلام في بلاد المسلمين ؟!

يقـول الـشيخ أبـو الحـسن النـدوي : لقـد أصـبح مـن المقـرر في كـل بلـدٍ واعٍ حـريص عـلى سـلامته وشخـصيته أن المعرفـة ليـست إلا جهـازًا يغـرز المعـاني والأسس التي يؤمن بها هذا الشعب ودرجت عليها أجياله ويعيش بها وفيهـا ، في التاريخ الماضي وفي العالم المعاصر ، فمن أول واجبات نظـام التربيـة في جميـع البلاد المتمدنة الواعية أن يغرز هذه العقائد والحقائق في قلوب الناشئة ويغـذيها حتى يؤمن بها كحقائق علمية ، ويتحمس في سبيل الدعوة إليها والمثابرة عليهـا ، وقد أصبح من المقرر عند أساطين التعليم [١] الحديث في الغرب أن كل شـعب من شعوب العـالم إنـما يـصوغ نظامـه التعليمـي وفـق نظريـة الحيـاة التـي يـؤمن بها » [٢] .

« يقول « جون ديوي » [٣] الذي كان تأثيره في نظام التربيـة الأمريكـي أكـبر

(١) أساطين العلم والأدب : الثقات المبرَّزون فيه ، وهم أساطين الزمان : حكماؤه وأفراده ، مفرده أُسْطُون ، معرب « أُسْتُون » الفارسية ، المعجم الوسيط ١/ ١٨ .

(٢) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ، ص١٧٤، ١٧٥.

(٣) جون ديوي (١٨٥٩ ـ ١٩٥٢) فيلسوف ومرب أمريكي ، تولى التـدريس في جامعـات عديدة بأمريكا وغيرها ، برز في الحياة الاجتماعية والـسياسية ، ودافـع عـن الاشـتراكية الديمقراطيـة ، في رحـلات عديـدة إلى الـصين وروسـيا واليابـان وتـرجم أكثـر كتبـه إلى العربية ، زار المدارس الاشتراكية التركية ، ووضع مشروعًا لإصلاحها ، تأثر بآراء ولـيم جيمس ومذهب دارون الطبيعي ، اشتهر في الولايات المتحدة وفي العالم بأنـه فيلـسوف=

من تأثير كل رجل في هذا العصر ، في كتابه « الديمقراطية والمعارف » : إن الأمة إنما تعيش بالتجديد وإن عمل التجديد يقوم على تعليم الصغار ، إن هذه الأمة بطرق متنوعة تكون من الأفراد الأميين ورثة صالحين لوسائلها ونظرية حياتها وتصوغهم في قوالب عقائدها ، ومناهج حياتها »[١] .

و« إن أهم ما يسترعي الأنظار في المدارس الإسرائيلية في فلسطين ، أن لغة الدراسة في كافة المواد هي العبرية ، فيما عدا اللغات الإنكليزية والفرنسية والعربية ، والعناية شديدة في جميع مراحل التعليم بالدراسة الدينية ، وجعل التعليم الديني أساس الصهيونية وتقدمها »[٢] .

وجاء في مقال « التعليم العالي في إسرائيل » في مجلة فلسطين مقتبسًا من الدراسة التي قدمتها دائرة البحوث والدراسات في الهيئة العربية العليا لفلسطين ما يلي :

« إن سياسة التعليم العالي تهدف إلى تنمية العقيدة اليهودية والولاء لها بالإضافة إلى الدعاية لإسرائيل وكسب الأصدقاء » .

وفي المقال المشار إليه تفاصيل هائلة عن العناية باللغة العبرية ، وجامعتها وميزانيتها وتمويلها ، وما يبذل لها اليهود من عناية فائقة ، وأموال طائلة

= الديمقراطية ، وأكبر المربين في النصف الأول من القرن العشرين ، وتوجه إلى آرائه اليوم انتقادات شديدة تتهمها بالمبالغة في الحرية حتى الفوضى ، وبإهمال الثقافة العملية والقيم الروحية ، الموسوعة العربية الميسرة (١ / ٨٤١ ـ ٨٤٢) بتصرف واختصار .

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ، ص ١٧٥.

(٢) غزو في الصميم (ص٢٠) نقلًا عن « التربية في الشرق العربي » ، تأليف د/ رودرك ماثيلور ، د/ متى عقراوي .

وتنظيمات دقيقة [١] .

« حتى اليابان البوذية والهند البرهمية ، قد ألحَّت كل منهما على أن يكون التعليم في بلادها مصطبغًا بالصبغة الحضرية الخاصة بأمتها ، وملتزمًا بفلسفتها العريقة في القدم ، وخاضعًا للأسس الفكرية والجذور العميقة التي تؤمن بها وتعض عليها بالنواجذ » [٢] .

وفي بلاد ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي ومعظم الدول الاشتراكية تدرس الفلسفة الماركسية كجزء أساسي من مقررات النظام التعليمي ، ثم هي داخلة في كل مادة تدرس ، فهم يدرسون العالم كله من واقع هذه الفلسفة ونظرياتها ، فإذا أخذنا مثلًا مادة التاريخ ، فهم يدرسون تاريخ أفريقيا على أساس ربطه بصراع الأفارقة الطويل مع الاستعمار ، كما يدرسون تاريخ أمريكا من واقع استعماريتها ، وقضائها على الهنود ، ويركزون في دراسة التاريخ على ما يقوي تفسيرهم المادي له ، فتاريخ العالم القديم ما هو إلا تاريخ سيادة العبودية والرق للشعوب ، وتاريخ العصور الوسطى هو تاريخ الإقطاع ، وذلك كله بهدف التعميق في نفوس الطلاب أن المجتمع الاشتراكي الذي يطالَبون ببنائه هو نتيجة الحركة الحتمية للتاريخ ، أو ثمرة الحركة العلمية للتاريخ ، للوصول في النهاية إلى الاشتراكية ثم الشيوعية ، فالاشتراكية تُدرّس بطرق مباشرة وغير مباشرة ، ويعلن عنها كشعارات للدولة والشباب ، وتستعمل لذلك الوسائل السمعية والبصرية [٣] .

---

(١) السابق ،ص٢٠ .

(٢) السابق (ص٢١) .

(٣) أصول الفكر التربوي في الإسلام ، د/ عباس محجوب (ص١٨٧) بتصرف يسير .

ومثل هذه المواقف والسياسات لتلك الدول ونحوها نشاهدها في مجال الإعلام والثقافة والفكر أيضًا ، ودلائلها لا تخفى .

« ومن المآسي التي تحير العقل وتجرح القلب ، أن تظل الأقطار الإسلامية وحدها في فوضى تعليمية ، وغموض والتباس ، بل في تناقض ومصارعة بين العقائد والحقائق التي تؤمن بها ، والغايات والأهداف التي خلقت لأجلها ، والرسالة والدعوة التي تحتضنها وبين نظام التربية الذي تطبقه والنظريات التي تستوردها ، والأساتذة الذين لا يؤمنون بها ، وعلى الأقل لا ينشطون في تدعيمها وتنميتها ، ولا تفكر في التطبيق بين العقيدة التي تتمسك بها ، وبين التعليم الذي تنفق عليه أكبر جزء من إمكاناتها ووسائلها »[(١)] .

ولقد كان من توصيات المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي بهذا الخصوص ما يلي :

وإن كل نظام تعليمي يحمل في طياته فلسفة معينة من تصور معين .

ولا يمكن فصل أي نظام تعليمي عن فلسفته المصاحبة له ، ومن ثم فإنه لا يجوز أن تتخذ فلسفة أو سياسة تعليمية وتربوية مبنية على تصور مغاير للتصور الإسلامي ، وهو ما يحدث الآن حين الأخذ بالنظم غير الإسلامية ؛ لأنها في النهاية تصادم التصور الإسلامي وتناقضه ، وفي الوقت ذاته ، فإن للإسلام تصورًا عامًا شاملًا تنبثق منه فلسفة تعليمية وتربوية قائمة بذاتها ومتميزة عن غيره .

لذا فإن نظام التعليم الإسلامي يجب أن يقوم على أساس هذا التصور

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية (ص١٧٧) .

الخاص المتميز .

أما الوسائل فلا ضير من الاستفادة منها في التجارب البشرية الناجحة ما دامت لا تصادم هذا التصور ولا تناقضه .

يوصي المؤتمر جميع الدول الإسلامية بضرورة تحكيم شريعة الله في بلادها ، وإقامة حياتها على أساس من القيم والمبادئ الإسلامية ، وتوجيه وسائل إعلامها بصفة خاصة الذي يضمن توكيد هذه القيم والمبادئ ؛ إذ إن هذا هو الطريق الوحيد الذي يجعل التربية تحقق أهدافها المرجوة [١] .

من أجل خطوة إلى الأمام نحو أسلمة التعليم والإعلام :

ويجب على الحكومات الإسلامية أن تخطو خطوات عملية نحو تطبيق الشريعة الإسلامية في كل المجالات عامة ، وفي مجالات التربية والتعليم والإعلام على وجه الخصوص .

وإن ما يجب أن يتم عمله بهذا الشأن ؛ هو إزالة الواقع المخالف للإسلام في هذه المجالات وهدمه ، ثم إحلال المناهج الإسلامية محله ، والاعتماد على التصور الإسلامي المتميز ، وأما في بعض تفاصيله ، فهناك أمور كثيرة أشير إلى بعضها على النحو التالي :

أ ـ في مجال التربية والتعليم :

* « ضرورة تبني فلسفة تربوية إسلامية من المربين المسلمين ووزارات التربية والتعليم في البلاد العربية يصدرون عنها في تطبيقاتهم العملية في المؤسسات التربوية في جميع المراحل التعليمية ، وتنبثق منها أهداف مرحلية وفرعية للتربية والتعليم الرسمي وغير الرسمي ، المدرسي والجامعي ، وتبني

---

(١) غزو في الصميم ، (ص٢٢٦ ، ٢٢٧) .

عليها عملية تطوير شاملة للمناهج التعليمية منبثقة من تراثنا الإسلامي ومسايرة لتطور العصر ومنهجه العلمي »[1] .

* « ويجب أن توضع للبلاد الإسلامية خطة لنظام ثقافي إسلامي ، يبني على الأسس التالية :

١ـ وضع نظام ثقافي إسلامي موحد ، غير مزدوج الروح والمصدر ، بحيث ينشئ عقلية واحدة لكل أبناء الأمة ، هي العقلية الإسلامية ، فلا ينقسم أبناء المجتمع المسلم بين تعليم قديم وتعليم حديث ، بين تعليم ديني وتعليم مدني ، وإنما هناك تعليم واحد هو التعليم الإسلامي .

٢ـ صبغ التعليم في جميع درجاته وأنواعه بالصبغة الإسلامية ، أي : أن يكون الجو العام للثقافة والتعليم هو جو العقيدة الإسلامية والمفاهيم الإسلامية .

٣ـ إحداث وعي إسلامي عام ، بحيث يكون هذا الوعي ـ العقلي والنفسي ـ وعيًا لمبادئ الإسلام وتعاليمه ، وقضايا الإسلام الكبرى في العصر الحاضر ، ووعيًا لوحدة العالم ومصادر قوته ، وما يجابهه من أخطار .

٤ـ الوقوف أمام الأنظمة الثقافية الأخرى التي غزت العالم الإسلامي من ليبرالية ديمقراطية ، ومن اشتراكية ماركسية شرقية .

٥ـ وصل ما بين الدين والحياة بعرض المشكلات الحاضرة ـ على اختلاف أنواعها ـ على أساس الإسلام ونظرته ، وسد حاجات المجتمع عن طريق التعليم بمختلف تخصصاته ودرجاته .

٦ـ اختيار الطرق والأساليب الصالحة المناسبة لتعليم الدين وإدخاله في النفوس ،

---

(١) التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة ، د/ إسحق فرحان ، (ص٩٩) .

فيراعى في ذلك السن والمستوى العقلي مع العناية بالأصول والمبادئ وتقديم القضايا الهامة ، والعودة إلى القرآن والسنة ، ووصل ما بينهما وبين الآراء الفقهية »[١] .

* يجب أن تكون البيئة التعليمية ، وخاصة الجو المدرسي ، إسلامية ، ينعكس فيها التطبيق العملي التربوي للإسلام فيمنع مثل الاختلاط بين البنين والبنات ، في المدارس أو الرحلات أو المعسكرات ، أو السكن ، ونحو ذلك ، ومثل ظاهرة التبرج سواء أكان من الطالبات أم المعلمات ، كما يجب الحرص على أداء الصلاة أثناء اليوم الدراسي ، فيراعى هذا في سير الحصص الدراسية ، وهكذا[٢] .

---

(١) الحل الإسلامي فريضة وضرورة ، د/ يوسف القرضاوي (ص٤٥، ٤٦) ، نقلًا عن المفكر الإسلامي المعاصر محمد المبارك ، (ص١٣١) ، وما بعدها .

(٢) ذكر الأستاذ محمد الغزالي أن الدكتور « حلمي مراد » وزير التعليم الأسبق ألف لجنة لدعم النواحي الدينية في التعليم العام ، وإصلاح مقرراته بما يعين على إنشاء جيل مسلم ، وأن اللجنة المؤلفة انقسمت إلى لجان شتى ، وكان منها لجنة معنية « بالجو الذي يسود المدرسة » ولقد خرجت بتوصيات ومقررات على قدر كبير من الأهمية ، رأيت أن من المصلحة ذكرها هنا ، نقلًا عن فضيلته في كتابه « قذائف الحق » (ص٢٢٦ ـــ ٢٣٠) ، منشورات دار ذات السلاسل ، ط الثالثة (١٩٧٧) ، وذلك فيما يلي :

قالت اللجنة : « لا نستطيع أن نربي الطالب تربية دينية كاملة إلا إذا هيأنا له جوًا روحيًا في مدرسته وفي بيته ؛ ليكون هذا المناخ الديني من وسائل التعلق بهذه القيم والانتفاع بها ، وبهذا تتلاقى المعارف الدينية التي تلقاها من مدرسه ، ومن كتابه بالجو المصبوغ بالصبغة الدينية النقية فتتحول المعرفة النظرية إلى سلوك ديني ، كما تتحول البذور في الجو الملائم إلى زهور وثمر .

وبذلك يمكن تثبيت العقائد وإلف العبادات وتزكية الأخلاق وتكوين جيل نزاع إلى الحق والخير متعاون على البر والتقوى .

ويتهيأ هذا الجو الديني المدرسي المنشود بما يأتي :

(١) يبدأ اليوم الدراسي بتلاوة من آيات الذكر الحكيم مجودة أو مرتلة لتشيع في الجو المدرسي أنسام الطهر الروحي .

=

= (٢) تدور كلمة الصباح بالإذاعة بين ثلاث دقائق وخمس دقائق ، حول ما سمعه التلاميذ من الآيات المقروءة ، وما تفرضه المناسبات الدينية ، وما ترشد إليه من فضائل سامية ، في كلمات موجزة موحية .

(٣) أن تكون دروس التربية الدينية في الحصص الثلاث الأولى ؛ ليشعر الطلاب بما للدين من قيمة عليا بين المواد الدراسية ، وليكون التلميذ في ذروة النشاط الفكري ، فيعي ما يسمع ، ويقر في نفسه .

(٤) أن تذاع الأناشيد الدينية أو قصة دينية قصيرة في الفسحة الأولى من اليوم الدراسي .

(٥) أن ينظم الجدول المدرسي فيتلاقى ابتداء فسحة الظهيرة مع حلول وقت الظهر ، وينادى للصلاة ، ثم يدعى إليها بكلمات تحمس الطلاب لأداء الفريضة .

(٦) أن يخرج مدرسو اللغة العربية والتربية الدينية ومعهم إدارة المدرسة ومن شاء من المدرسين الآخرين أمام التلاميذ ، ثم يتجهوا إلى المصلى ليكون هذا العمل الجماعي إشعارًا ملموسًا بإقامة الشعيرة في وقتها .

(٧) أن يكون لكل مدرسة مجموعة من الرواد الدينيين يتناسب مع عدد الفصول والطلاب ، وهم الراعون لتلاميذهم يوجهونهم إلى مرشدهم ويؤمونهم في صلاتهم ، وينظمون إقامة الشعيرة بجدول مخطط له حتى يؤدى الصلاة أكبر عدد من الطلاب ، وعليهم أيضًا أن يعدوا تقريرًا شهريًا عن سلوك كل تلميذ من تلاميذهم ، ويرسل التقرير إلى ولي أمره ليحس البيت برعاية المدرسة للدين فيعينها عليها .

(٨) أن يُخصَّص يومان في الأسبوع من فسحة الظهر تدور فيها مناقشات دينية مطبوعة متصلة بحياة التلاميذ ولا تستغرق من وقت الفسحة زمنًا طويلًا حتى لا يضيق التلاميذ بها . وفى الأيام الأخرى تذاع مسرحيات دينية قصيرة تتصل بمنهجهم الدراسي ما أمكن ذلك .

(٩) أن تتجدد جماعات النشاط الديني فتكون هناك جماعة للمسرح الإسلامي وغيرها للصحافة الإسلامية وأخرى للتاريخ الإسلامي . . بجانب الجماعات التقليدية كجماعة البر والإمامة وغيرهما .

(١٠) أن يكون العاملون في الميدان المدرسي قدوة حسنة تتسم بالإيمان والسلوك الحميد الذي ينعكس على تلاميذهم إيمانًا وإخلاصًا وسلوكًا قويمًا .

(١١) أن نجعل من بعض أيام الجمعة فرصة لالتقاء التلاميذ بأساتذتهم وأولياء أمورهم في مصلى المدرسة ، حيث تلقى عليهم دروس دينية حية تناقش أفكارهم على سعة ، لنتيح اشتراك أولياء الأمور في هذه المناقشة ، مما يساعد على نقاء الجو المنزلي ، ويوثق الروابط بين البيت والمدرسة . =

= (١٢) أن تدور أسئلة التطبيق الديني الأسبوعي والاختبارات الشهرية والفترية حول الموضوعات التي تثار في الندوات واللقاءات الدينية لنشد انتباه التلاميذ إليها .

(١٣) محاسبة المدرسين الذين يستهينون بدروس التربية الدينية فيستبدلون بها حصص المواد الأخرى .

(١٤) تقسيم طلاب المدرسة إلى أسر إسلامية ، وتسمى كل أسرة باسم شخصية إسلامية كبرى ، على أن يكون تلاميذ كل أسرة على علم وثيق بمن انتمت إليه أسرتهم ، على أن تتبادل هذه الأسر المناشط الدينية ، وتثار بينهم المنافسات الكريمة في الجهاد الديني ، على أن يدعى أولياء الأمور لاجتماعات شهرية لهذه الأسر ؛ ليسهموا بجهودهم في هذا المجال .

(١٥) استخدام القيادات المؤمنة من الطلاب في جذب زملائهم إلى الإطار الذي ترسمه المدرسة ليتحرك بنوها في حدوده ، فإن تأثير الطالب على زملائه أعمق من تأثير الأساتذة عليه .

(١٦) وضع صندوق في فناء المدرسة تجمع فيه التساؤلات الحرة للطلاب للرد عليها من جماعة الفتوى بالمدرسة .

(١٧) أن يعنى بالاحتفال بالمناسبات الدينية احتفالًا مخططًا له ، لتكون صورة متكاملة تطبع في نفوس الطلاب الإجلال لهذه المناسبة ، ويجعل الهدف من إحيائها ربط الطلاب بشعائر الإسلام ومبادئه ، فينبني الاحتفال على أن تعرض مكتبة المدرسة في ركن خاص كل ما لديها من تواليف دينية أعدت لهذه المناسبة الإسلامية ، كما تقوم بندوات وأناشيد دينية ومسرحيات وأشرطة إسلامية .

(١٨) أن تزين جدران المصلى والمدرسة بلافتات تجذب الأنظار بجمال إخراجها وحسن اختيار ما يسطر عليها من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والحكم البالغة والعظات الدينية الموجهة .

(١٩) الاهتمام باختيار شعار للمدرسة من الآيات والأحاديث ، ويدرس الطلاب والطوالب بشتى الوسائل على الالتزام بما في هذه الشعارات من قيم ومفاهيم ، ويمكن أن يختار لمدارس البنات الشعار الذي يدعو إلى البعد عن التبرج والتمسك بآداب الفضيلة والاحتشام في الملبس والمظهر .

(٢٠) أن يكون للتربية الدينية ركن في المكتبة العامة وفى مكتبات الفصول ، ويزود هذا الركن بخير ما تخرجه المطابع من الكتب الدينية الحديثة التي تربط بين الدين والحياة وبين الدين والعلم ، وتناسب كل مرحلة من المراحل الدراسية . =

= (٢١) أن يكون للمصحف الشريف مكان الصدارة في المكتبة العامة ومكتبات الفصول ومكتبة المصلى .

(٢٢) العناية بالوسائل المعنية التي تساعد التلاميذ على فهم أبواب المنهج الديني ، وتشوقهم إليه ، وتؤكد مفاهيمه في نفوسهم ، على أن يشترك الطلاب في إعدادها .

(٢٣) أن يكون بيد الطلاب فيما يقرر لهم من الكتب كتاب ذو موضوع واحد ، يصور بعض البطولات الإسلامية والمعارك الإسلامية وأمجاد الإسلام العسكرية والعلمية ، لتكون مثلًا عليا أمام الطلاب .

(٢٤) ينتفع بمجلس الآباء في دراسة ، وإنقاذ كل ما يجد من مشكلات في سلوك الطلاب وعلاقتهم بالمدرسة وتصرفاتهم الخارجية .

(٢٥) أن يحرص الزائرون الرسميون للمدرسة على الصلاة أمام التلاميذ ومعهم ؛ ليترجموا عن العناية والاهتمام بأمر الدين ، فتنصرف هذه العناية إلى التلاميذ .

(٢٦) أن نستعين ببعض أولياء الأمور وغيرهم من المثقفين ثقافة دينية واعية ، في إلقاء بعض المحاضرات أو الدروس الدينية ، ليكونوا من أدوات التأثير وعوامل الاستجابة من الطلاب ، مع الاهتمام بما يدور بين الطلبة من تيارات ونزعات قد تنحرف بالعقيدة والوجدان الديني .

(٢٧) التزام الحشمة والوقار في الزى بمدارس البنات بين المدرسات والطالبات .

(٢٨) أن تعد المدرسة معرضًا دينيًا ينظم كل ما أنتجه الطلاب من وسائل تعليمية دينية ، كصور المصلحين الإسلاميين ومناسك الحج والمعارك والغزوات ، مع بعض البحوث الدينية التي أعدها الطلاب بإشراف رائدهم ، وفى هذا تجسيد للقيم الروحية التي ننشدها لإعداد الجيل الجديد .

(٢٩) إذا أمكن وصل النشاط الطلابي بالجماعات الإسلامية القائمة في البلاد كان ذلك حسنًا على أن يتم تحت إشراف المدرسة .

(٣٠) يوضع اليوم الدراسي في إطار يحدد أوله ونهايته تحديدًا متصلًا بالدين ، فلا يدخل التلاميذ فصولهم فرادى ، ولا ينصرفون منها فرادى ، ولكن يجمعون في صفوف قبل الدراسة والانصراف ليرددوا أناشيد دينية وقومية ذات معنى روحي وخلقي .

(٣١) أن تقوم المدرسة ببعض الرحلات الدينية التي يزور فيها الطلاب المساجد الكبرى والمتاحف الإسلامية والآثار والمعالم الدينية والتاريخية والمناطق السياحية الدينية ، مما يوحى إليهم بأصالة ماضيهم الإسلامي وحضارتهم المجيدة التي كانت مصدر إشعاع للعالم . =

* ومن الأمور الجديرة بالاهتمام : أن يُعَدّ المعلم والمربي إعداد إسلاميًا ، مع ضرورة إبعاد من له توجُّه غير إسلامي ، أو صلة بالفكر المعادي ، أو من يتبع تيارًا معاديًا كالشيوعية ونحوها عن مراكز التوجيه والتربية والتعليم ، وكذلك غير الملتزمين إسلاميًّا ، وألا يتولى مثل هذه المراكز إلا الصالحون الملتزمون كي

= (٣٢) أن يكون في كل مركز صيفي للخدمة الاجتماعية بالمدارس وكذلك بالمصايف والمعسكرات مثقف ديني يشرف على سلوك الطلاب ويزودهم بما يقوم سلوكهم ويهذب أخلاقهم كما نرجو أن يعنى المركز أو المصيف أو المعسكر بعرض المناشط الدينية المحببة كالأناشيد والقصص والمسرحيات والأنشطة الإسلامية .

(٣٣) تفتح أبواب بعض المدارس في كل حي من الأحياء في جميع المدن بجمهورية مصر العربية تحت إشراف مسئولين ، وذلك لتحفيظ القرآن الكريم في مدة العطلة الصيفية ، وأن تخصص مكافآت مغرية لمن يحفظ جزءًا من القرآن ، وكلما زاد عدد الأجزاء من القرآن زادت المكافآت والحوافز .

(٣٤) خلق الحوافز بين الطلاب المتميزين دينيًا من مثل إعفائهم من بعض الرسوم المدرسية أو رسوم الرحلات أو غير ذلك .

(٣٥) أن ترصد نسبة مجزية من حصيلة مجلس الآباء لتأثيث المصلى ، وإثابة المجيدين والمسابقات الدينية وإعانة المحتاجين من الطلاب .

(٣٦) أن ترصد نسبة مجزية من المناطق التعليمية مكافآت مالية سخية للطالب المثالي في السلوك الديني القويم ليحفز ذلك غيرهم إلى أن ينهجوا نهجهم ويسلكوا سلوكهم .

(٣٧) إعداد لوحات شرف للممتازين في تحصيلهم الديني وسلوكهم المستقيم ولمن يقوم بأعمال في البر تستلزم التنويه بها والإشادة بمن قاموا عليها .

(٣٨) إعداد شهادات تقديرية للطالبة أو الطالب الذي يمتاز بالتحصيل الديني ويسهم في أنشطته ويتمسك بحبل الفضائل على أن ترسل هذه الشهادات إلى ذويهم لتبعث فيهم الحماسة للتربية الدينية في المنزل ، وليحرص البيت على النماء الروحي لهؤلاء الأبناء .

وبعد :

(٣٩) كل ما قدمناه إنما يدعم بالأجهزة الإعلامية الطاهرة النقية ، أما إذا بقى الحال على ما هو عليه في الصحافة والإذاعة والتليفزيون وغيرها من وسائل الإعلام فالجهد ضائع ؛ لأن ما نبنى هنا تهدمه هذه الوسائل هناك ، والله ولى التوفيق .

يكونوا قدوة صالحة أمام المتعلمين وغيرهم .

* ثم إن هناك أمرًا خطيرًا ، وهو من مسؤولية الحكومات بالدرجة الأولى ، ألا وهو عدم السماح بإنشاء أي مدارس تبشيرية ، أو أجنبية ، تتبنى فلسفة تعليمية غير إسلامية ، والعمل بجدية على إلغاء ما هو قائم من تلك المدارس في أيّ بقعة من بقاع العالم الإسلامي ، وكذلك الأمر بالنسبة للجامعات الأجنبية المنتشرة في كثير من عواصم العالم الإسلامي ، وفي مقابل ذلك ؛ يجب العمل على تشييد دور العلم ، ومحاضن التربية في الأماكن الفقيرة التي لا تستطيع ذلك لقطع الطريق على حركات التنصير وغيرها من مصادر الغزو الفكري ، والتي تستغل هذه الثغرة .

* وهناك جانب مهم في قضية أسلمة التعليم ، يتعلق بالابتعاث إلى الخارج ، وهو ضرورة الاهتمام بأمر المبتعثين للدراسة في الخارج ، فلا نرسل إلا لتعليم التخصصات التي نحتاج إليها ، ونشكو نقصًا فيها ، مثل العلوم الكونية كالهندسة والذرة والكيمياء ونحوها ، أما المجالات التي يمكن أن يحصلها أبناؤنا في بلادنا ، ولما صفة الخصوصية الحضارية ، التي تتميز بها أمة عن أخرى مثل اللغة العربية وعلومها ، والدراسات الإسلامية ، وعلم النفس ونحوها ، فيجب عدم الابتعاث فيها .

ثم يجب إجراء عملية تحصين للمبتعث قبل سفره ، فيخضع ـ مثلًا ـ لدورة دراسية مدة من الزمن ، يتزود من خلالها بقدر مناسب من الثقافة الإسلامية ، وخاصة ما يتصل بالعقيدة ومبادئ الإسلام وآدابه ، وتاريخه وغيرها ، لنرقى به إلى الحد الذي يعصمه ـ بإذن الله ـ من الانزلاق الفكري أو السلوكي ، وبعد ذهابه إلى البلد المبْتَعَثِ إليه ، تكون المتابعة من جانب الدولة ، للاطمئنان على أنه ماضٍ في الطريق المستقيم ، وفي مأمن من الزلل والشطط ، حتى تنتهي فترة

ابتعاثه ومن معه بسلام ، ويعودوا كما هم مسلمين قلبًا وقالبًا ، فإذا ما وضعوا في مركز توجيه أو تعليم وتربية ، لا يُخشى من تشبعهم بفكر معادٍ يشكل خطورة على الناشئة ، أما أن نترك المبتعثين نهبًا لوسائل الغزو في الداخل والخارج ، فيعودوا بوجوه مسلمة ، وقلوب غير مسلمة ، وعقول متغربة ، ثم نضع بين أيديهم أبناءنا ، فإن هذا شرٌّ مستطير ، وضرر خطير .

* ومن الخطوات المهمة على طريق أسلمة التعليم ضرورة اهتمام الحكومات في البلاد الإسلامية بأمر مكاتب تحفيظ القرآن الكريم ، وما يلحق بها أو ينحو نحوها ، مثل جمعيات المحافظة على القرآن الكريم ، والعناية بها ماديًّا وأدبيًّا ومعنويًا ، حتى تُخَرِّج الطفل المسلم الحافظ لكتاب الله ، المنشأ في رحابه منذ نعومة أظافره ، ولا ريب في أن لتلك المكاتب رسالة عظيمة في تحفيظ الأجيال الناشئة كتاب الله ، وتعليمهم اللغة العربية ، وتعويد ألسنتهم عليها من خلال قراءة القرآن واستظهاره ، بالإضافة إلى تهيئة الأجواء الصالحة لتربيتهم على الإسلام ومبادئه ، وتشبعهم بفكره وثقافته .

* ويضاف إلى ما سبق وجوب الاهتمام باللغة العربية في كل مراحل التعليم ، وأن يُعتنى بها ماديًّا ومعنويًّا ، وضرورة تدريس كل العلوم بها ، والعمل على تعريب مثل علوم الطب والكيمياء والهندسة وغيرها ، وألا يسمح لأي لغة أجنبية بأن تزاحمها .

هذا ، وإن هناك محاولة خطيرة للالتفاف على قضية أسلمة التعليم ، وتمييعها وتفريغها من مضمونها ، ترمي إلى الإبقاء على الواقع التعليميِّ والتربويِّ المخالف للإسلام ، مع محاولة ترقيعه أو تزيين أو تغطية وجهه القبيح ، بدعوى أن تطبيق الشريعة في التعليم ، أو أسلمته يكفي فيها تدريس الدين كمادة

منعزلة عن باقي المقررات التعليمية ، وهذه مغالطة كبيرة ، وخداع مكشوف ، « فإن تلك المحاولات التي ترمي إلى ترقيع التعليم المدني الوافد القائم الآن بإدخال ما يسمى الدين ، إنما هو عمل ناقص ، ومحاولة باطلة لإطالة أمد المنهج الوضعي الاستعماري ، إن الإسلام ليس مادة الدين التي تدرس فيها بعض آيات وأحاديث وصلوات ، إن الإسلام هو مادة كل المناهج والعلوم والدراسات : اللغة العربية وعلم النفس والأخلاق والاجتماع والسياسة والاقتصاد والقانون ، وهو روح كل الدراسات في المدارس الأولية والوسطى والإعدادية والثانوية جميعًا »[1] .

ب ـ في مجال الإعلام :

« وقد يتصور البعض أن الإعلام الإسلاميَّ هو الإعلام الديني ـ بالمفهوم المعاصر ـ وهذا خطأ في التصور ، فالإعلام الإسلاميُّ هو كل مادة إعلامية لا تخالف الإسلام في شيء من معتقداته وتصوراته وأحكامه ، فالفيلم السينمائي أو التمثيلية التلفزيونية ، أو البرنامج الإذاعي ، أو المقال الصحفي ... أو غيرها من وسائل الإعلام إذا قدمت مادة إعلامية مفيدة لا تخالف الإسلام في شيء فهي مادة تصب في الإعلام الإسلامي .

ولا يعتقد البعض أن المقصود بالإعلام الإسلامي هو أن تبقي الإذاعة تذيع تلاوة القرآن الكريم منذ افتتاحها وحتى توقفها ، أو تسطر الصحف بالمواعظ الدينية والأحكام الشرعية ، فهذه الأمور وإن كانت من الإعلام الإسلامي ، إلا أن الإعلام الإسلامي يقدم مواد إعلامية مختلفة ، لكنها لا تخالف القرآن أو المواعظ الدينية أو الأحكام الشرعية في شيء »[2] .

---

(١) من التبعية إلى الأصالة (ص١٢٢) .

(٢) الإعلام والتيارات الفكرية المعاصرة (ص١١٣، ١١٤) .

ولا شك أن هناك أمورًا تتعلق بأسلمة الإعلام يعجز عن القيام بها الأفراد أو هي بيد الحكومات بالدرجة الأولى ، وذلك مثل التصدي للبث الفضائي الخارجي ، ومنعه أو عرقلة وصوله إلى البلاد الإسلامية ، بوسائل كثيرة يعلمها أهل الاختصاص في مجال الاتصالات ونحوها ، مثل التشويش على ذلك البث بأجهزة معينة ، أو تقوية الإرسال التلفزيوني المحلي ، أو زيادة فترات الإرسال بطريقة مدروسة منظمة ، ومنع الأفراد من اقتناء الأجهزة التي تساعد على التقاط البث الخارجي الأجنبي ، بل عدم السماح بإدخالها إلى البلاد الإسلامية أصلًا .

وهناك وسائل إعلامية أخرى معادية للإسلام ، يجب منعها من دخول البلاد الإسلامية ، وسنُّ القوانين الصارمة لمعاقبة من يعمل على إدخالها أو الترويج لها في المجتمعات المسلمة .

وقد جاء في توصيات المؤتمر الأول للإعلام الإسلامي بأندونيسيا ، عام ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ما يلي :

« يناشد المؤتمر البلدان والمنظمات الإسلامية منع دخول أو طبع الصحف والنشرات التي تعادي الفكر الإسلامي ، أو تؤثر في عقيدة الشاب المسلم ، وكذلك حجب الإعلانات والدعم التجاري عن وسائل الإعلام المعادية للإسلام »[1] .

وفيما يتعلق بالمضمون الأجنبي المخالف للإسلام ، والذي تغصُّ به وسائل الإعلام الرسمية وغيرها فإنه يجب على الحكومات الإسلامية أن تعمل على وقف استيراد مثل هذا المضمون ، ومنع عرضه ، ثم التخلص بأي شكل مما هو

---

(١) المسؤولية الإعلامية في الإسلام (ص٣٥٥١) .

موجود بالفعل ، والعمل على تشجيع وإيجاد البديل المتوافق مع الإسلام ، في كافة مجالات العمل الإعلامي .

وهنا يجب « التخطيط لإنتاج فني أدبي متكامل ، يشترك فيه المفكرون والعلماء والأدباء والشعراء وكل من له إسهام في الجانب الفني ، وذلك لتغذية أجهزة الإعلام والتوجيه ـ من إذاعة وتلفزيون ومسرح وصحافة وخيالة وغيرها ـ بالأصيل والجاد من القصص ، والمسرحيات والتمثيليات وغيرها من البرامج المتنوعة ، وبخاصة تلك التي تتعلق بالإسلام ودعوته ، وكتابه ونبيه وتاريخه ورجاله ، وحضارته ، لإعطاء صورة صحيحة ومشرقة عن الرسالة الإسلامية ، والبطولة الإسلامية ، والحضارة الإسلامية ، والروح الإسلامية ، بحيث يلتقي في رسم هذه الصورة الصدق التاريخي والجمال الفني »[١] .

ثم إنه يجب التعاون من أجل إصدار مجلات للطفل المسلم ويهتم بها كما يهتم بإصدار مجلات للكبار ، توزع في أقطار العالم الإسلامي ، وتكون قسمين باعتبار المراحل العمرية للطفل ، الأول يوجه إلى الطفل في المرحلة المتوسطة «حتى تسع سنوات تقريبًا» ، والثاني يوجه إلى الطفل في المرحلة التالية حتى الرابعة عشرة من عمره ، وتكون كذلك قسمين باعتبار الذكورة والأنوثة ، الأول يوجه إلى البنين ، والثاني يوجه إلى البنات .

وينبغي أن يتولى الإشراف عليها جمع من علماء الدعوة الإسلامية ، والمتخصصين في أدب الأطفال ، واللغة العربية وعلماء النفس والاجتماع والفنون ، وكل من يمكن أن يسهم بدور في إخراجها الإخراج العلمي الصحيح .

---

(١) الحل الإسلامي فريضة وضرورة (ص٤٧، ٤٨) .

ويلحق بالمجلات ، الصحف ، فينبغي العمل على إيجاد صحيفة يومية أو أسبوعية للطفل المسلم ، ويمكن أن تقدم مواد متنوعة منها على سبيل المثال :

« أ ـ القصة المصورة الهادفة .

ب ـ التحقيقات الصحفية .

جـ ـ الجولات المختلفة .

د ـ المسابقات الإسلامية والثقافية والأدبية المتنوعة .

هـ ـ الأغاني والمشاهدات القصيرة .

و ـ الموضوعات التعليمية : وتتطرق إلى أمور العقيدة والعبادات والسيرة ونحوها .

ز ـ موضوعات تتعلق بتاريخ الأمة وحاضرها ، وتعريف بدول العالم الإسلامي .

حـ ـ أخبار المسلمين المحلية والعالمية ، وإفراد مساحة غير قليلة منها للحديث عن أخبار الأطفال المسلمين ، ونقل آلامهم وآمالهم ، وأفراحهم وأحزانهم .

ط ـ الاهتمام بنقل ما يفعله أعداء الإسلام بالأقليات ، أو الأغلبية المسلمة في كثير من بقاع الأرض مثل فلسطين المحتلة ، والفلبين وأرتيريا ، والهند وكشمير »[١] .

ويجب أن تُخصَّ المناطق الإسلامية التي طمس الاستعمار اللغة العربية فيها ،

---

(١) منهج علماء الدعوة في الكتابة للطفل المسلم (ص٢٣٥، ٢٣٦) .

مثل مناطق عديدة في أفريقيا ، فيكتب لها باللغة التي يجيد الأطفال القراءة بها ، حتى ييسر الله وتزول العُجمة التي عقدت ألسنتهم ، ويستطيعوا إجادة اللغة العربية .

ومثل تلك المجلات والصحف ينبغي أن تدعمهم ماليًّا كي يتاح لجميع الأطفال قراءتها والاستفادة منها ، خاصة الفقراء منهم ؛ إذ يمثلون كثرة في أقطار العالم الإسلامي .

هذا وإن هناك مؤسسات ثقافية أجنبية مشبوهة في أرجاء الأقطار الإسلامية ، فيجب العمل على منعها ، ووقف أنشطتها الفكرية أو الثقافية ، كما يجب إبعاد من له انتماء لمثل هذه المؤسسات ، كالروتاري والليونز وغيرهما ، وكل من له توجه غير إسلامي ، أو ولاء لفكر غربي ، أو ذو سلوك مشين ، وإقصاؤه عن مراكز الإعلام والثقافة ، ومؤسساتها ، وأن يختار للقيام على هذا العمل وما يتصل به الصالحون الملتزمون بالدين ، المناصرون للفكر الإسلامي .

ثم إنه لابد من إيجاد رقابة شرعية على الإعلام والثقافة ، ولا يُتصور تحقيق هذه الرقابة الشرعية إلا بوجود علماء الدين وفقهائه ، وحضورهم في هيئات الرقابة ، وألا تكون آراؤهم استرشادية فقط بل تكون ملزمة ، ونافذة ، فيمنع ما يرونه ممنوعًا بميزان الشرع ، ويباح ما يرونه كذلك بميزان الشرع أيضًا ، أما أن تكون الكلمة العليا في هيئات الرقابة للعلمانيين أو الشيوعيين ، ونحوهم فلن يخرج من تحت أيديهم ما يرضي الله ورسوله .

ولا يغيب عن بالنا أنه من الأهمية بمكان أن يصل الإعلام الإسلامي بقوة إلى كل مكان في العالم الإسلامي ، بل في كل مكان في العالم أجمع ، وأن يكون

صوته هو الأقوى ، وله الغلبة على الإعلام الجاهلي أو المعادي ، لا كما يحدث الآن ـ مع الأسف ـ من ارتفاع نفير الباطل عبر الإعلام المعادي ، وضعف الإعلام الإسلامي .

*****

المبحث الرابع
دور الدعوة الإسلامية

وأقصد بالدعوة الإسلامية الدعوة بمعنى التبليغ والنشر [١] ، ودور الدعوة في مواجهة الغزو الفكريِّ إنما يكون من خلال مؤسساتها وعلمائها ، والمشتغلين بها .

والدعوة الإسلامية ـ ممثَّلة في مؤسساتها وعلمائها ـ يتوقع منها أن تسهم بدور عظيم في كبح جماح الغزو الفكري ، وتخضيد شوكته ، وإبطال مفعوله ، وإزالة آثاره من حياة المسلمين ، بل ومحاصرته وتحطيمه في عقر داره ، وغزو مصادره ومعاقله بالفكر الإسلامي .

ولست هنا بالذي يملي خطة للدعوة الإسلامية ، تحدد دورها الذي يجب أن تلتزم به أو تسير على ضوئه ، ولكن أقترح أمورًا ، أرى أن الأخذ بها يؤدي إلى فاعلية المواجهة ، وتحقق ما نصبوا إليه من دحر ذلك الغزو ، وهو على النحو التالي :

أولا : التوعية بالغزو الفكري وآثاره خاصة بالنسبة للنشء :

وذلك أن هناك كثيرين من الآباء والمربين ، بل وبعض المثقفين والمتعلمين من لا يدرون بخطر الغزو الفكري ولا ينتبهون إلى أضراره ، وهذا راجع

---

(١) مصطلح « الدعوة الإسلامية » يطلق ويراد به معنيان : الأول : الدعوة الإسلامية بمعنى الدين الإسلامي نفسه ، والرسالة التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ ، والثاني : الدعوة الإسلامية بمعنى الدعوة إلى الإسلام ، أي : القيام بتبليغه ونشره ، وتعريف الناس به وحثهم على اعتناقه والعمل به ، وتحذيرهم من سواه بطرق مخصوصة .

لأمور كثيرة ، منها طبيعة هذا النوع من الغزو المعادي ، حيث إن من أبرز سماته أنه يسري بين الناس في نعومة وصمت ، وقل أن يشعروا به ، ومنها التقصير في التوعية به وبأخطاره وآثاره على الأمة كافة ، والنشء المسلم خاصة ، إلى غيرها من الأسباب ، وربما لو قمنا بإجراء استبيانٍ أو استطلاعِ رأي على مستوى الآباء والمربين والمتعلمين وغيرهم من قطاعات الأمة عن مدى معرفتهم بالغزو الفكري أو الثقافي وأخطاره ، ومدى تأثيره في حياة المسلمين ، أو تأثّر قطاعات المسلمين به ، خاصة النشءَ ، لكانت النتيجة على نحو لا يُرضِي .

بل إن هناك من يتشدق بإنكار شيء اسمه الغزو الفكري ، ويوجد بيننا من يُشِيعون هذا في المسلمين ، وهذا أمر شنيع يقول عنه أستاذنا الشيخ الغزالي :

« من الإصرار على الذنب ، والإيغال في المخادعة أن يتحدث « البعض » إلى شبابنا وطلابنا منكرين الغزو الثقافي ، ورافضين الاعتراف بآثاره المدمِّرة ، فما هذا الذي يقع بين ظهرانينا فيغير الحقائق والعناوين ؟ ويفصل حاضرنا عن ماضينا ؟ ويضع قلبًا مكان قلب وعقلًا مكان عقل ؟

قالوا : هذا تلاقح أفكار ، وتلاقي حضارات ! والنتائج الواقعة والمتوقعة طبيعية .

قلت : هذا تسترّ على جريمة تقترف ! أو هو « بنج » يعطل الإحساس بالمأساة التي تباشر ضد ديننا وأدبنا وتراثنا كله .

أليس هذا الغزو الفكري والثقافي أنكى من الغزو العسكري ؟ إنه غزو بادي النجاح فهو بدل أن يقتل خصمه يغريه بالانتحار !!

ثم يجئ نفر من الدكاترة المتحدثين في الفلسفة والأدب والتاريخ فيقولون :

الغزو الثقافي شبح يتخيله الواهمون ! أو هو تلاحم فكري لا بأس به ، أو هو حق الحضارة الغالبة في فرض نفسها .

إن هذا الكلام يرسل على عواهنه ، وهو ليس عفو الخاطر فيما أرى ، بل هو جزء من خطة الغزو حتى تستسلم الضحية للذبح فلا تقاوم جزاريها »[١] .

من أجل هذا فإن العلماء والباحثين والدعاة وطلبة العلم ، مدعوون للإسهام .

كل على قدر استطاعته ـ في التوعية بهذا الخطر ، والتنبيه إليه ، وفضح ركائزه ومؤسساته أمام الرأي العام المسلم ، وأمام كل الفئات ، بدءًا من الفرد وانتهاء بالدولة .

ثم إن هناك وسائلَ وروافدَ كثيرة للغزو الفكري في حياة المسلمين ، لا يتفطن الكثيرون إليها ، ولا يعرفون شيئًا عنها ، وهم بحاجة إلى معرفتها والإحاطة علمًا بها ، وهي كثيرة في حياتنا ، وخطيرة .

فيجب أن نعرف الناس بتلك الكتب الخطيرة عليهم وعلى أولادهم ، ونكشف أساليبها حتى لا يقتلوها ، وكذلك تلك المجلات والصحف المسمومة التي يقبل عليها النشء بِنَهَمٍ ، وبتلك البرامج والأفلام الأجنبية والمحلية التي تطفح بها وسائل الإعلام ، وخطورتها على دين الفرد وخلقه ، ثم مستقبل الأمة في شخصه ، وبتلك السموم الفكرية التي رزئنا بها في كثير من مناهج التعليم التي يتجرعها أبناء المسلمين ، تلك الروافد وأمثالها لا يكاد

---

(١) الغزو الثقافي يمتد في فراغنا ، (ص٨٤) بتلخيص ، وانظر : أخطر التحديات في وجه الإسلام ، أنور الجندي (ص٣) ، دار أبو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، تونس .

يعرف الناس عن حقيقتها شيئًا ، فيجب أن نكشف لهم عن هذه السموم ، ونعرفهم بأنها أخطر عليهم وعلى أبنائهم من السموم السوداء والبيضاء على السواء .

هذا ، ويمكن أن تتم هذه التوعية من خلال وسائل كثيرة ، مثل الكتاب ، أو المجلة ، أو الإذاعة والتلفزيون ، والشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت)، ويمكن من خلال إصدار نشرات توعية تصدر عن المؤسسات الدعوية ، أو الهيئات الإسلامية الرسمية الشعبية ، أو استغلال التسجيلات الصوتية والمرئية والاستفادة منها بهذا الخصوص ، مع مراعاة إعدادها وإخراجها بالأسلوب الأنسب فنيًّا وعلميًّا ، شكلًا ومحتوى ، وتوزيعها مجانًا إن أمكن ، أو بسعر مخفَّض ، ويمكن أن تكون بأكثر من لغة ، بحيث تكون إفادة المسلمين منها كبيرة وشاملة .

وبالإضافة إلى هذه الوسائل وغيرها ، فإن هناك وسيلة فعالة ، لا يسوغ إهمالها بحال من الأحوال ، وهي وسيلة الاتصال الشخصي من خلال خطبة أو درس ، أو محاضرة أو لقاء في منتدى ، أو حتى في مقهى أو مصنع ، أي : لا يكون الأمر مقصورًا على المساجد ونحوها ، بل يتوجه بالدعوة إلى كافة الأماكن والملتقيات والقطاعات ، والذهاب إلى الناس حيثما كانوا في أماكن تواجدهم ، مع الحرص كذلك على أن يتعامل مع كل فئة بالأسلوب المناسب ، وأن يتوجه إليهم بالخطاب المقبول لديهم ، شكلًا ومضمونًا ، أداءً ومحتوى ، وهذه الأمور ونحوها مما لا يخفى على الداعية .

ثانيا : مواجهة الفكر المعادي بالفكر الإسلامي :

وإن الفكر ينازل بالفكر ، والرأي يواجه بالرأي ، والشبهة تدحض بالحجة ،

والله تعالى يقول : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ .

[الأنبياء:١٧]

وإذا كان عماد الغزو الفكري هو الحرب بالكلمة ، والرأي والشبهة والفكرة ... إلخ ، فإن أمضى الأسلحة في مواجهته أن تكون من نفس الجنس ، مع ملاحظة أن الحجة ، ناصعة البرهان ، لذا فلن يكون أجدى من أن نقاوم الغزو بالعمل على نشر الحق ، وإذاعة الفكر الإسلامي المنبثق من الكتاب والسنة ، فإن هذا العمل من شأنه أن يحصن المسلمين من جانب ، ويهتك أستار الباطل ، ويكشف عن زيفه ، ويبدد ظلماته وشبهاته من جانب آخر .

وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يجاهد الكافرين بالقرآن الكريم ، فقال سبحانه : ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان:٢٥] .

أي : بالقرآن والمواعظ كما قال ابن عباس [(١)] : « وذلك بتلاوة ما فيه من البراهين والقوارع والزواجر والمواعظ والتذكير بأحوال الأمم المكذبة » [(٢)] .

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « جاهدوا المشركين بأموالكم وألسنتكم » [(٣)] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٣٩) ، في ظلال القرآن (٥/ ٢٥٧١، ٢٥٧٢) ، روح المعاني (١٩/ ٣٢) ، تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٥٨) .

(٢) روح المعاني ، الموضع السابق .

(٣) أخرجه أبو داود ، كتاب الجهاد ، باب كراهية ترك الغزو ، (جـ٣) (ص١٠ رقم ٢٥٠٤) ، والنسائي ، كتاب الجهاد ، باب وجوب الجهاد ، (جـ٦) (ص٧) ، وأحمد الفتح الرباني ، كتاب الجهاد ، باب وجوب الجهاد والحث عليه ، (جـ١٤) (ص٧، ٨) ، والدارمي في السنن ، كتاب الجهاد ، باب في جهاد المشركين باللسان واليد ، (جـ٢) (ص٢٨٠ رقم ٢٤٣١) ،والحاكم ، كتاب الجهاد ، (جـ٢) (ص٨١) ، وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي .

ومواجهة الفكر المعادي بالفكر الإسلامي ، يجب أن تكون على محورين ، أو تسير في اتجاهين رئيسين :

أحدهما : يتمثل في القيام بعرض الإسلام بشموله على المسلمين وتقديمه لهم متناسقًا مع طبيعة العصر ، وتعليمهم إياه ، مع إعطاء النشء المسلم وافر الحظ والنصيب من هذا الأمر .

وثانيهما : يتمثل في الرد على مفتريات الغزو الفكري ، وإزالة الركام الذي خلفه من الشبهات والأباطيل عند كثير من المسلمين ـ خاصة النشء ـ ، فنزيل ما أحدثه من آثار في مجالات العقيدة والتشريع والأخلاق والتاريخ واللغة وغيرها .

ومما يتصل بهذا الجانب العمل على دعوة القادرين من المسلمين إلى السعي أو الاشتراك في تهيئة الوسائل التي تحتاجها الدعوة لتواجه الغزو الفكري من خلالها ، مثل حث أهل الخير واليسار في العالم الإسلامي على تمويل مشاريع إسلامية تخدم قضية المواجهة ، كإنشاء مدارس إسلامية للنشء ، أو وسائل إعلامية ونحو ذلك ، وخاصة إذا كانت الدعوة في مكان ما ، لا يتوافر لها الدعم المالي الكافي من جهات رسمية .

هذا ويجب الحرص على الاستفادة من المسجد في التوعية بالغزو الفكري وسبل مواجهته ، حيث يتجمع فيه أعداد كبيرة من المسلمين في العالم ، ويأتون طواعية واختيارًا ، فيحسن أن يستفاد من هذا الواقع على أحسن وجه ، خاصة في ظل ملاحقة الغزو الفكري للناس في كل مكان ، وفي ظل عجز الدعوة في بعض الأماكن عن الحصول على الوسائل التي يمكن أن تكون فعالة ومؤثرة في

مواجهة ما تسخره أجهزة الغزو الفكري من وسائل عاتية ، والمهم أن توضع الخطط والبرامج التي تخرج المسجد عن وضعه السلبي الانعزالي ، الذي فُرض عليه في كثير من الأقطار ، وتحوله إلى الوضع الإيجابي الموجِّه والمؤثر في المسلمين ، وذلك بعدم قصره على مجرد أداء الشعائر التعبدية فقط .

ثالثا : إعداد الدعاة إعدادًا يؤهلهم للقدرة على مواجهة الغزو الفكري :

وإن مما يؤسف له أن نلاحظ أن كثيرين من المنتسبين للدعوة الإسلامية ليسوا على المستوى الذي نطمح إليه ، وليسوا مؤهلين لمواجهة الغزو الفكري ، وتحصين المسلمين ضده في بلادهم ، فضلًا عن خارجها .

وهذه الظاهرة المؤسفة تحتم علينا أن نعيد النظر في سياسة إعداد الدعاة من انتقاء وتأهيل وتوجيه ، ونحو هذا ، وإن من الأمور الجديرة بالاهتمام في هذا المجال ؛ إعداد الداعية نفسيًّا بأن يكون مقبلًا على الاشتغال بالدعوة ، ومتقبلًا لهذا الأمر ، ثم إعداده علميًّا ، بأن يكون عنده الخلفية العلمية الفكرية التي تجعله قادرًا على القيام بدوره الدعوي العلمي والتربوي ثم إعداده خلقيًّا ، بأن يكون قدوة ومثلًا صالحًا ، ونموذجًا عمليًّا لما يدعو إليه .

إنني أعرف أن من بين من تخرجوا من كليات الدعوة ونحوها من الكليات الشرعية ؛ أناسًا لم يكونوا مؤهلين نفسيًّا لولوج مثل هذه التخصصات ، وإنما سيقوا إليها سوقًا ، أو اضطروا إليها اضطرارًا ، فدخلوا وخرجوا ووظفوا دون أن تحتل الدعوة أو العمل للإسلام في نفوسهم حيزًا ، أو مكانة ترقي إلى ما تحتله لقمة العيش ، وأمر تحصيل الرزق ، فضلًا عن ضعف الاستعداد العلمي والخلقي لأمثال هؤلاء ، فكانوا فاترين في عطائهم ، خاملين في عملهم ،

عاجزين عن النهوض بالدعوة والجهاد بها ومن أجلها ، حتى صاروا كلا عليها ، وقرة عين لأعدائها .

وإن على مؤسسات الدعوة أن تحرص على انتقاء من يُلحَقون بمدارس ، أو معاهد الدعوة وفق أسس وضوابط ، أو معايير تضمن تخريج دعاة عالمين عاملين ، يحملون الدعوة ، لا أن تحملهم هي ، ويضحون في سبيلها ، لا أن يكونوا عليها مغرمًا .

وإذا كانت كثير من المؤسسات تحرص على أن تختار وتنتقي من يتقدمون للالتحاق بها أو الانتساب إليها ، وفق معايير صارمة ، وأسس مدروسة ، كي تضمن الاستمرار والمضي قدمًا في النهوض برسالتها ، والقيام بدورها من خلال هؤلاء الملتحقين بها ، والذين سيكونون بعد تخرجهم حاملين لاسمها ، أو قادة ورموزًا من رموزها ، كما هو ملاحظ في المؤسسات العسكرية مثلًا ، بالنسبة لمن يتقدمون للالتحاق بمدارسها أو معاهدها ؛ فإن الدعوة الإسلامية أولى بهذا وأجدر .

هذا ، ومما يتصل بما سبق من إعداد الدعاة إعدادًا مناسبًا ؛ العمل على توسيع رقعة المنح الدراسية الخاصة بأبناء المسلمين في شتى أقطار العالم الإسلامي ، لدراسة الإسلام والدعوة في الجامعات الإسلامية المتخصصة ، كالأزهر الشريف ، حيث إنه يكون من الأهمية بمكان إتاحة الفرصة لأكبر عدد ممكن من هؤلاء ، وخاصة من البلدان الأفريقية ونحوها ، ليتعلموا ويتزودوا بالعلوم الشرعية والدعوية اللازمة لهم كي يُسْهِموا بدور فعال في مواجهة الغزو الفكري في بلادهم خاصة ويقوموا بأمور الدعوة في بيئاتهم ، وتعليم بني قومهم ، ولا شك أن هؤلاء - إذا أحسن إعدادُهم - يُرتجى منهم أن

يقوموا بجهود طيبة مثمرة ، فهم أدرى بطبيعة بلادهم ، وطبائع قومهم ولغاتهم ، وكما قيل : أهل مكة أدرى بشعابها .

وإن أعداء الإسلام يحرصون دائمًا على إعداد من يحملون فكرتهم ، وينشرونها ، ولهم جيوش من الدعاة والمبشرين تجوب الآفاق ، وتغزو البدو والحضر ، والقرى والمدن في العالم الإسلامي ، كما يبدون حريصين على أن يعدوا أفرادًا من أبناء المسلمين بطريقة أو بأخرى ليكونوا مبشرين بين أهليهم وفي أوطانهم ، وهو ما أكد عليه المبشرون في مؤتمر القاهرة التبشيري سنة ١٩٠٦م ؛ إذ قرروا أن « تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم ؛ لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها »[(١)] .

ولا شك أن تأهيل أعداد مناسبة للقيام بالدعوة الإسلامية في بلادهم ؛ أنجح وأجدى في مواجهة زحوف الكفر تلك ، ووقفِ مَدِّها .

رابعًا : عقد مؤتمرات دعوية عالمية بين الحين والآخر للنظر في مسيرة المواجهة للغزو الفكري :

وإننا بحاجة ماسة إلى عقد مؤتمرات للدعوة الإسلامية ، تكون عالمية ، من أجل البحث في مسيرة المواجهة للغزو الفكري ، وتقييم الأعمال التي تمت ، وما يمكن أن نقوم به في المستقبل ، وما يعترض من عقبات وصعوبات ، وكيفية اجتيازها ، أو التغلب عليها ، وهكذا ، أي : أن هذه المؤتمرات تكون بمثابة مراجعة دقيقة للخسائر والأرباح - إذا صح التعبير - .

وإنه لمن المؤسف حقًّا ؛ أن ينشط خصومنا ويجدوا في عقد المؤتمرات للتدارس في وضع الخطط والتغلب على الصعوبات ؛ ليتوصلوا إلى غزونا

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي (ص٣٠) .

واختراقنا ، وهي مؤتمرات تتكرر من حين لآخر ، وما يكشف منها أقل مما يخفى ، بينما نحن أقلُّ نشاطًا منهم في هذا الأمر :

« وقد يذهب البعض إلى مقولة تتضمن أن للمسلمين مؤتمرات للدعوة كثيرًا ما سمعنا بها أو قرأنا عنها ؟ نعم إن للمسلمين مؤتمرات ، ولكن أين القرارات التي أخذت الطريق السليم دون عقبات ؟

إن الأمة الإسلامية لا تريد مؤتمرات تكون توصياتها وقراراتها حبرًا على ورق ، ومن المؤكد لدى العارفين أن أمتنا تملك رصيدًا هائلًا من الطاقات التي يمكن أن تؤهل علميًّا للقيام بدورها الفعال »[1] .

وعلى سبيل المثال ، فإننا بحاجة الآن إلى مؤتمر إسلامي عالمي تشترك فيه المؤسسات الدعوية الإسلامية مثل الأزهر ، ورابطة العالم الإسلامي ، ومنظمات الدعوة والإغاثة الإسلامية وغيرها ، ويشارك فيه العلماء المسلمون من شتى الأقطار الإسلامية ، ويكون الموضوع الرئيسي الذي يتدارسه هذا المؤتمر هو دراسة مخططات الغزو الفكري المعادي في عصرنا الحاضر ، اليهودي منه والنصراني والإلحادي ، ثم وضع الأسس والخطط لوقاية المسلمين منه ، وتحصينهم ضده ، ثم دراسة كيفية مواجهته ودحض مفترياته ، وتفنيد شبهاته ، ثم نقل المعركة إلى قلب معسكرات الخصوم ، دون أن نظل في موقع المدافع .

*****

(١) التنصير التحدي والمواجهة ، د/ أحمد عبد الرحيم السايح ، مقال بمجلة منار الإسلام (مرجع سابق) .

المبحث الخامس

دور المسلمين عامة في المجتمع المسلم

ثم إن كل مسلم في المجتمع يجب أن يشعر بالمسؤولية، وأن عليه دورًا في مقاومة هذا الخطر، وهناك أمور ذات جدوى بهذا الخصوص، يمكن أن يقوم بها الأفراد، ويتعاونوا عليها منها ما يلي :

أ ـ القدوة الصالحة : فيجب أن يحرص كل مسلم على أن يكون صورة صادقة ونموذجًا عمليًّا لمبادئ الإسلام وأخلاقه، فإذا تم هذا أمام النشء، فإنه يعيش في جو إسلامي يعين على تعميق الإسلام في نفسه، ويحمله على أن يتطبع بطباع الإسلام من خلال المحاكاة والتقليد، ويهيئ الفرصة لتربيته تربية إسلامية، وهذا مطمح، عزيز غال لو تحقق لكان خير كثير؛ إذ إن هذا الجو الإسلامي حينئذٍ إذا تسربت إليه فكرة غير إسلامية اختنقت، وانقطع وجودها، كمثل القطرة المالحة من الماء إذا سقطت في نهر عذب.

وإذا كان الخصوم يغزوننا بفكرهم ويحرصون على تعميقه في بلادنا من خلال نماذج أو ناس يحيلونه إلى واقع عملي، وسلوك بين الناس؛ فلنقابل هذه الوسيلة بأن يحيل كل منا الإسلام إلى واقع حي، وخلق عملي على نحو ما أشرت.

ثم إن حرص كل فرد مسلم على أن يكون صورة حية للإسلام، وتحققه بهذا؛ من شأنه أن يجعل الحس الإسلامي يسود أرجاء المجتمع، ويسري لدى جميع أفراده، وهذا الحس الإسلامي مهم جدًّا في حصول النفور من الفكرة الغازية والتصدي لها، خاصة إذا صاحبه شيء من العلم أو الفهم والوعي.

هذا ، وإن المطالبة بتحقيق القدوة الصالحة ، وإن كان مطلوبًا من الجميع في المجتمع المسلم ؛ إلا أنه يكون في حق البعض أشد وجوبًا ، وأكثر أهمية ، وأخطر آثارًا ، مثل الوالدين في الأسرة ، والمعلم أمام تلاميذه ، والمسئول أمام من هو مسئول عنهم ، والعالم أو الداعية أمام الناس ، والكبير أمام الصغير ، المتعلم أمام غير المتعلم .... وهكذا .

ب ـ التناصح : ولقد جعل الإسلام النصيحة من أعظم أركان الدين ومبادئ الإسلام ، فعن تميم الداري أن النبي ﷺ قال : « **الدين النصيحة** » ، قلنا لمن ؟ قال : « **لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم** » (١) .

وجعل من سمات المؤمنين مع بعضهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة:٧١] ، بعكس المنافقين فهم : ﴿يَأْمُرُونَ

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة ، شرح النووي (جـ٢) (ص٣٦، ٣٧ رقم ٥٥) ، وأبو داود ، كتاب الأدب ، باب في النصيحة (جـ٤) (ص٢٨٦ رقم ٤٩٤٤) ، والترمذي كتاب البر ، باب ما جاء في النصيحة (جـ٤) (ص٣٢٤ رقم ١٩٢٦) ، من حديث أبي هريرة ، وقال : حسن صحيح ، والنسائي ، كتاب البيعة ، باب النصيحة للإمام (جـ٧) (ص١٥٦، ١٥٧) ، والدارمي ، كتاب الرقاق ، باب الدين النصيحة (جـ٢) (ص٤٠٢ رقم ٢٧٥٤) ، من حديث ابن عمر ، وقال ابن الأثير : النصيحة : كلمة يعبر بها عن جملة ، هي إرادة الخير للمنصوح له ، وليس يمكن أن يعبر عن هذا المعنى بكلمة واحدة تجمع معناها غيرها ، وأصل النصح في اللغة الخلوص ، يقال : نصحته ونصحت له ، ومعنى نصيحة الله : صحة الاعتقاد في وحدانيته ، وإخلاص النية في عبادته ، والنصيحة لكتاب الله : هو التصديق به والعمل بما فيه ، ونصيحة رسوله : التصديق بنبوته ورسالته ، والانقياد لما أمر به ونهى عنه ونصيحة الأئمة : أن يطيعهم في الحق ، ولا يرى الخروج عليهم إذا جاروا ، ونصيحة عامة المسلمين : إرشادهم إلى مصالحهم ، النهاية (جـ٥) (ص٦٣) .

بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة:٦٧] .

وحين يتحقق هذا المبدأ ، ويطبقه كل مسلم ـ كل على قدر استطاعته ـ سيكون لهذا انعكاس إيجابي في محاربة الغزو الفكري ، حيث يصبح هناك ما يشبه النفير العام ضد أي فكر وافد ، وبهذا مع وجود القدوة الصالحة يحاصر المجتمع الفكرة الغازية ، أو يقيم سدًّا منيعًا في وجهها يحول دون سريانها بين الناس .

إن هناك كثيرًا من الأنماط الفكرية أو السلوكية الضارة الممقوتة ، تعيش في مجتمعاتنا ، وقد ألفها كثير من الناس ، وأعتقد أن مثل هذا الأمر ما كان ليقع ، أو يستفحل لو كان هناك تناصح قائم ، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، وتواصٍ بالحق على مستوى الأفراد أو القاعدة في المجتمع المسلم ، ولا غَرْو أن جعل الله نجاة المجتمع من الخسران متوقفة على صفات منها : التواصي بالحق ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١ـ٣] .

وجدير بالذكر : أن النصيحة لا تتأتى إلا من عالم بما ينصح به ، فعلًا كان أم تركًا ، مع ضرورة التزام الناصح بآداب النصيحة الأخرى من إخلاص ، ولين ، وحكمة ، وصبر وأناة ، وغيرها من الآداب .

جـ ـ مقاطعة الموجود من ركائز الغزو الفكري ووسائله :

وهناك العشرات ، إن لم يكن المئات من وسائل الغزو الفكري وركائزه ، مبثوثة ومنتشرة في المجتمعات الإسلامية على مختلف المستويات ، وهي تستمد وجودها الفاعل ، وتكسب قوتها في كثير من الأحيان من إقبال جماهير المسلمين عليها بشكل أو بآخر .

فهناك على سبيل المثال ؛ نوادي الروتاري والليونز ، التي يؤُمُّها كثير من المسلمين ، ويدعمون أنشطتها المريبة بالوقت أو بالجهد أو بالمال من خلال عضويتهم فيها ، وانضمامهم إليها ، وكذلك الجامعات والمدارس الأجنبية أو التغريبية ، والتي يتغاضى عنها المسلمون ، بل ويقذفون بفلذات أكبادهم فيها ، وهناك الصحف والمجلات والكتب التغريبية العديدة ، التي يحرص على اقتنائها واجتلابها كثيرون من المسلمين لها ولأبنائهم ، كما أن هناك أيضًا الإعلام المسموع والمرئي وغير هذه الوسائل ، ولو قاطعها المسلمون وتوقفوا عن دعمها بأي شكل ؛ لأضر هذا بها بلا ريب ، ولأضعف من أنشطتها وتأثيرها بين المسلمين ، ولسلموا من شرها ، ثم لكان لهذا كله تأثير في انحسار الغزو الفكري ، وانكسار حدته بشكل عام .

وإن مقاطعة المسلمين لوسائل الغزو الثقافي وركائزه على نحو ما أشرت ؛ ليست أمرًا من النوافل ، ولكنه - فيما يظهر - من الفرائض المحتومة ، التي لا يسع مسلمًا أن يعدل عنها ، ثم هو من ضرورات العصر التي يجب وضعها في الاعتبار .

د - التعاون والعمل على إيجاد محاضن إسلامية للنشء :

ولا يجب أن يتوقف الأمر عند حد مقاطعة وسائل الغزو الفكري خاصة تلك التي تتعلق بالتعليم ، كالمدارس بدءًا من رياض الأطفال حتى الجامعة ، ولكن يجب أن يسعى المسلمون ويتعاونوا من أجل إيجاد محاضن إسلامية أهلية ، مثل مدارس إسلامية ومكاتب وجمعيات لتحفيظ القرآن الكريم ، يتعلم فيها النشء ، ويربون التربية الإسلامية التي تكون امتدادًا للتربية الإسلامية في البيت ، وهذا مطلب ضروريٌّ ومُلِحٌّ في عصرنا الحاضر ، لنستنقذ

الأجيال الناشئة ، ونقيهم من الضياع أو الذوبان في مستنقعات الغزو الفكري الآسنة ، وهذه الوسيلة العملية الإيجابية في مواجهة الغزو الفكري ، يرتجى من ورائها ـ لو تحققت ـ أن يكون لها أطيب الثمار في عملية المواجهة .

ثم إن أثرياء المسلمين عليهم عبء كبير في مساندة إنشاء مثل تلك المحاضن وإقامتها ، لا سيما في البلاد التي لا يجد المسلمون لأبنائهم فيها غير محاضن الغزو الثقافي ، وفي نفس الوقت لا يستطيعون ـ لِضِيق ذات اليد ـ إيجاد محاضن إسلامية لأبنائهم .

هذا ، وإن الأمر يحتاج إلى توعية كبيرة من العلماء ، وحث المسلمين على البذل في هذه النواحي ، وكذلك جمعيات البر والعمل الخيري الإسلامية في العالم الإسلامي ؛ حيث إن هذه المشاريع من خير ما ينفق فيها المال ، وأجدر أن تنال كبير الاهتمام .

ويمكن أن يستعان على إيجاد هذه المحاضن بالأخذ من أموال الزكوات والصدقات ؛ إذ إنها تدخل تحت سهم : ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦٠][1] .

*****

(١) يراجع : فتاوى معاصرة ، د. يوسف القرضاوي ١/ ٢٨٤ وما بعدها ، دار القلم للنشر والتوزيع ، الكويت ، ط الخامسة ١٤١٠هـ ١٩٩٠م .

الفَصْلُ الثَّانِي

مواجهة الغزو الفكري بين العقبات والمبشرات

المبحث الأول :

بعض العقبات على طريق المواجهة

المبحث الثاني :

بعض المبشرات على طريق المواجهة

المبحث الأول
بعض العقبات على طريق المواجهة

هناك عقبات أو معوقات ومصاعب تعترض سبيل المواجهة ، وتعرقل تحقيق الثمار المرجوة ، وتحول دون تطبيق المنهج المأمول ، أو تبني الوسائل الفعالة لدرء خطر ذلك الغزو ، وهي عقبات كثيرة ، منها ما هو خارجي يرجع إلى الخصوم مباشرة ، ومنها ما هو داخلي ، وأشير إلى بعضها على النحو التالي :

أولا : بعض العقبات الخارجية :

أ ـ الاحتلال أو الاستعمار :

ومن العقبات الكأداء ؛ احتلال خصوم الإسلام لبلد أو أكثر من بلاد المسلمين ، وتدخلهم فيها بالقوة ، حيث إن المحتل الغاصب سيعمل جاهدًا على إفشال أي خطة من جانب المسلمين أو تحرك للقضاء على الفكر الدخيل ، وإنعاشه في البلد الذي يئن تحت سيطرته وقهره .

ولئن كان الاحتلال العسكري الأجنبي المباشر للأقطار الإسلامية قد انحسرت موجته ، وتلاشت رقعته ، خلال العقود الأخيرة من القرن الرابع عشر الهجري « حوالي منتصف القرن العشرين الميلادي » ؛ فإن الخصوم لا يزالون مستعمرين لكثير من الأقطار الإسلامية ومتنفذين فيها ، ولهم اليد الطولى في التدخل في شؤونها ، ورسم سياستها عبر وسائل أخرى وأنماط جديدة .

ثم إنه لا تزال توجد بعض الأقطار الإسلامية محتلة احتلالا مباشرًا ، ومكبلة بقيود مستعمر أجنبي ، ومنها على سبيل المثال فلسطين المسلمة التي

عدا عليها اليهود بمؤازرة من شعوب الكفر ودوله وهيئاته ، واغتصبوها وجعلوا لهم كيانًا ودولة عليها بتواطؤ الخصوم جميعًا ؛ ليتخذوا منها قاعدة لحرب الإسلام ومناهضته ، وقهر المسلمين وتحطيمهم بكل وسائل الحرب ، وخاصة الحرب الفكرية التي يجدون من خلالها في القضاء على الثقافة الإسلامية ، مع الترويج للثقافات الأخرى خاصة اليهودية .

وكذلك كشمير المسلمة التي لا تزال تستولي عليها الهند الملحدة ، وتذيق أهلها سوء العذاب ، وتعمل جاهدة على ألا يقوم للإسلام بها قائمة ، والعالم يتفرج ، بل في غالب الأحيان يساعد ويؤيد ، والله حسبنا ونعم الوكيل .

وإن على المسلمين أن يعملوا على إزالة مثل هذه العقبة ، فيتجهوا بكل ما أوتوا من سبيل لتحرير كل شبر من أرض الإسلام من الاستعمار والاحتلال بكافة صوره ، مباشرًا كان أم غير مباشر ، وأن يهبوا لنصرة إخوانهم في الدين في فلسطين وكشمير وأمثالها ، مهما كلفهم ذلك من ثمن ؛ لأنهم أُسارى مستضعفون ، ومثل هؤلاء يقول الإمام ابن العربي - رحمه الله - في واجبنا نحوهم : « ... فإن الولاية معهم قائمة ، والنصرة لهم واجبة بالبدن بألا يبقى منا عين تطرف حتى نخرج إلى استنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك ، أو نبذل جميع أموالنا في استخراجهم ، حتى لا يبقى لأحد درهم كذلك ، قال مالك وجميع العلماء : فإنا لله وإنا إليه راجعون ، على ما حل بالخلق في تركهم إخوانهم في أسر العدو ، وبأيديهم خزائن الأموال ، وفضول الأحوال والعدة والعدد ، والقوة والجلَد »[1] .

قلت : وإنا لله وإنا إليه راجعون على ما حل بنا من خذلان إخوة لنا تستباح

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (جـ٢) (ص٤٤٠) .

حرماتهم ، وتنتهك أعراضهم ، ويفتنون في دينهم ، ونحن اليوم نربو على مليار مسلم ، وأموالنا تكاد تغص بها بنوك أعدائنا ، ولا نحرك ساكنًا .

ب ـ الإرساليات التبشيرية الأجنبية :

ومن العقبات كذلك تمركز كثير من الإرساليات التبشيرية الأجنبية في بلاد عديدة في العالم الإسلامي ، حيث إنها تروج باستمرار للفكر المعادي للإسلام ، ولها أجهزة عاتية جبارة ، ووسائل خطيرة ، بالإضافة إلى تمتعها بسيطرة ونفوذ كبيرين في بعض البلاد ، خاصة الفقيرة منها ، وهي في بعض البلاد أكثر نفيرًا ولا صوت يعلو على صوتها ، ولا يوجد فكر آخر يقدر على أن يزاحم فكرها ، لما لها من صولة وجولة ، ومن بطش أحيانًا ، وتساعدها كبرى الدول ، وتشد من أزرها .

وإن وجود هذه الإرساليات سيظل من أكبر العراقيل في سبيل مواجهة الغزو ، ولن تسير الأمور على نحو مستقيم إلا باستئصال شأفتها وقطع دابرها من العالم الإسلامي .

جـ ـ النظام الدولي الجديد :

ولقد برز الآن ما يسمى « النظام الدولي الجديد » بزعامة الدول الغربية الكبرى ، وعلى رأسها أمريكا ، بعد انهيار ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي البائد ، الذي ما تكون في الأصل إلا على أشلاء المسلمين في دول آسيا الوسطى المسلمة ، ولست هنا بصدد الحديث عن هذا النظام تفصيلًا ، ولكني أريد الإشارة إلى أن هذا النظام المزعوم لا يحرص إلا على مصالح الغرب ، وعلى حساب حقوق الآخرين ، مهما حاول سدنته وأربابه أن يثبتوا عكس هذه الحقيقة ، وهذا الواقع .

وهذا النظام الذي تتزعمه أمريكا والغرب حريص على أن يفشل أي توجه لإقامة حكم الله ، وتطبيق شرعه في أي قطر من الأقطار الإسلامية ، كما أثبتت الوقائع العديدة هذا الأمر في غير ما بلد من بلاد المسلمين ، ويرى أن في هذا خطرًا على أوربا والغرب عمومًا ، وأن فيه طريقًا لعودة الخلافة الإسلامية التي تجمع شمل المسلمين ، وتلم شعثهم في أمة واحدة ، الأمر الذي طالما حاربه الغرب منذ قديم ، ولا يزال .

ولقد عاد الغرب لمحاصرة الإسلام من جديد من خلال قناع النظام العالمي ، فوضع من الأعراف والنظم « والتي يحلو للبعض من المسلمين تسميتها بالشرعية الدولية » ما يخول له تطويق أي بلد يريد تحكيم شرع الله على الوجه الذي يرضى الله ، ومحاربة أي دعوة ترمي إلى ذلك حتى غدا هذا المسلك واضحًا لكل ذي عينين ، والأمثلة على هذا لا تخفى .

كما أن هذا النظام يقوم بتشويه صورة الفكر الإسلامي الصحيح الأصيل والتشنيع عليه من خلال منظماته وهيئاته العالمية ، وخاصة الثقافية منها ، والتي يشارك فيها ويدعم أنشطتها ـ مع الأسف ـ الأقطار الإسلامية .

هذا ، وإن مواجهة هذا النظام وتقليل فاعليته وشلها لا تكون إلا بأن نطبق نحن المسلمين النظام الإسلامي السياسي ، وخاصة الخلافة الإسلامية وتطبيق شرع الله في كل بلد ، وأن نتجمع تحت راية القرآن أمة واحدة ، وعندها يسمع لنا الجميع ، ويدوي صدى الحق في كل مكان .

د ـ البث الخارجي الفضائي والإذاعات الموجهة والإنترنت :

ومن العقبات الخارجية البث الخارجي المباشر عبر الأقمار الصناعية ، أو القنوات الفضائية ، حيث إن الخصوم يملكون ناصية هذا المجال ، ويوجهون

الفكر المعادي إلى كافة الأقطار الإسلامية من خلاله ، وتكمن خطورة هذا البث في قدرته على اختراق الحواجز وتغلغله حتى أعماق البيوت في بلادنا الإسلامية .

وما يقال عن البث الخارجي يقال أيضًا عن الإذاعات الخارجية الموجهة ذات الأهداف التبشيرية ونحوها ، والتي تستهدف كثيرًا من بقاع العالم الإسلامي ، وخاصة البلاد العربية المسلمة .

وإذا كان البث الفضائي يتّسم بقدرته على التسلل خلال الديار في نعومة وصمت ، ودون ضجيج ، والقدرة على الوصول إلى أقصى بلاد العالم وأدناها دون صعوبة تُذكَر ؛ فما بالنا بالشبكة الدولية للمعلومات " الإنترنت " ، حيث فاقت البث الفضائي بمراحل هائلة ، في إمكاناتها وسرعة وحجم انتشارها ، واستخدمها أعداء الأمة في حرب الشهوات والشبهات على نطاق واسع وخطير ، حتى غدت اليوم من أكبر المخاطر والعقبات على طريق مواجهة الغزو الثقافي .

فالواجب التغلب على مثل هذه العقبات ببحث الأمر على مستوى الإخصائيين والفنيين في مجال الاتصالات في العالم الإسلامي ، للتوصل إلى السبل الكفيلة بشلِّ فاعلية تلك الوسائل وأمثالها ، والحيلولة دون وصول ما تبثه إلى بلاد المسلمين ، والعالم الإسلامي ـ والحمد لله ـ يزخر بالكفاءات العالية في شتى التخصصات العلمية الحديثة التي يمكن الاستعانة بها لهذه المهمة .

ثانيا : بعض العقبات الداخلية :

ثم إن هناك عقبات داخلية تعود إلينا أنفسنا ، ومنها :

أ ـ عدم الإخلاص لدى بعض الحكومات والدعاة في القيام بالمواجهة :

حيث إن بعض هؤلاء يقومون بما يقومون به من أعمال لمواجهة الغزو الفكري من باب تأدية الوظيفة ، أو العمل الروتيني ، وبعض الحكومات تتبنى مواجهة الفكر الوافد تحت شعارات القومية أو الوطنية والعصبية ، وما شابه ذلك ، ومثل هذه النوايا يجب العدول عنها ، والتجرد من كل شبهة تقدح في الإخلاص ، وتحرير القصد لوجه الله تعالى ، كما يجب أن نعتبر العمل في سبيل المواجهة رسالة ومسؤولية ، وجهادًا لإعلاء كلمة الله ، ونصرة دينه .

ب ـ وجود بعض الحكومات العلمانية :

وفي بعض الأقطار الإسلامية توجد حكومات علمانية تتبنى مناهج غير إسلامية ، ولا تحكم شريعة الله ، ومنها ما هي ذات ميول للشيوعية ، وأخرى ذات ميول للرأسمالية الغربية ، ومنها ما هي ضائعة بين هذه وتلك ، ومثل تلك الحكومات لا ترحب بأن يقوم أحد بمواجهة الغزو الفكري ، بل تقف هي في مواجهة هذا الأمر ، وتعتبره تحديًا لها ، أو خروجًا عليها ؛ لأنها هي نفسها تتبنى الفكر المعادي للإسلام ، وتعمل على نشره ، في الوقت الذي تقوم فيه بالتضييق على الثقافة الإسلامية .

وفي ظل تلك الحكومات العلمانية يتولى زمام الأمور في مجالات الثقافة والإعلام والتعليم ، من يضيقون على الفكر الإسلامي حتى الاختناق ، ويقفون في مواجهة أي توجه نحو مقاومة الفكر الهدام ، وهذا من شر ما رزئنا به .

وفي ظل تلك الحكومات كذلك ؛ يضيق على الدعاة الصادقين إلى الله ، ويحاربون في أرزاقهم ، ويزج بهم خلف القضبان ، وتهدد حياتهم ، حيث

يتعرضون أحيانًا للتصفية الجسدية ، وهكذا يحال بينهم وبين الصدع بكلمة الحق ، التي تأتي على الباطل فتزهقه ، وإذا حيل بين هؤلاء العلماء الدعاة القادرين على نشر حقائق الإسلام ، ودحض مفتريات الغزو الفكري ، ونقض شبهاته ، وتعريتها ، وضيق عليهم ، فقد خسرت عملية مواجهتنا للغزو الفكري خسارة فادحة بفقد هذا العنصر الفعال « من العلماء » وتنحيته [(١)] .

جـ - انشغال بعض الدعاة بإشعال معارك جانبية حول أمور فرعية ، وتبديد طاقة المسلمين وأوقاتهم فيها :

ومما يؤسف له أن نرى بعض الدعاة يحرصون على إشعال معارك طاحنة حول أمور فرعية وأخرى مما لا ينفع العلم به ، ولا يضر الجهل به ، وإصرارهم على أشغال المسلمين بذلك ، وجعل تلك الأمور الفرعية أكبر همهم ومبلغ علمهم ، فتبدد الجهود ، وتستهلك الطاقات ، وتضيع الأوقات في غير مجالها ، أو على الأقل فيما لا وقت له الآن ، بينما يكون الانشغال عن القضايا الكبرى المصيرية ، والتهاون في مجابهة الأخطار المحدقة بنا ، والتي على رأسها أخطار الغزو الفكري ، وأعداؤنا لا شك فرحون بمثل هذه الحال التي يتلبس بها بعض الدعاة ، ويتمنون أن لو طال أمدها ، وتوسع نطاقها ، حتى يخلو لهم الجو من أي مقاومة أو مواجهة لغزوهم الكاسح .

ومن أمثلة تلك القضايا التي يحرص نفر من المشتغلين بالدعوة على إثارتها من حين لآخر ، وبمناسبة وبدون مناسبة ، الزعم بأن والدي الرسول ﷺ في النار ، والجزم بذلك ، مع أن هذه مسألة العلم بها لا ينفع ، والجهل بها لا يضر ، وهي ليست من فرائض الإسلام ، ولا من سننه ، ولم يتعبدنا الله ﷻ بمعرفتها ،

(١) الغزو الثقافي يمتد في فراغنا ، (ص٨٤) بتلخيص ، وانظر أخطر التحديات في وجه الإسلام ، أنور الجندي (ص٣) ، دار أبو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، تونس .

فضلًا عن أن الأدلة التي يتمسك بها هؤلاء ليست قطعية الدلالة ، وكلها يتطرق إليها الاحتمال ، وهي معارضة بما ينقضها ، ثم إن هذه المسألة ليست مما أجمعت عليه الأمة .

ومع هذا يقف بعضهم ليقول بملء شدقيه : إنهما في النار ، وإن كان هذا يحزننا ، ولست أدري لم هذا الإصرار على الحكم بأنهما في النار ، والانشغال بهذا الأمر إشغال المسلمين به ؟!

وقد كان أولى بهؤلاء النفر أن ينشغلوا بالمسلمين الذين يهوون في النار ويندفعون إليها بمعاصيهم ، ويفكرون في كيفية استنقاذهم منها ، ومن الغزو الفكري الذي يوردهم مواردها ، ويريد أن يجتالهم عن دينهم .

ومن هذا القبيل أيضًا تعمد إثارة معارك حول موضوع كشف الوجه والكفين بالنسبة للمرأة ، ومع أن جمهور العلماء سلفًا وخلفًا على القول بأنهما ليسا عورة ؛ فإننا تعودنا أن نرى بعض الدعاة في عصرنا ممن يقلدون في القول بأنهما عورة ، يقيمون الدنيا ولا يقعدونها حول هذا الأمر ، ويتعصبون لرأيهم تعصبًا ذميمًا ممقوتًا ، ويودون أن لو حملوا عليه الخلق بالسوط والعصا ، ولا يتورعون عن رمي مخالفيهم بالفسق والجهل ونحو هذا من السباب الذي يعد صورة من صور الإرهاب الفكري ، معتقدين أن رأيهم صواب لا يحتمل الخطأ ، وأن رأي غيرهم « وهو رأي الجمهور » خطأ لا يحتمل الصواب !

ومن أمثلة ذلك أيضًا إشغال الناس بموضوع التصوير [١] ، حيث نرى بعض الدعاة ممن يزعمون ويذيعون القول بحرمته مطلقًا ، وبكل ضروبه ؛ لا يفتأن يثيرونه على الدوام ، ويحلو لهم أن يجعلوا منه قضية يلوكونها ، ويشعلون

(١) أقصد هنا التصوير الفوتوغرافي الذي هو عبارة عن حبس لظل الشيء المصور .

بها المعارك ، ويعكرون صفو المسلمين ويفسدون ودهم بتعصبهم البغيض لرأيهم ، مع أن المسألة خلافية ، وما دام الأمر كذلك ؛ فإنه لا يجوز لطائفة أن تفرض رأيها على مخالفيها ، وكأن الله خصها وحدها بنعمة الفهم ، وحجبها عن غيرها !!

ومن طريف ما سمعت بهذا الخصوص عبارة لشيخنا العلامة « يوسف القرضاوي » ـ حفظه الله ـ في بعض محاضراته ، مفادها أن إسرائيل قد أطلقت قمرًا صناعيًّا يصور كل شبر في أراضينا ، وما زال عندنا من يقول : بأن التصوير حرام !

إن سلوك هذا النفر من الدعاة وفهمَهم ، أو إن شئت فقل عدم فقههم ، ليعد عقبة ليس من السهل التغاضي عنها في طريق مواجهة الغزو الثقافي ، وإنه ليجب عليهم أن يتخلقوا بأخلاق أهل العلم والدعوة من اتساع الصدر للرأي الآخر ، وعدم الغلو في التعصب ، كما يجب عليهم مراعاة قواعد الدعوة إلى الله ، مثل البدء بالأهم قبل المهم ، والاهتمام بالفرض قبل النفل ، وتقديم المتفق عليه على المختلف فيه ، ونحو هذه الأسس ، حتى لا تتبدد قوانا وتتبعثر جهودنا في مواجهة أعدائنا .

د ـ الجهل والتخلف والتفرق :

« ومصيبة واحدة تكفي ، أما أن تكون ثلاثًا في آن واحد ؛ فتلك قمة المصيبة .

جهلنا بما يخططه أعداؤنا ، وجهلنا بما يجب أن نعمله ، كل ذلك جهل مركب يأخذ بعضه برقاب بعض .

وتخلفنا عن ميدان التقنية « التكنولوجيا » وتخلفنا عن دراسة وسائل الإعلام المختلفة نظريًّا وعمليًّا .

وتفرقنا شعوبًا ودولًا وجماعات، تفرقًا مذمومًا، بأسنا بيننا شديد، وبأسنا على الأعداء خفيف، أذلة على الكافرين أعزة على المؤمنين »[١].

إن رقعة الجهل والأمية، سواء أكانت أمية حرفية أم ثقافية، يجب أن تنحسر، كما يجب أن نصرف جل عنايتنا لأن نلحق بالأمم في ميادين العلم، ونتفوق فيه ونملك ناصيته كما كان أسلافنا، ويجب كذلك أن نعمل على جمع كلمتنا، فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب.

وإن مرض الفرقة غدا من الأمراض التي عمت بها البلوى، حتى إن مجال الدعوة إلى الله لم يسلم منه؛ بسبب أولئك النفر من المشتغلين بالعلم والدعوة، الذين يحرصون على تفريق الكلمة، وتمزيق الصف المسلم بما يتبنونه من قضايا خلافية ممجوجة، وبما ينتهجونه من أساليب جافة عقيمة، توغر الصدور، وتقطع عروق المحبة، فضلًا عن أنها تضيع الجهود، الأمر الذي يشكل مع غيره عراقيل في طريق مواجهة الغزو الفكريّ.

وإننا بحاجة ماسة إلى التخلص من مثل تلك الأمراض، وخاصة مرض الفرقة، ويا حبذا لو رفعنا هذه القاعدة الذهبية شعارًا لنا، نعمل في ظله، وهي: « نتعاون جميعًا فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه »[٢].

أي: نتعاون نحن أهل السنة والجماعة فيما يجمعنا من أصول وأسس ثابتة لا خلاف عليها، ويعذر بعضنا بعضًا فيما تختلف فيه وجهات النظر من الفروع التي هي محل اختلاف، فبهذا تضيق هوة الخلاف، ونتوحد في مواجهة

---

(١) نحو إعلام إسلامي، د/ علي جريشة (ص١١١) باختصار.

(٢) هذه القاعدة قالها الإمام محمد رشيد رضا رحمه الله، وقد تبناها وجعلها شعارًا له الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله.

الأخطار المحدقة بنا ، وفل جموع أعدائنا ، الذين تداعوا للقضاء علينا .

هـ ـ اليأس وفقدان الثقة بالنفس أمام قوى الغزو الفكري :

وإن من العقبات التي تعترض سبيل أيِّ نصر ، أو تحقيق أي تقدم ؛ اليأسَ والقنوطَ ، وفقدانَ الأمل في الوصول إلى الهدف المنشود ، وذلك أن اليأس قاتل للعزائم ، ومبيد للهمم ، وأن القنوط مدعاة للعجز والقعودِ عن بذل الجهد ، ولا يتصور أن تكون هناك مواجهة فعالة مع وجود هذه العقبة ، وإن شئت فقل : هذا الداء الوبيل .

وإن البعض من المسلمين اليوم ينظر إلى واقع الخصوم ، فيرى تفوقهم في شتى مجالات الحياة ، وسيطرتهم على وسائل الإعلام ، وقدرتهم على بث ما يريدون من أفكار معادية ، بل وتحكمهم في شؤون كثير من أقطار العالم الإسلامي ، وغير ذلك من مظاهر التقدم والتفوق والسيطرة ، ثم يقارن هذا بواقع المسلمين الذي لا يحسدون عليه ، فيصاب باليأس وفقدان الثقة في النفس ، ويقول بلسان الحال أو المقال : بأن لا قبل لنا بهم ، وبأنه لن تجديَ مواجهتهم ، وبأن دحر أولئك الخصوم خيال ووهم عريقان ، حتى ليكاد اليأس أن يقضي عليه قبل أن يقضي عليه عدوه !!

وإننا نحن المسلمين يجب ألا نقع فريسة لليأس ، ويجب أن تكون الثقة في النفس بعد الثقة في الله تعالى حاضرة ودائمة ، وأن نعلم أننا مأمورون بالعمل ولسنا مطالبين بالنتائج ، وما دمنا نأخذ بالأسباب ونتوكل على الله ، فلنثق بأن الله لن يتخلى عنا ، خاصة ونحن ما أردنا إلا الذب عن دينه والذود عن محارمه ابتغاء مرضاة الله ، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

[الحج:٤٠]

وختامًا يجب أن نتذكر أن اليأس منهيٌّ عنه ، فقد قال تعالى : ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر:٥٣] ، وجعل الله اليأس قرين الكفر ، فقال سبحانه : ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧] ، قرين الضلال ، فقال عز شأنه : ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٦] .

*****

المبحث الثاني
بعض المبشرات على طريق المواجهة

هناك خطوات عملية مباركة قد تمت في سبيل مواجهة الغزو الفكري ، تبشر بخير كثير في هذا الصدد ، وهذه المبشرات نستطيع أن نلمسها على كافة الميادين من إعلام وتعليم ودعوة وثقافة ، ومن خلال كافة الوسائل ، وعلى مختلف المستويات ، وأسوق بعض الأمثلة الموجزة من هذه الجهود والخطوات الطيبة ، فيما يلي :

إن مما يبشر بخير توجُّهَ بعضِ الحكومات في الأقطار الإسلامية نحو تطبيق شرع الله تطبيقًا كاملًا ، وأخذَها هذا الأمرَ بجِدّ ، فنسأل الله لها التوفيق وأن يبعد عنها كيد الكائدين ، ويجنبها مكر المتآمرين ، وأن يوفق باقي الحكومات في البلاد الإسلامية لأن تحذو حذوها ، فإن هذا الأمر - كما لا يخفى - لو عمّ ؛ كفيل بأن يجهض حملات الغزو الفكري ، وأن يُعثّر خطوها ، ويعرقل زحفها .

وإن الأمل لكبير في أن ينتشر هذا التوجه ، وأن يُصبح سمة غالبة في الأقطار العربية والإسلامية في أعقاب ما عُرف بـ « ثورات الربيع العربيِّ » التي قامت في العام ٢٠١١م (١٤٣٢هـ) ، وأطاحت بأنظمة علمانية فاجرة محادّةٍ لله ورسوله والمسلمين ، وعلى رأسها نظام فرعون مصر « محمد حسني مبارك » ، ومِن قبْله جَبّارُ تونس « زين بن عليّ » ، ومن بعدهما سفّاح ليبيا الهالك « معمّر القذافي » ، ونسأل الله أن تلحق بهذه الأنظمة مثيلاتُها من أنظمة البعثيّين والشيوعيّين وعملاء المشروع « الصهيو أمريكي » الذين نُكِبت بهم أمتنا في هذا العصر ، وعانت بسببهم من الأوجاع والهزائم ما لم تُعانِ مثله من قبل .

ومن المبشرات قيام مدارس ومحاضن إسلامية في كثير من أقطار العالم الإسلامي، تتبنى منهج الإسلام في التعليم والتربية، وتسير على خطاه، محاوِلة أن توجد نظامًا تربويًا وتعليميًا إسلاميًا على أرض الواقع، مُشْرَبًا ومصطبغا في كل جوانبه ومواده بروح الإسلام، وكثير من هذه المدارس يقوم على أمرها دعاة صادقون ومجاهدون مخلصون.

كما أننا نلاحظ في الآونة الأخيرة انتشارًا لمكاتب وجمعيات تحفيظ القرآن الكريم، بعد فترة ركود، وإقبالًا من المسلمين على تحفيظ أبنائهم لكتاب الله ﷻ على مختلف المستويات، والفضل في هذا يعود ـ بعد الله تعالى ـ إلى تعاون المسلمين على إيجاد هذه المحاضن.

وفي مجال الإعلام، فإن هناك بعض المجلات الإسلامية عمومًا والموجَّهة للطفل المسلم خصوصًا بدأت تنتشر ـ وإن كنا نرجو المزيد منها ـ كما أن الكتب والقصص الإسلامية للنشء أخذت في الظهور والتزايد، بالإضافة إلى الوسائل السمعية والمرئية التي تتضمن جوانب مختلفة من الثقافة الإسلامية، وتعرضها بطرق مناسبة للنشء من أناشيد وأغان وتمثيليات وغيرها، والحقيقة أنها تسدّ فراغًا ملموسًا، ولكنها تبقى بحاجة إلى مزيد من الدعم والتشجيع؛ لكي تتسع رقعتها، ويكثر عددها، ويتاح لأكبر عدد من النشء الانتفاع بها، والإفادة منها، ولتحل محل تلك المادة الثقافية المخالفة للإسلام في الإعلام المسموع والمرئي.

ومن الخطوات المهمة في مجال الإعلام المسموع وجود بعض الإذاعات الإسلامية في أكثر من قطر من الأقطار المسلمة، مثل إذاعات القرآن الكريم المحلية في بعض البلدان العربية، وعلى رأسها إذاعة القرآن الكريم في مصر،

ومثل هذه الإذاعات لها دور طيب وجهد مشكور في نشر الثقافة الإسلامية ، ومقارعة الغزو الفكري ، ويمكن لها أن تسهم بدور أفضل وأكبر مع الاعتناء بها وتوسيع نطاقها ، وتطويرها دائمًا إلى الأحسن ، أو باختصار الاعتناء بها فنيًّا أو شكلًا ، ومضمونًا .

وكذلك فإنه مما يُثلج الصدر أن فضاء الإعلام قد امتلأ بالكثير من القنوات التليفزيونية التي تنتهج سبيل الإعلام النظيف من كل ما يتعارض مع الإسلام فكرا وتطبيقا ، بالإضافة إلى الكثير من القنوات الفضائية الإسلامية التي تقوم على نشر مبادئ الدين الحنيف والدعوة إلى تطبيق شعائره وشرائعه .

وفضلا عن هذا فقد وُظِّفت شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) من قِبَل كثير من الأفراد والعلماء والدعاة ، والجهات والمؤسسات الرسمية وغير الرسمية في مجال نشر حقائق الإسلام ، والرد على أباطيل خصومه وأعدائه ، وكشف زيفها ، وتهافت مضمونها .

ثم إنه قد قامت مؤسسات ودعوات غير رسمية ، أخذت على عاتقها العمل للإسلام ، ودعوة الناس إلى الالتزام بشعائره ، وتطبيق شرائعه ، والعمل الدؤوب من أجل تربية الأجيال ، وتنشئتهم تنشئة إسلامية ، ومجابهة الغزو الفكري ، ودرء أخطاره ، ووقاية المسلمين من بلائه ، ومع أن بعض هذه المؤسسات الدعوية لا تسلم من ملاحظات على منهجها في العمل للإسلام ، إلا أن منها مؤسسات ودعوات تسير على منهج إسلامي أصيل رشيد في الدعوة والعمل الإسلامي ، وهي تتحرك بخطى ثابتة ، ونظرة للأمور متزنة ثاقبة ، وقد أسهمت مع غيرها في مقاومة الغزو الفكري مقاومة فعالة ، رغم ما تلقاه من تضييق وكيد .

ومن هذه الدعوات التي كان لها أعظم الأثر في الحياة الإسلامية ؛ دعوة « الإخوان المسلمين » ، التي ظهرت على يد مؤسسها الإمام الشهيد « حسن البنا » ، عام ١٩٢٨م ، حيث إنها تدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتتبنى منهج الرسول ﷺ في الدعوة وتغيير المنكر ، وتهدف إلى إيجاد الفرد المسلم والبيت المسلم والمجتمع المسلم ، كما فعل النبيُّ ﷺ في بناء دولة الإسلام الأولى ، وتدعو إلى تطبيق شرع الله تعالى بشموله تطبيقًا يتسنَّم به المسلمون ذُرى المجد ، وقمة الفلاح والعزِّ ، وترى ـ انطلاقًا من مبادئ الإسلام ـ أن الأمة الإسلامية أمة ذات رسالة ، وعليها أن تقودَ الدنيا بالإسلام إلى بَرِّ النجاة وشاطئ الأمان .. إلى غير ذلك مما قامت عليه ومن أجله مبادئ هذه الدعوة المباركة ، ولقد كان لعلماء هذه الدعوة جهود مشكورة في الرد على شبهات الغزو الثقافيّ ، ومقاومة آثاره في سائر أقطار العالم الإسلامي .

ولقد برزت في السنوات الأخيرة كتابات عديدة لبعض علماء الدعوة الإسلامية في مواجهة الغزو الفكري ، فهتكت أستاره ، وفنّدت كثيرًا من شبهاته ، وفضحت بعض معاقله ورموزه ، فكانت كالصواعق عليه ، حيث أسهمت في إضعاف قوته ، وإيقاظ المسلمين ، وتبصيرهم بما يُكاد لهم من أعدائهم .

وبالإضافة إلى ما سبق ، فإننا لا ننسى الدور الذي تؤديه بعض المؤسسات الإسلامية الدعوية والتعليمية العريقة ، مثل الأزهر الشريف ، عبر هيئاته ومعاهده ، في عملية مواجهة الغزو الثقافي ، طيلة أعصار متتالية ، وحتى وقتنا هذا ، فنسأل الله تعالى أن يبارك في جهود علمائه ، والقائمين عليه ، وأن يمنحهم المزيد من التوفيق لخدمة الإسلام ، والذب عنه ، والنهوض بالأمة الإسلامية .

كل هذا ونحوه قد أثمر ثمارًا طيبة مباركة ، يستطيع المرء ملاحظتها من خلال مظاهر أو ظواهر كثيرة ، أبرزها تلك الصحوة الإسلامية التي عمت أقطار الإسلام ، بل العالم أجمع ، وما اكتنفتها من عودة جماهير عريضة من المسلمين إلى دينهم بعد أن فُرض عليهم ، وأريد لهم أن ينسلخوا منه ، ومطالبة تلك الجماهير المؤمنة بأن يُطبق شرع الله ، ويسود على كل ما عداه ، وانحيازها دائمًا إلى جانب دينها وشريعة ربها ، وغير هذه الظواهر مما يبعث في النفس الأمل في إحراز النصر على أعدائنا الذين تداعوا علينا ، وظاهروا على إطفاء نور الله ، وفي دحر الغزو الفكري وانحساره عن بلادنا ، وأن يشرق نور الإسلام من جديد ، ويعم الدنيا ، ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف:٨] ، ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٤-٦] .

*****

المراجع والمصادر

١ـ القرآن الكريم ، سبحان من أنزله .

٢ـ أباطيل وأسمار ، محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ط الثانية ، ١٩٧٢م .

٣ـ الابتعاث ومخاطره ، محمد الصباغ ، جامعة الإمارات العربية المتحدة ١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م .

٤ ـ أبحاث في الفكر اليهودي ، د/ حسن ظاظا ، دار القلم ، دمشق ، دار العلوم ، بيروت ، ط الأولى ، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م .

٥ ـ الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، د/ محمد محمد حسين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط الرابعة ، ١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م .

٦ ـ الاتصال بالجماهير والدعاية الدولية ، د/ أحمد بدر ، دار القلم ، الكويت ، ط الأولى ، ١٣٩٤هـ ، ١٩٧٤م .

٧ ـ أثر وسائل الإعلام على الطفل ، أحمد محمد الزبادي ، إبراهيم ياسين الخطيب ، محمد عبد الله عودة ، الأهلية للنشر والتوزيع ، عمان ـ الأردن .

٨ ـ أثر وسائل الإعلام على الطفل ، د/ صالح دياب هندي ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ـ الأردن ، ط الأولى ، ١٩٩٠م .

٩ ـ أثر وسائل الإعلام على الطفل ، د/ عبد الفتاح أبو معال ، دار الشروق ، للنشر والتوزيع ، عمان ـ الأردن ، الطبعة العربية ، ١٩٩٠م .

١٠ ـ الإذاعات التنصيرية الموجهة إلى المسلمين العرب ، د/ كرم شلبي ،

مكتبة التراث الإسلامي ، القاهرة ، ط الأولى ، ١٤١٢هـ ، ١٩٩١م .

١١ ـ الإذاعات الموجهة باللغة العربية إلى الوطن العربي ، د/ محمد محمود المرسي ، بحث منشور بمجلة الفكر الاستراتيجي العربي ، مجلة فصلية تصدر عن معهد الانتماء العربي ، بيروت العدد (٤٢) ، تشرين الأول « أكتوبر » ١٩٩٢م .

١٢ ـ أساس البلاغة ، تأليف الإمام العلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، دار الفكر ، ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م .

١٣ ـ أسباب النزول ، تأليف أبي الحسن علي بن أحمد الواحد النيسابوري ، ٤٦٨هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط الأولى ، ١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢م .

١٤ ـ الاستشراق والمستشرقين مالهم وما عليهم ، د/ مصطفى السباعي ، المكتب الإسلامي بيروت ، ط الثالثة ، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م .

١٥ ـ الإسلام على مفترق الطرق ، تأليف محمد أسد ، نقله إلى العربية د/ عمر فروخ ، الناشر مكتبة المنار ، الكويت ، ط السابعة ١٩٧٤م .

١٦ ـ الإسلام في وجه الزحف الأحمر ، محمد الغزالي ، الناشر مكتبة وهبه ، القاهرة ، ط الثامنة ، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٤م .

١٧ ـ الإسلام والتحديات الجديدة ، د/ محمد عمارة ، من سلسلة معارف إنسانية ، تصدر عن ندوة الثقافة والعلوم ، دبي ، الإمارات العربية المتحدة ـ ط الأولى ١٩٩٣م .

١٨ ـ أصول الفكر التربوي في الإسلام ، د/ عباس محجوب ، جامعة الإمارات العربية المتحدة ، ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م .

١٩ـ الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار ، تصنيف الإمام الحافظ العلامة أبي بكر محمد بن موسى الحازمي الهمذاني ، تحقيق د/ عبد المعطي أمين قلعجي ، منشورات جامعة الدراسات الإسلامية ، كراتشي ، باكستان ، ط الثانية ، ١٤١٠هـ ، ١٩٨٩م .

٢٠ ـ الإعلام الشيوعي المعاصر وأثره في الأمة الإسلامية ، د/ يوسف محي الدين أبو هلالة ، مكتبة الرسالة الحديثة ، عمان ، الأردن ، ط الأولى ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٧م .

٢١ ـ الإعلام العربي المعاصر وأثره في ضياع الجيل وهزيمة الأمة ، د/ يوسف العظم ، بحث منشور ضمن كتاب الإعلام الإسلامي العلاقات الإنسانية النظرية والتطبيق ، إصدار الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الرياض ، ط الثانية ، ١٤٠٥هـ .

٢٢ـ الإعلام الغربي المعاصر وأثره في الأمة الإسلامية ، د/ يوسف محي الدين أبو هلالة ، مكتبة الرسالة الحديثة ، عمان ، الأردن ، ط الأولى ، ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٧م .

٢٣ـ الإعلام في ديار المسلمين ، بداية ورسالة ، د/ يوسف محيي الدين أبو هلالة ، دار العاصمة ، الرياض ، النشرة الأولى ، ١٤٠٨هـ .

٢٤ ـ الأعلام ؛ قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط السابعة ١٩٨٦م .

٢٥ ـ الإعلام نشأته ، وأساليبه ، ووسائله ، ما يؤثر فيه ، د/ يوسف محيي الدين أبو هلالة ، مكتبة الرسالة الحديثة ، عمان ، الأردن ، ط الأولى ، ١٤٠٨هـ ،

١٩٨٧م .

٢٦ـ الإعلام والبيت المسلم ، فهمي قطب الدين النجار ، شركة الشعاع للنشر ، الكويت ، ط الأولى ، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م .

٢٧ ـ الإعلام والتيارات الفكرية المعاصرة ، سعيد عبد الله حارب ، دار الأمة للنشر والتوزيع ، دبي ، الإمارات العربية المتحدة .

٢٨ ـ الإعلام اليهودي المعاصر وأثره في الأمة الإسلامية ، د/ يوسف محيي الدين أبو هلالة ، مكتبة الرسالة الحديثة ، عمان ، الأردن ، ط الأولى ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٧م .

٢٩ ـ البث المباشر ، حقائق وأرقام ، د/ ناصر بن سليمان العمر ، دار الوطن للنشر الرياض ، ط الثانية ، ١٤١٢هـ .

٣٠ ـ التاريخ بين الحقيقة والتضليل ، د/ جمال عبد الهادي ، د/ وفاء محمد رفعت ، أستاذ علي لبن ، دار الوفاء للطباعة والنشر المنصورة .

٣١ـ التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، د/ مصطفى خالدي ، د/ عمر فروخ ، المكتبة العصرية ، صيدا ، ط الأولى ، ١٤٠١هـ ، ١٩٨٠م .

٣٢ ـ التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة ، د/ إسحاق أحمد فرحان ، دار الفرقان ، عمان ، الأردن ، ط الثالثة ، ١٤١١هـ ، ١٩٨٩م .

٣٣ ـ تربية الأولاد في الإسلام ، عبد الله بن ناصح علوان ، الناشر دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ، ط السابعة ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م ،

٣٤ ـ تربية الأولاد في ظل الإسلام ، د/ محمود محمد محمد عمارة ، دار التراث العربي ، ط الثانية ، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٤م .

٣٥ ـ التطوير بين الحقيقة والتضليل ، د/ جمال عبد الهادي ، أ/ علي لبن ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة ١٤١١هـ ، ١٩٩١م .

٣٦ـ تفسير القرآن العظيم ، للإمام الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤هـ ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .

٣٧ ـ التلخيص للحافظ الذهبي ، مطبوع بهامش المستدرك للحاكم النيسابوري ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

٣٨ ـ التلفزيون السم اللذيذ ، د/ عبد السلام البسيوني ، مكتبة الأقصى الإسلامية ، الدوحة ـ قطر ـ ط الأولى ١٤١٠هـ ، ١٩٨٩م .

٣٩ ـ التلمود ، تاريخه وتعاليمه ، ظفر الإسلام خان ، دار النفائس ، بيروت ـ ط السادسة ، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م .

٤٠ ـ التنصير التحدي والمواجهة ، د/ أحمد عبد الرحيم السايح ، مقال بمجلة منار الإسلام ، تصدر عن وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف ، الإمارات العربية المتحدة ، العدد التاسع ـ السنة السابعة عشرة ، رمضان ١٤١٢هـ ، مايو ١٩٩٢م .

٤١ ـ الجامع الصحيح ، وهو سنن الترمذي ، لأبي عيسى محمد بن عيسى ابن سورة ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، محمد فؤاد عبد الباقي ، إبراهيم عطوة عوض ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

٤٢ ـ الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار الكتب العلمية بيروت ، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م .

٤٣ ـ جذور البلاء ، عبد الله التل ، المكتب الإسلامي بيروت ، بيروت ط الثانية ، ١٣٩٨هـ ، ١٩٧٨م .

٤٤ ـ حاضر العالم الإسلامي ، تأليف لوثروب ستودارد الأمريكي ، نقله إلى العربية ، عجاج نويهض ، بتعليقات الأمير شكيب أرسلان ، دار الفكر ، بيروت ، ط الرابعة ١٣٩٤هـ ، ١٩٧٣م .

٤٥ ـ حصوننا مهددة من داخلها ، د/ محمد حسين ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط الرابعة ١٣٩٧هـ ، ١٩٧٧م .

٤٦ ـ حقائق تاريخية عن العرب والإسلام في أفريقيا الشرقية ، محمد أحمد مشهور الحداد ، دار الفتح ، بيروت ، ط الأولى ، ١٣٩٣هـ ، ١٩٧٣م .

٤٧ ـ الحل الإسلامي فريضة وضرورة ، د/ يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط الثالثة ١٣٩٧هـ ، ١٩٧٧م .

٤٨ ـ الخنجر المسموم الذي طعن به المسلمون ، أنور الجندي ، دار الاعتصام ، القاهرة .

٤٩ ـ الدعوة الإسلامية والإعلام الدولي ، د/ محيي الدين عبد الحليم ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

٥٠ ـ الرجل الصنم كمال أتاتورك ، تأليف ضابط تركي سابق ـ ترجمة عبد الله عبد الرحمن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط الأولى ١٣٩٧هـ ، ١٩٧٧م .

٥١ ـ دور المسلم في الحياة ، د/ توفيق الواعي ، دار النشر والتوزيع الإسلامية ، القاهرة .

٥٢ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، للعلامة أبي

الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي ، المتوفى سنة ١٢٧٠هـ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

٥٣ ــ سنن أبي داود ، الإمام الحافظ المصنف المتقن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي ، ضبط أحاديثه وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

٥٤ ـ سنن ابن ماجه ، الحافظ أبي عبد الله بن محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

٥٥ ـ سنن الدارمي للإمام الحافظ عبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي ، تحقيق فواز أحمد زمرلي ، خالد السبع العلمي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ط الأولى ١٤٠٧هـ ، ١٩٧٨م .

٥٦ ـ سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

٥٧ ـ سياسة التعليم في مصر تحت الاحتلال البريطاني (١٨٨٢ ــ ١٩٢٢م) ، د/ محمد أبو الأسعاد ، طيبة للدراسات والنشر .

٥٨ ـ السيرة النبوية لابن هشام ، تحقيق مصطفى السقا ، إبراهيم الإبياري ، عبد الحفيظ شلبي ، دار الوفاق ، بيروت ، ط الثانية ، ١٣٧٥هـ ، ١٩٥٥م .

٥٩ ـ شبابنا في موجة الإعصار الغربي ، بقلم عبد القادر عبار ، مجلة الأمة تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر ، العدد الخمسون ، السنة الخامسة ، صفر ١٤٠٥هـ ، نوفمبر ١٩٨٤م .

٦٠ ـ الشعوبية الجديدة ، محمد مصطفى رمضان (بدون دار وتاريخ النشر) .

٦١ ـ الصحاح ، تاج اللغة وصحاح العربية ، تأليف إسماعيل بن حمد الجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط الثالثة ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م .

٦٢ ـ الصحافة والأقلام المسمومة ، أنور الجندي ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ط الأولى ١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م .

٦٣ ـ صحيح البخاري ، الإمام أبي عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة بن بردزبه البخاري الجعفي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط الثانية ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م .

٦٤ ـ صحيح الجامع الصغير وزيادته ، تأليف محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط الثانية ، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م .

٦٥ ـ صحيح مسلم بشرح النووي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

٦٦ ـ الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ، أبو الحسن علي الحسني الندوي ، دار القلم ، الكويت ، دار الأنصار القاهرة ط الثالثة ١٣٩٧هـ ، ١٩٧٧م .

٦٧ ـ الصهيونية والسينما ، جان ألكسان دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، ط الأولى ١٩٨٩م .

٦٨ ـ عداء اليهود للحركة الإسلامية ، إعداد زياد محمود علي ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمان الأردن ، ط الأولى ١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢م .

٦٩ ـ علاقة الطفل المصري بوسائل الاتصال ، د/ عاطف عدلي العبد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٨م .

٧٠ ـ الغارة على العالم الإسلامي ، تأليف ، أ.ل شاتيليه ، لخصها ونقلها إلى العربية محب الدين الخطيب ، مساعد اليافي ، مكتبة أسامة بن زيد بيروت .

٧١ـ الغزو الثقافي يمتد في فراغنا ، محمد الغزالي ، دار الصحوة للنشر ، القاهرة ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٧م .

٧٢ ـ الغزو الفكري أهدافه ووسائله ، د/ عبد الصبور مرزوق رابطة العالم الإسلامي ، مكة المكرمة .

٧٣ ـ الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، د/ عبد الستار فتح الله سعيد ، منشور ضمن بحوث مؤتمر الفقه الإسلامي ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، طبعة ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٥م .

٧٤ ـ الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، د/ علي عبد الحليم محمود ، منشور ضمن بحوث مؤتمر الفقه الإسلامي ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، طبعة ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م .

٧٥ ـ الغزو الفكري وهم أم حقيقة ، د/ محمد عمارة ، دار الشروق ، القاهرة ، ط الأولى ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩م .

٧٦ ـ غزو في الصميم ، دراسة واعية للغزو الفكري والنفسي والخلقي والسلوكي ، عبد الرحمن حسن حنبكه الميداني ، دار القلم ، دمشق ط الثانية ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م .

٧٧ـ فتاوى عن الشيوعية ، د/ عبد الحليم محمود ، دار المعارف ، مصر ط الثانية .

٧٨ ـ الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني مع شرحه

بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني ، كلاهما تأليف أحمد عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتي ، دار إحياء التراث العربي ، القاهرة ، ط الأولى .

٧٩ ـ فتنة في الأرض وفساد كبير ، فهمي هويدي ، مقال بجريدة الخليج الإماراتية ، العدد ٥٠٧٨ ، الثلاثاء ١٥ شوال ١٤١٣هـ ، إبريل ١٩٩٣م .

« بالإضافة لأعداد أخرى من الجريدة المذكورة » .

٨٠ ـ الفرق بين الفرق ، صدر الإسلام الأصولي العالم المتفنن عبد القاهر ابن طاهر بن محمد البغدادي الإسفرائيني التميمي المتوفى عام ٤٢٩هـ ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الناشر دار المعرفة للطبع والنشر ، بيروت .

٨١ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل ، للإمام أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ط الثاني ١٣٩٥هـ ، ١٩٧٥م .

٨٢ ـ فقه الدعوة والإعلام ، د/ عمارة نجيب ، ملتزم التوزيع مكتب سعيد رأفت ، جامعة عين شمس ١٩٨٦م .

٨٣ ـ الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، د/ محمد البهي ، دار الفكر ، بيروت ، ط السادسة ١٩٧٣م .

٨٤ ـ في ظلال القرآن ، بقلم / سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، ط الثانية عشرة ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م .

٨٥ ـ في منزل الوحي ، د/ محمد حسين هيكل ، دار المعارف ، مصر ، ط السابعة .

٨٦ ـ القاموس المحيط ، تأليف العلامة / مجد الدين محمد بن يعقوب

الفيروزأبادي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط الثانية ١٧٠٧هـ ، ١٩٨٧م .

٨٧ ـ قذائف الحق ، محمد الغزالي ، منشورات دار ذات السلاسل ، ط الثالثة ١٩٧٧م .

٨٨ ـ قصة الهداية ، عبد الله ناصح علوان ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط الثانية ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م .

٨٩ ـ القومية في الميزان ، من منشورات مجلة التحرير ، نيويورك .

٩٠ ـ القومية في ميزان الإسلام ، عبد الله ناصح علوان ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط الأولى ١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م .

٩١ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري ، دار المعرفة بيروت .

٩٢ ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، للعلامة علاء الدين علي المتقي ابن حسام الدين الهندي البرهان فوري المتوفى سنة ١٩٧٥هـ ، ضبطه وفسر غريبه الشيخ بكر حياني ، صححه ووضع فهارسه الشيخ صفوت السقا ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩م .

٩٣ ـ لسان العرب ، للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري ، دار بيروت للطباعة والنشر .

٩٤ ـ لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ، تأليف الأمير شكيب أرسلان ، منشورات دار ومكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٩م .

٩٥ ـ مأساتنا في أفريقيا ، الحصار القاسي وثائق من تاريخنا المعاصر ، عماد الدين خليل ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ط الثانية ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م .

٩٦ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، أبو الحسن علي الحسني الندوي ، الاتحاد الإسلامي للمنظمات الطلابية ، الكويت .

٩٧ ـ مجتمع بلا فوارق ، دراسة موضوعية عن موقف الإسلام من الفقر والرق ، عبد الودود شلبي ، الأوقاف والشؤون الإسلامية ، الشارقة ، ط الأولى .

٩٨ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ، تحرير من الحافظين الجليلين العراقي وابن حجر الناشر دار الكتاب العربي ، بيروت .

٩٩ ـ مختار الصحاح ، الإمام محمد أبي بكر عبد القادر الرازي ، مكتبة لبنان بيروت ١٩٨٨م .

١٠٠ ـ المخططات التلمودية الصهيونية اليهودية في غزو الفكر الإسلامي ، أنور الجندي ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ط الثانية ١٣٩٧هـ ، ١٩٧٧م .

١٠١ ـ مذاهب فكرية معاصرة ، محمد قطب ، دار الشروق بيروت ط الأولى ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م .

١٠٢ ـ مذكرات السلطان عبد الحميد ، تقديم وترجمة د/ محمد حرب ، دار القلم ، دمشق ، ط الثالثة ، ١٤١٢هـ ، ١٩٩١م .

١٠٣ ـ مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة عدنان حسن صالح باحارث ، دار المجتمع للنشر والتوزيع ، جدة ، ط الأولى ١٤١٠هـ ، ١٩٩٠م .

١٠٤ ـ المسؤولية الإعلامية في الإسلام ، د/ محمد سيد محمد ، الناشر مكتبة

الخانجي ، القاهرة ، دار الرفاعي ، ط الأولى ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م .

١٠٥ ـ مسار الدعوة الإسلامية في لبنان خلال القرن الرابع عشر الهجري ، حسن خالد ، دار الدعوة ، بيروت ، ط الأولى ١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م .

١٠٦ ـ المستدرك على الصحيحين ، للإمام الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري ، وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي رحمهما الله ، دار الكتاب العربي بيروت .

١٠٧ ـ مع الله ، دراسات في الدعوة والدعاة / محمد الغزالي ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ط الرابعة ، ١٣٩٦هـ ، ١٩٧٦م .

١٠٨ ـ معالم التاريخ الإسلامي المعاصر من خلال ثلاثمائة وثيقة سياسية ظهرت خلال القرن الرابع عشر الهجري ، أنور الجندي ، دار الاعتصام ، توزيع دار الإصلاح للطبع والنشر والتوزيع .

١٠٩ ـ المعجم الأدبي ، تأليف جبور عبد النور ، دار العلم للملايين ، بيروت ط الثانية ١٩٨٤م .

١١٠ ـ معجم أعلام المورد ، موسوعة تراجم لأشهر الأعلام العرب والأجانب القدامى والمحدثين مستقاة من موسوعة المورد ، تأليف منير البعلبكي ، إعداد د/ رمزي البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط الأولى ، ١٩٩٢م .

١١١ ـ معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، تأليف عمر رضا حكالة مؤسسة الرسالة بيروت ، ط السادسة ١٤١٢هـ ، ١٩٩١م .

١١٢ ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، رتبه ونظمه لفيف من

المستشرقين ونشره د/ أ.ي. ونسنك ، وآخرون ، مطبعة بريل في مدينة ليدن ، بداية الطبع سنة ١٩٣٦م .

١١٣ ـ المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، بالقاهرة ، ط الثالثة .

١١٤ ـ معركة التبشير والإسلام ، حركات التبشير والإسلام في آسيا وأفريقيا وأوروبا ، د/ عبد الجليل شلبي ، مؤسسة الخليج العربي ، القاهرة ط الأولى ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩م .

١١٥ ـ المفردات في غريب القرآن ، تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني « ٥٠٢هـ » ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .

١١٦ ـ الملل والنحل ، تأليف أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر بن أحمد الشهرستاني (٤٧٩ ـ ٥٤٨) تحقيق محمد سيد كيلاني ، الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ط الثانية ١٣٩٥هـ ، ١٩٧٥م .

١١٧ ـ من التبعية إلى الأصالة في مجال التعليم واللغة والقانون ، أنور الجندي ، دار الاعتصام ، القاهرة .

١١٨ ـ منهج علماء الدعوة في الكتابة للطفل المسلم في واقعنا المعاصر ، إسماعيل علي محمد علي ، رسالة ماجستير مخطوط بكلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة ، ١٤١٢هـ ، ١٩٩١م .

١١٩ ـ الموسوعة العربية الميسرة ، بإشراف محمد شفيق غربال ، دار إحياء التراث العربي ، صورة طبق الأصل من طبعة ١٩٦٥م .

١٢٠ ـ الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، الندوة العالمية

للشباب الإسلامي ، الرياش ، ط الثانية ، ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩م .

١٢١ ـ الموطأ لإمام الأئمة وعالم المدينة ابن أنس ﷺ صححه ورقمه وخرج أحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٥م .

١٢٢ ـ الموقف من سينما إسلامية ـ محمد وليد جداع ـ دار الوفاء للطباعة والنشر المنصورة ، ط الثانية ، ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩م .

١٢٣ ـ نحو إعلام إسلامي ، إعلامنا إلى أين ؟ المستشار الدكتور علي جريشة ، الناشر مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط الأولى ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩م .

١٢٤ ـ النظام الإعلامي الجديد ، د/ مصطفى المصمودي ، عالم المعرفة ، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت ،٩٤ ـ المحرم ١٤٠٦هـ ، أكتوبر ١٩٨٥م .

١٢٥ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر للإمام مجد الدين مبارك بن محمد الجزري ابن الأثير ، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ، محمود الطناحي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م .

١٢٦ ـ هزيمة الشيوعية في العالم الإسلامي ، أنور الجندي ، دار الاعتصام .

١٢٧ ـ هموم داعية ، محمد الغزالي ، دار البشير ، القاهرة ، ط الثانية ١٤٠٥هـ .

١٢٨ ـ واقعنا المعاصر ، محمد قطب ، الناشر مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر ، جدة ط الأولى ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م .

١٢٩ ـ الوثيقة ، الإسلام الخطر ، نص الخطاب الذي ألقاه و.هـ . ت .

جاير جاردنر ، في مؤتمر أدنبره للتبشير « التنصير » المنعقد بالقاهرة عشية السبت ١٨ يونية ١٩١٠م ، محمود الشاذلي ، المختار الإسلامي القاهرة .

١٣٠ ــ وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، د/ حسان محمد حسان ، دعوة الحق ، سلسلة شهرية تصدر عن الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي ، مكة المكرمة ، السنة الأولى ، شعبان ١٤٠١هـ ، عدد (٥) .

*****

الفهرس

الموضوع الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع **الصفحة**

*****